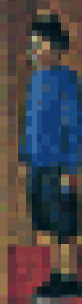


غابرييل غارسيا ماركيز

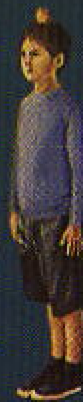
مئة عام من العزلة





ONE HUNDRED YEARS OF SOLITUDE





■ قليلةٌ هي الروايات الّتي تغيّر حياة الناس ، وهذه واحدة من تلك الروايات .

« و . ل . و . ب / الغارديان »

■ هذه رواية كاسحة تتّسم بالألق الفوضويّ ، وهي أقرب إلى الشعر منها إلى النثر ، بل هي ملحمة موسيقيّة لا متناهية .

« التايمز »

■ هذه الرواية عملٌ أدبيٌ غنيّ ، مكثّفٌ كالأدغال ، حافلٌ بالوهم المتوضّع ، زاخرٌ بالفعل ، ثريٌ بالمرح الحزين ، يتفق بالأحداث والفلسفة والتأمّل ، حتّى ليدفعك إلى العجب .

« صنداي تايمز »

■ تصحو ، بعد قراءة هذه الرواية الرائعة ، كمن يصحو من حلم : عقلك وخيالك جامحان بل ملتهبان .. وأمامك غابرييل غارسيا ماركيز العملاق كخياله وجبروته وعظمته ؛ فهو والرواية مدهشان .

« نيويورك تايمز »

■ هذه خبرة لا تعدلها ، في الغنى ، خبرةٌ أخرى .

« فاينانشال تايمز »

■ هذه الرواية من أجمل ما قرأت ، وهي على الرغم من سمة العزلة الّتي تنسحب عليها حتّى اختارها لها كاتبها اسماً ، وعلى الرغم من الحتميّة الّتي ينظر بها المؤلّف للأمور من زاويته ، أشبه ما تكون بالحياة : شائقة وشائكة ، بسيطة ومعقّدة ، متفائلة ومتشائمة ، حلوة ومرّة إنّها ككلّ الأدب الرفيع جديرة بأن تُقرأ ، وككلّ الحياة تستأهل أن تُعاش .

« د. محمّد الحاجّ خليل »

ISBN 9953-36-701-9





مقدمة

لقد كان الفن والإبداع دائماً فعل عطاء وتضحية ، وموقفاً ضد الظلم . وكان دائماً دعوة للمعرفة والحرية والحق والخير والجمال .

ومن هنا كانت إنسانية الإبداع ، ومن هنا كان تعملق المبدعين .

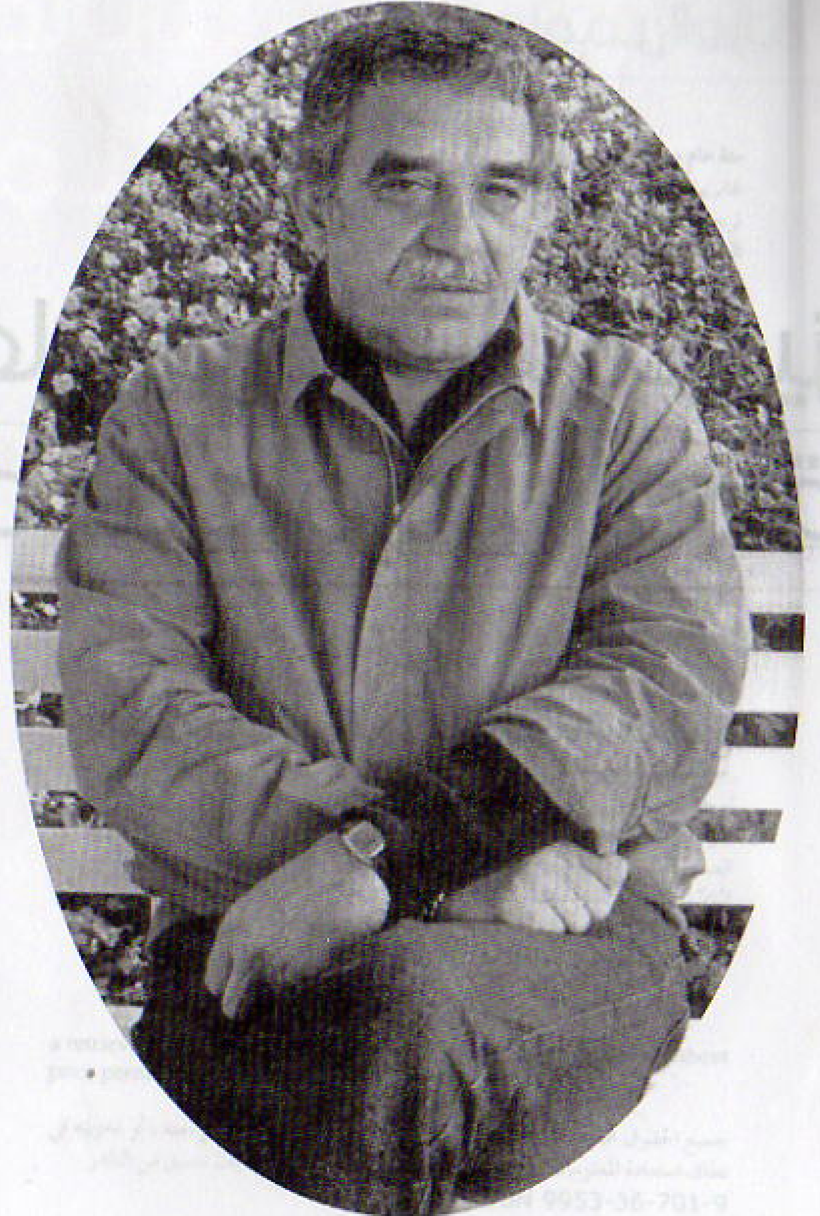
ولكن ، هل يقتصر الإبداع على الأعمال التي تتناول التجارب والخبرات الإنسانية الكبرى ؛ كالحب والحرب والجوع والمرض وسواها؟

ألا يمكن للمبدع أن ينطلق من تجربة أو خبرة أو بيئة ضيقة محدودة ، فيعالج الأحداث ، والمشاعر والأمزجة ، والآمال والآلام ، والمطامح والنوازع والرغبات ، لدى شخوص هذه التجربة أو الخبرة أو البيئة؟ فالناس هم الناس في كل الأصقاع . وآمالهم وآلامهم ومطامحهم ورغائبهم تكاد تكون واحدة .

ألم يبلغ الأديب العربيّ الكبير ، نجيب محفوظ ، مرتبة العالمية والإنسانية في قصصه ورواياته ، التي أنشأها حول الناس من أهله ومعارفه في مصر والبلاد العربية؟ أفلا يصدق ما نذهب إليه على رواية نجيب محفوظ «الثلاثية» الرائعة : «بين القصرين - قصر الشوق - السكرية»؟

وتلك هي حال أديبنا الكولومبي لكبير ، غابرييل غارسيا ماركيز .

فقد أنشأ هذا الكاتب روايته الرائعة «مئة عام من العزلة حول سيرة حياة عائلة (بوينديا) في قرية (ماكوندو) ، ابتداءً من إنشاء



غابرييل غارثيا ماركيز

القرية ذاتها على يد (خوزيه أركاديو بوينديا) الجدّ الأول و(أورسولا) الجدة الأولى، وانتهاء بحفداء حفدائهم. وتابع ماركيز سلالة هذه الأسرة وما ومن يحيط بها. فعرض بصبر لا ينفد، ودقة غير متناهية، تفاصيل حياتهم بشظفها ورفاهها، بأحلامها ومطامحها، وآلامها وآمالها، بتقاليدها المحافظة وعلاقاتها الإباحية المحمومة، بتديّنها ومجونها، ومقاومتها للظلم والظالمين والغرباء الطامعين، وتصدّيها لعناصر الطبيعة القاسية التي لا ترحم، في سياق ملحمي يفوق التصوّر والخيال.

صحيح أن من تتسع آفاقه وتكثر خبراته يكون مهيأً للإبداع في نقل الخبرات الإنسانية الشاملة الكبرى، ويقترب بإبداعه من العالمية والإنسانية.

ولكن، صحيح أيضاً أنّ من يغوص في تجربته، مهما ضاقت بيئتها، ويتقصى جوانبها بتحرٍّ وتعمق واعيين، يكون قادراً على خلق الشمول من الخصوص، والعالمية من الفردية، والإنسانية من الذاتية. ذلك أنّ الجواهر تلتقي، في نهاية المطاف، عند بؤرة واحدة، هي من الصّغر بحيث تكاد لا ترى.

فكيف إذا اجتمع الأمران كلاهما لماركيز: سعة الأفق وغنى الخبرات، والقدرة على الغوص، حتى الأعماق، في تجربة بيئته المحدودة، فينقلها من الضيق والمحدودية إلى العالمية والإنسانية، بإبداع يندر أن يجارى!!

فمن أحضان التقاليد الأدبية الراسخة التي وعاها ماركيز، انطلق هذا الأديب من حياة أسرة واحدة في بقعة صغيرة، هي قرية (ماكوندو) الجديدة، مستفيداً من منجزات الرواية المعاصرة وثراء ما وعته الأجيال من موروث شعبي وأدب منقول، ليشيد صرح عالم روائي آسر بما فيه من جماليات العمل الفني، ولا سيما تصوير جمال القبح، وما يزخر به من العلاقات، فيحيله كوناً هائلاً يتحقق فيه قوله: «كل رواية جيدة هي سبر لأغوار العالم»، كما يقول كامل يوسف حسين في مقدمة ترجمته لقصة ماركيز «في ساعة نحس».

إنه عالم يضج بالحيوية والتألق، ويستقطب الاهتمام في بعديه البارزين: الزمن والعزلة.

فالزمن عند ماركيز ينساب في إطار مفهوم الدورة الزمنية. وعجلة الزمن تميط اللثام عن احتمال نهاية السلالة، ولكن ليس عن نهاية دورة الحياة. إنها تجعل الحاضر مُذكّراً على نحو ما سيكون عليه المستقبل، أو كما يقول ابن خلدون: «الآتي أشبه بالماضي من القطرة بالقطرة».

إن العزلة في رواية ماركيز «مئة عام من العزلة» تتجاوز كونها حالة معزولة. فهي تضرب جذورها عميقاً في أرض الواقع، لتغدو طريقة حياة في مواجهة الظلم والأحوال السياسية والاقتصادية والأطماع الخارجية. ولا تتلاشى العزلة إلا حين بتصاعد الصراع فيغدو تطاحناً حتى الموت في مواجهة الاغتراب عن الطبيعة

والآخرين وعن الذات . إن تهشّم القوقعة ، كما يقول كامل يوسف حسين ، لا يحدث إلاّ في حالة واحدة : حين يغدو بداخلها كائن آخر مختلف نوعاً عن سابقه ، كائن ينجح في أن يحدّق في وجه اغترابه .

إن تاريخ هذه العائلة كآلة على عجلة ، لا يمكنها تجنب الدوران والتكرار . فهي عجلة يمكن لها أن تستمر في الدوران إلى ما لا نهاية .

أما تاريخ الأفراد من سلالة خوزيه أركاديو بويندبا وأورسولا ، من العقيد أوريليانو وأخيه خوزيه الابن وأمارانتا وروبيكا وفيرناندا، حتى أوريليانو الأخير وأمارانتا - أورسولا ، فملكيادس والغجر ، فلا يعدو أن يكون تنويعات على شتى ضروب العزلة . فهذا التاريخ رحلة طويلة ، ابتدأت بالجدّين الأكبرين وانتهت بحفداء الحفداء ، لقهر العزلة والاغتراب . وقد انتهت في فيافي الفناء بحكم القصور الذاتي . ولكنها تظل تشير إلى مشارف الأدغال ، حيث ترتجف أوراق الشجر بشهوة البقاء ورعشة انتظار الحياة من جديد .

فأوّل السلالة مقيّد ومربوط إلى شجرة الكستناء ، والأخير منها فانٍ . . يلتهمه النمل . ولكن الحياة باقية . . وتستمر . . لا يحدّها قيد . . ولا يغلبها فناء .

د . محمد الحاج خليل

(١)

مضى زمن طويل، والآن أمام فريق الإعدام، يتذكر الكولونيل أوريليانو ذلك اليوم البعيد. كان الوقت عصراً عندما اصطحبه أبوه ليكتشف الجليد.

كانت (ماكوندو) يومئذ قرية تضمّ نحو عشرين بيتاً مبنياً من الطين، على ضفة نهر صغير، مياهه صافية تنساب في مجرى تغطي أرضه حصى ملساء متلألئة، بيضاء كبيرة الحجم، كأنما هي من بيض ما قبل التاريخ.

وكان العالم حديثاً، حتى إنّ كثيراً من الأشياء كانت بلا أسماء، وفي شهر آذار / مارس من كل عام، كانت تصل عائلة غجرية فقيرة، فتقيم خيامها قرب القرية. وعلى أصوات الأبواق العالية وهدير الطبول الصاخبة، تقوم العائلة بعرض المخترعات الجديدة.

بدأ الغجر بإحضار المغناطيس . وقد وقف غجريّ ضخم الجسم ، كثّ اللحية ، له يدان كالعصفور الدوريّ ، يقدم نفسه باسم (ملكيادس) . وقد عرض الرجل ما أسماه هو نفسه الأعجوبة الثامنة من أعاجيب علماء الكيمياء في (مقدونيا) . وانطلق الرجل يتجوّل في القرية ، من بيت إلى بيت ، يجرّ خلفه سبيكتين من المعدن . ويا للذهول الذي أصاب الناس وهم يرون القدور والأطباق والملاقط والمواقد تتساقط من مواضعها ، ويرون الأعمدة تتشقّق وتتخلّع من مساميرها وبراغيها ، حتى الأشياء التي كانت ضائعة منذ زمن طويل بدأت تظهر في الأماكن التي طالما بحث الناس عنها فيها ، ثم راحت هذه الأشياء

جميعاً تنسحب مضطربة وراء المعدن السحريّ الذي كان ملكيادس يجرّه خلفه . وكان الغجري يهتف بصوت عال أجشّ ، قائلاً : «للأشياء حياتها الخاصة بها . وما القضية سوى إيقاظ أرواحها» .

وفكّر خوزيه أركاديو بوينديا، وكان رجلاً ذا خيال جموح يتجاوز حدود عبقرية الطبيعة، بل يذهب إلى ما هو أبعد من معجزات السحر، أن بالإمكان الانتفاع من هذا الاختراع في استخراج الذهب من باطن الأرض. ولكنّ (ملكيادس)، وكان رجلاً أميناً، حذّره قائلاً: «إنه لا يصلح لذلك». ولكنّ خوزيه أركاديو بوينديا لم يكن، عندئذ، يؤمن باستقامة الغجر وأمانتهم. وهكذا قايض السبيكتين الممغنطتين ببغله وزوج من ماعزه . ولم تفلح زوجته أورسولا إيجواران في ردّه عن قراره . وكانت تعتمد على هذه الحيوانات لتحقيق هدفها في زيادة ممتلكات العائلة. فقد كان ردّه: «غداً سيكون لنا من الذهب ما يزيد على حاجتنا لتبليط أرض البيت». وقد بذل، خلال بضعة أشهر، جهداً مضنياً وهو يحاول أن يثبت صحة نظريته. فراح يطوف بالسبيكتين في أرض المنطقة مستكشفاً، فلم يدع شبراً دون أن ينقّبه، حتى نقّب مجرى النهر نفسه، مردّداً بصوت عالٍ تعويذة ملكيادس. ولكنّ الشيء الوحيد الذي استطاع فعله هو الكشف عن درع من القرن الخامس عشر، وقد التحمت أجزاؤها بما علاها من الصدأ، ويصدر من جوفها رنين كما لو كانت يقطينة ضخمة محشوّة بالحصى. وبعد أن فكّك خوزيه أركاديو بوينديا، ورفاق حملته الأربعة، تلك الدرع إلى أجزائها، وجدوا في داخلها هيكلاً عظمياً متكلساً، وقد تدلّت من عنقه عُلَيْبة (علبة صغيرة) نحاسية فيها خصلة من شعر امرأة.

وعاد الغجر في آذار (مارس). وقد حملوا معهم هذه المرة منظاراً

وعدسة مكبّرة بحجم طبل. وقد عرضوهما بوصفهما آخر مكتشفات يهود أمستردام. وضعوا امرأة غجرية في طرف القرية، وركزوا المنظار في مدخل الخيمة في طرف القرية الآخر. وهكذا جعل الناس، مقابل خمسة ريالات للشخص، ينظرون بالمنظار فيشاهدون المرأة الغجرية البعيدة على بعد ذراع منهم.

وكان ملكيادس يهتف قائلاً : «لقد ألغى العلم المسافات ، ولن يمضي وقت طويل حتى يستطيع الإنسان أن يرى ما يحدث في أي مكان في العالم دون أن يغادر منزله» .

وفي تلك الظهيرة القائظة بشمسها المحرقة ، قدّم الغجر عرضاً مذهلاً للعدسة المكبّرة الضخمة . جمعوا كومة من القشّ اليابس في وسط الطريق ، وأشعلوا فيها النار بتجميع أشعة الشمس وتركيزها عليها .

أما خوزيه أركاديو بوينديا ، وهو الذي لم يبرأ بعد من آثار فشله في المغناطيس ، فقد تراءت له فكرة استعمال هذا الاختراع سلاحاً للحرب . وحاول ملكيادس ، مرة أخرى ، أن يثنيه عن رأيه . ولكنه قبل أخيراً أن يبادله العدسة بالسبيكتين الممغنطتين وثلاث قطع من العملة الاستعمارية . وبكت أورسولا المسكينة ، فقد كان ذلك المال من صندوق القطع الذهبية التي جمعها أبوها طوال عمر قضاه في الحرمان ، ودفنتها هي تحت سريرها ، على أمل الإنتفاع بها في فرصة مناسبة . ولم يحاول خوزيه أركاديو بوينديا استرضاءها . فقد استغرقته تجاربه التكتيكية ، فأنكر ذاته كما يفعل العلماء ، دون اهتمام بما قد يترتب على ذلك من مخاطر على حياته . وفي محاولة منه لإظهار أثر العدسة على جنود العدو ، عرّض نفسه لأشعة الشمس المركّزة ، فأصيب بحروق تحوّلت إلى قروح استمرّت طويلاً قبل أن تشفى . وعلى الرغم من اعتراضات زوجته واحتجاجاتها ، وقد أذهلها هذا الاختراع الخطير ، فقد بلغ الأمر به أنه كاد يحرق بيته . كان يقضي الساعات الطوال في عزلته ، بحسب الاحتمالات

الاستراتيجية لسلاحه الجديد، حتى نجح في وضع دليل غاية في وضوحه ولا يقاوم في حجته وإقناعه. وأرسل هذا البحث الدليل إلى الحكومة، مصحوباً بالكثير من التقارير الوصفية حول تجاربه، وبضع صفحات من الرسوم التخطيطية. وقد حمل كل ذلك رسول منه إلى الحكومة، قطع المسافات الطويلة، فتسلق الجبال، وتاه في المستنقعات اللامتناهية، وعبر الأنهار الصاخبة، وكاد يقتله اليأس المضني، والطاعون، والحيوانات المفترسة، حتى تمكن من العثور على طريق أوصلته إلى الطريق التي تسير عليها بغال البريد. وعلى الرغم من كون الرحلة إلى العاصمة شبه مستحيلة في ذلك الوقت، تعهّد خوزيه أركاديو بوينديا بالقيام بها حال توجيه الحكومة أوامرها له بذلك، لكي يقدّم بعض العروض العملية لمخترعه أمام السلطات العسكرية، ولكي يدربهم بنفسه على فن الحرب الشمسية المعقّد.

وانتظر الجواب بضع سنوات، حتى إذا سئم الانتظار شكا أمر إخفاقه في المشروع لملكيادس، الذي قدم له البرهان القاطع على أمانته. فقد أعاد له القطع الذهبية، وزوّده، علاوة على ذلك، ببعض الخرائط البرتغالية وبعض أدوات الملاحة البحرية. وأعدّ بخط يده مؤلفاً وافياً عن دراسات الراهب هرمان، وتركه لخوزيه أركاديو ليستطيع استعمال الأسطرلاب والبوصلة وآلة السدس [1].

وقد أمضى خوزيه أركاديو بوينديا الشهور الطويلة من الفصل الممطر، معتكفاً في غرفة صغيرة كان قد بناها خلف منزله كي يحول دون أن يزعجه أحد ويشوّش تجاربه. وقد أهمل خوزيه واجباته العائلية كلياً، فراح يقضي الليالي بطولها في ساحة يرقب منها مسارات النجوم، حتى كاد يصاب بضربة شمس وهو يحاول الاهتداء لطريقة صائبة لتحديد وقت الظهيرة، ولما صار خبيراً في استعمال أدواته ومعالجتها، توصل إلى معرفة بالفضاء مكّنته من الطواف في بحار مجهولة، ليزور أقاليم غير مأهولة، ولينشىء

(١) آلة خاصة بقياس الزوايا.

علاقات مع مخلوقات عجيبة، دون أن يغادر مكتبه. وعند هذا الحدّ، تعوّد خوزيه أن يحدث نفسه، وأن يسير في البيت دون أن يرى أحداً أو يعي شيئاً، بينما كانت (أورسولا) وأطفالها يكدحون بجد في البستان، يزرعون الموز والمانجا والكاسفا والبطاطا والقرع والباذنجان. وفجأة، ودونما سابق إنذار، توقف نشاطه المحموم، وحلّ محله نوع من الذهول. وأمضى بضعة أيام كأنما هو مسحور، يردد بصوت ضعيف أوصافاً وأفكاراً مخيفة، غير آبه بعقله وفهمه لما يقول. وأخيراً، وذات يوم ثلاثاء من كانون الأول (ديسمبر)، وعند وقت الغداء، تخلّص خوزيه، دفعة واحدة، من وطأة العذاب الذي كان يعانيه. ولن ينسى الأطفال، طوال حياتهم، كيف اتخذ أبوهم مكاناً له على رأس المائدة، يجلّله الوقار رغم ارتجافه وسهومه العميق وخياله المضطرب، وكيف أعلن لهم اكتشافه: «الأرض كروية كالبرتقالة».

ونفد صبر أورسولا، فصاحت به: «إذا كان لا بدّ لك أن تجن، فجُنّ وحدك. فلا تحاول أن تزرع في رؤوس الأطفال أفكارك الغجرية. ولكن خوزيه أركاديو بوينديا لم يتأثر بما أصاب زوجته من يأس وغضب، فظلّ هادئاً. فما كان منها، في هياجها، إلا أن ألقت الإسطرلاب إلى الأرض فحطمته. ولكن خوزيه بنى واحداً آخر، وجمع رجال القرية في غرفته الصغيرة، وقدّم لهم نظريات لم يفهمها أحد منهم، وعرض لهم كيف يمكن أن يعود إلى نقطة انطلاقه من يسافر شرقاً بشكل متواصل. واعتقد أهل القرية جميعاً أن خوزيه أركاديو بوينديا قد فقد عقله. ثم عاد ملكيادس ليصوّب الأمور. فأثنى على الرجل، بين الناس، وامتدح ذكاءه لأنه استطاع، بمحض تأملاته الفلكية، أن يتوصل إلى نظرية سبق البرهان عليها عملياً، على الرغم من أنها لم تكن معروفة في ماكوندو حتى ذلك الحين. وتعبيراً منه عن إعجابه بخوزيه، قدّم له هدية كان لها

أثر عظيم على مستقبل القرية، وهي مخبر الكيمياء.

وكانت الشيخوخة، عندئذ، قد سارعت إلى ملكيادس. فقد كان في رحلاته الأولى يبدو في مثل سن خوزيه أركاديو بويندا. ولكن، بينما كان خوزيه لا يزال يحتفظ بقوته الخارقة، فقد كان يطرح الحصان أرضاً إذا أمسك بأذنيه، كان الرجل الغجري يبدو متعباً منهكاً بسبب مرض غريب ألمّ به. وكان ذلك المرض، في الواقع، نتيجة لعدة أمراض نادرة، تجمعت له في رحلاته التي لا تحصى حول العالم. وقد ذكر لخوزيه أركاديو بويندا، بينما كان يساعده في إنشاء المخبر، أن الموت كان يلاحقه في كل مكان، يحاوره ويداوره، دون أن يقضي عليه بضربة من مخالبه. لقد نجا من كل المصائب والأوبئة التي أصابت البشرية. فقد سلم من مرض الذرة في بلاد فارس، ومن داء الحفَر أو الأسقربوط[1] في الأرخبيل الملايي، ومن البرص في الإسكندرية، ومن البريبري[2] في اليابان، ومن وباء الطاعون في مدغشقر، ومن الهزة الأرضية في صقلية، ومن كارثة تحطم سفينة في مضيق ماجلان.

كان ذلك الإنسان العجيب يزعم أنه يتحكم بمفاتيح نوستراداموس، وكان رجلاً كئيباً تلفّه هالة من الحزن، له نظرة أسيوية توحي بمعرفة الجوانب الأخرى للأشياء. كان يضع على رأسه قبعة سوداء كبيرة تبدو كأنها غراب نشر جناحيه، ويلبس صدرية مخملية تحمل آثار القرون الخوالي. ولكنه كان، على الرغم من سعة حكمته وعمق غموضه، ينوء بعبء إنساني يشدّه أرضاً ويجعله يغوص في مشكلاته اليومية الصغيرة. فقد كان يشكو من آلام العجز، ويعاني من أبسط المصاعب الاقتصادية. وقد توقف عن الضحك منذ أمد بعيد، لأن مرض الأسقربوط كان قد أسقط أسنانه. في تلك الظهيرة الخانقة، باح ذلك

(١) مرض يصيب اللثة.

(٢) مرض ينشأ عن نقص في الفيتامين (ب).

الغجري بأسراره. وعندها أيقن خوزيه أركاديو بويندا أن تلك اللحظة كانت بداية صداقة عظيمة. وكثيراً ما كان الصغار يذهلون وهم يستمعون إلى قصصه الرائعة.

أما أوريليانو، ولم يكن فوق الخامسة من عمره عند ذاك، فسوف يذكر، طوال حياته، منظر ذلك الرجل كما رآه في تلك الظهيرة. كان يدير ظهره إلى النافذة المعدنية، بضوئها ووهجها، بينما صوته العميق، كصوت الأرغن، يطوف بالسامع أقصى حدود الخيال، وينساب العَرَق على صدغيه كأنما هو نقط من الشحم تذيبه الحرارة. وأما خوزيه أركاديو، أخو أوريليانو الأكبر، فسيظل ينقل هذه الصورة المدهشة لأبنائه وحفدائه كذكرى من ذكرياته الموروثة. وحدها أورسولا كانت تحتفظ بذكرى سيئة لتلك الزيارة. فقد اتفق أن كانت تدخل الغرفة في اللحظة التي كسر فيها ملكيادس، دون انتباه منه، قارورة من بيكلور الزئبق. فقالت أورسولا: «هذه رائحة الشيطان».

فأجاب ملكيادس مصححاً: «لا. فقد ثبت أن للشيطان خصائص كبريتية. وما هذا سوى نتاج كيميائي متصعّد مزعج».

وهكذا، انطلق كعادته، بأسلوبه التعليمي، يعرض علميّاً الخصائص الشيطانية للزنجفر (١). ولكن أورسولا لم تكترث به، فاصطحبت أطفالها للصلاة. ولم تبرح تلك الرائحة المزعجة النفّاذة ذاكرتها، وقد ارتبطت بذكرى ملكيادس.

كان المخبر النواة ـ إضافة إلى مجموعة من القدور والأقماع والقوارير والمراشح والمصافي ـ يتكوّن من أنبوب ماء بدائي، ودورق زجاجي له عنق طويلة رفيعة، وصورة لبيضة الفيلسوف، ومكثّف بناه الغجر أنفسهم حسب المواصفات الحديثة للإمبيق أو المقطر[2] ذي الأذرع الثلاث المنسوب لماري

(١) كبريتيد الزئبقيك.

(٢) الإمبيق، أو المقطر، هو أداة كيميائية للتقطير.

اليهودية. وقد ترك ملكيادس، إضافة إلى ما سبق، نماذج من المعادن السبعة المقابلة للكواكب السبعة، ومعادلات موسى وزوسيم لمضاعفة كمية الذهب، ومجموعة من المخططات والرسوم المتصلة بعمليات التعليم الكبرى، التي تمكّن من يستطيع تفسيرها من صنع حجر الفلاسفة. وقد أغري خوزيه أركاديو بوينديا بسهولة المعادلات الخاصة بمضاعفة كميات الذهب، فجعل يغازل أورسولا بضعة أسابيع كي تسمح له باستخراج عملتها الاستعمارية المدفونة، ليضاعفها عدداً من المرات يساوي ما يمكنه تجزئة الزئبق إليه. ورضخت أورسولا، كما كانت تفعل دائماً، أمام عناد زوجها الذي لا يعرف التراجع. وهكذا ألقى خوزيه أركاديو بوينديا ثلاث قطع من العملة الإسبانية الذهبية القديمة في مقلاة، وأذابها مع برادة النحاس وكبريتوز الزرنيخ والكبريت والرصاص. وقد ترك كل ذلك يغلي في قدر ملأها بزيت الحوت حتى حصل على سائل كثيف له رائحة قذرة، ويشبه في شكله الكاراميلا الرديئة أكثر مما يشبه الذهب الثمين. وبعد عمليات خطيرة ويائسة من التقطير، ذاب الخليط مع المعادن الكوكبية السبعة الممزوجة بالزئبق المضغوط وأملاح قبرص المركّزة، والمعاد طبخها بشحم الخنزير لفقدان زيت الفجل. وهكذا ضاع ميراث أورسولا الثمين، إذ تحوّل إلى قطعة كبيرة متكلسة، من لحم الخنزير المتشقق، ملتصقة بشدة في قعر القدر.

ولما عاد الغجر في المرة التالية، كانت أورسولا قد أثارت عليهم أهل القرية جميعاً. ولكن حب الاستطلاع كان أقوى من الخوف. فقد راح الغجر، هذه المرة، يطوفون في أحياء القرية وسط ضجة وصخب شديدين تصدرهما أنواع مختلفة من الآلات الموسيقية. بينما كان المنادي يعلن عن عرض أعظم اكتشاف خرافيّ خارق لدى الناسيانيسيين. وتدافع الناس جميعاً إلى الخيمة، ومقابل سنت واحد من كل منهم،

شاهدوا ملكيادس شاباً وقد استعاد قوته وعافيته، فخلا وجهه من التجاعيد، وتلألأت في فمه أسنانه البيضاء. وأصاب الذهول الناس الذين عرفوا لثته المتآكلة بمرض الأسقربوط، ووجهه المتجعّد، وشفتيه الذاويتين، فجعلوا يرتجفون خوفاً في مواجهة البرهان الساطع على قدرة هذا الغجري الخارقة. ثم تحول الخوف إلى هلع عندما أخرج ملكيادس أسنانه من فمه سليمة مرصوفة، وعرضها على الجمهور لحظة خاطفة ـ بدا فيها رجل الماضي المهدّم في عجزه ـ ثم أعادها إلى فمه وابتسم ثانية بكل ثقة الشباب المستعاد. حتى خوزيه أركاديو بوينديا نفسه اعتبر أن معرفة ملكيادس قد بلغت الحدود القصوى. ولكن الفرح غمره عندما أوضح الغجري له وحده آلية أسنانه الصناعية. فبدا له الأمر نوعاً من السهل الممتنع في آن معاً، حتى فقد اهتمامه فجأة بتجاربه في الكيمياء. وعاش بعد ذلك أزمة جديدة في معنوياته، **واضطرب نظام تناوله** الطعام، وصار يقضي اليوم بطوله متنقلاً في البيت على غير هدى. قال لزوجته: «هناك أمور لا تصدّق تحدث في العالم. فعلى الطرف الآخر من النهر، توجد كل أنواع الآلات السحرية، بينما نعيش نحن هنا حياة الحمير». ودهش كل الذين عرفوه منذ نشوء ماكوندو، بسبب ما أصابه من تغير بتأثير ملكيادس.

فقد كان خوزيه أركاديو بوينديا شاباً حكيماً يعلّم الناس كيف يزرعون، ويوجههم كيف يربون أولادهم وحيواناتهم. وكان يتعاون مع الناس جميعاً حتى في الأعمال المادية من أجل مصلحة المجتمع. ولما كان بيته، منذ البداية، أفضل بيوت القرية، فقد بنى الآخرون بيوتهم على صورته وشاكلته. وكان البيت يتألف من غرفة جلوس صغيرة حسنة الإضاءة، وغرفة طعام خارجية على هيئة شرفة تحيط بها أزهار زاهية، وغرفتين للنوم، وفناء واسع فيه شجرة عملاقة من شجر جوز الهند،

ويحيط به بستان حسن التنظيم، وتلحق به حظيرة يعيش فيها الماعز والخنازير والدجاج بسلام. أما الحيوانات الوحيدة التي كانت ممنوعة ـ لا في بيته وحده، بل في القرية كلها ـ فقد كانت الدِّيَكة المصارعة.

كانت قدرة أورسولا على العمل مثل قدرة زوجها. كانت امرأة نشيطة دقيقة عنيفة قوية الأعصاب، جادة، لا يذكر أحد أنه سمعها تدندن بلحن أو أغنية، تبدو كما لو كانت موجودة في كل مكان في كل آن، منذ الفجر حتى آخر الليل، يلاحقها دائماً حفيف ملابسها الخشنة المنشّاة. وكان يعود إليها الفضل في الحفاظ على نظافة أرض الدار غير المبلّطة، والجدران غير المطليّة، والأثاث الخشبيّ الصدىء الذي صنعوه بأيديهم، وفي جعل الصناديق العتيقة التي كانوا يحفظون فيها ملابسهم تعبق دائماً برائحة الحبق(١) الدافئة.

وكان خوزيه أركاديو بوينديا رجلاً بعيد الهمة، لم تشهد له القرية مثيلاً. فقد أقام بيوت القرية بشكل يمكّن السكان جميعاً من بلوغ الجدول وجلب الماء منه، دون أن يبذل أحدهم جهداً يزيد على جهد الآخر. وخطّط الطرق بطريقة واعية، تتساوى فيها البيوت في التعرّض لنور الشمس خلال الوقت الحار من النهار. وخلال بضع سنوات، صارت ماكوندو أفضل القرى المعروفة نظاماً وعملاً، بسكانها الثلاثمئة. لقد كانت، حقاً، قرية سعيدة، لم يتجاوز أحد فيها الثلاثين من عمره، ولم يمت فيها أحد.

ومنذ إنشاء القرية، كان خوزيه أركاديو بوينديا قد بنى شراكاً وأقفاصاً. ولم يمض وقت طويل حتى ملأ بيته وبيوت القرية كلها بطيور التروبيال والكناري والوروار وأبي الحنّاء. وقد شكلت أصوات الطيور الكثيرة المختلفة جوقة، غدت مع الوقت مزعجة، حتى إن أورسولا كانت

---

(١) نوع من الريحان، كما يسميه بعض الناس في بعض البلدان العربية.

تسدّ أذنيها بشمع النحل كي لا تفقد إحساسها بالواقع، ولما وصلت قبيلة ملكيادس، أول مرة، تبيع كرات زجاجية ضد الصداع، تعجب الناس كيف اهتدوا إلى القرية الضائعة في سبات المستنقعات. وقد أفاد الغجر أنهم اهتدوا إلى طريقها بزقزقة العصافير.

ولكن روح المبادرة الاجتماعية تلك تلاشت بعد زمن قصير، جنت عليها حمّى المغناطيس، والحسابات الفلكية، وأحلام تحويل المعادن الرخيصة إلى حجارة كريمة، والدوافع إلى اكتشاف عجائب الدنيا. وتغيرت أحوال خوزيه أركاديو بوينديا، فصار كسول الهيئة مهمل الثياب، أشعث اللحية، لا تقوى أورسولا على تشذيبها إلا بجهد ومشقة وبسكين المطبخ. واعتقد الكثيرون بأنه كان ضحية رقية غريبة. ولكن أكثر الناس اقتناعاً بجنونه تركوا أعمالهم وعائلاتهم وتبعوه عندما جلب عدته لتنظيف الأرض، وطلب إلى المجتمعين أن يفسحوا الطريق لجعل ماكوندو على اتصال بالمخترعات والمكتشفات العظيمة.

كان خوزيه أركاديو بوينديا جاهلاً تماماً بجغرافية المنطقة. كان يعرف فقط أنه تقع إلى الشرق سلسلة جبال لا يمكن تسلقها، وتقع خلفها مدينة ريوهاشا القديمة، التي كان السير فرانسيس دريك، منذ زمن سحيق ـ كما روى له جده أوريليانو بوينديا الأول ـ يصطاد فيها التماسيح بالمدافع، ثم يحشوها قشاً ويحملها إلى الملكة إليزابيث. وقد عبر خوزيه أركاديو بوينديا تلك الجبال، في شبابه بصحبة رجاله، ومعهم نساؤهم وأولادهم وأدواتهم وأشياؤهم الأخرى، بحثاً عن منفذ على البحر ولكنهم توقفوا عن حملتهم تلك بعد ستة وعشرين شهراً، ثم أسسوا قرية ماكوندو لكي لا يعودوا من حيث أتوا. وما كانت تلك الطريق لتعنيه من بعد، ما دامت تجلب له ذكريات الماضي. أما إلى الجنوب فتمتد منطقة موحلة واسعة تغطيها نباتات عصية، وتليها منطقة المستنقع الكبير المترامية الأطراف،

طبقاً لما كان يرويه الغجر. وكانت هذه المناطق المستنقعية الهائلة الاتساع، في الغرب، سبخات مائية لا تعرف نهاياتها، وتعيش فيها حوتيات شفافة لها رؤوس النساء وجذوعها، تقضي على الملاحين بما تشدههم به من سحر أثدائها وصدورها الغريبة. وكان الغجر يقضون ستة أشهر لعبور هذه المناطق قبل وصولهم إلى اليابسة حيث تمرّ بغال البريد. كانت الطريق إلى الشمال إذن، طبقاً لحسابات خوزيه أركاديو بويندیا، هي الوحيدة التي يمكن أن توصل إلى الحضارة. فأعطى رفاقه القدامى، في بناء ماكوندو، أدوات شق الأرض وأسلحة الصيد. ووضع في حقيبته أدوات التوجيه البحري والخرائط، واستعدّ لبدء المغامرة الطائشة.

مضت الأيام الأولى دون عقبات تذكر، فقد حاذوا الشاطىء الصخريّ للنهر حتى بلغوا المكان الذي وجدوا فيه، قبل سنين، الدرع الحربية، ثم تابعوا سيرهم في الغابات بين أشجار البرتقال البري. في نهاية الأسبوع الأول صادوا غزالاً وشووه، واكتفوا بأن أكلوا نصفه، وملّحوا النصف الآخر واحتفظوا به للأيام القادمة، علهم يؤخرونه للوقت الذي فيه طيور المقو(١) ذات اللحم الأزرق الخشن مسكيّ الطعم والرائحة. ثم مضت عشرة أيام لم يروا فيها الشمس، وغدت الأرض رخوة رطبة كأنها مكسوّة برماد بركانيّ، وتصدّت لهم النباتات الكثيفة بشراكها المتشابكة، وغابت عنهم أصوات الطيور والسعادين. واشتدت وطأة ذلك عليهم، فأصابتهم الكآبة، وازدحمت في خواطرهم الذكريات في تلك الجنة الرطبة الصامتة، وكأنها أسبق من الخطيئة الأبدية، بينما كانت أحذيتهم تغوص في المستنقعات الزيتية وبخاراتها، وتعمل جوانبها الحادة قطعاً في الزنابق الدامية وحيوانات السّمندل(٢). كانوا يسيرون

---

(١) ببغاء أميركي ضخم طويل الذيل.
(٢) السمندل أو السمندر حيوان من الضفدعيات.

صامتين، لا يتبادلون الكلام إلاّ نادراً، فكأنما هم نائمون أو منوّمون، في عالم قفر لا ضوء فيه إلاّ ما يصدر من لمعات خفيفة تصدر عن حشرات فوسفورية، وكانت رئاتهم تضيق برائحة دم خانقة. ولم يكن ثمة مجال للرجوع، فالطريق التي كانوا يشقونها بصعوبة، سرعان ما تنسدّ خلفهم بنبات شائك كأنه نبت جديد ينمو وهم يحدقون إليه. أما خوزيه أركاديو بوينديا فكان يردّد قائلاً: «لا بأس. فالمهم ألاّ نفقد الاتجاه». وتابع قيادة رجاله، معتمداً دائماً على بوصلته، متجهاً إلى الشمال دون معالم هادية، حتى نجحوا أخيراً في الخروج من تلك الأرض المسحورة. وحلت عليهم ليلة ثقيلة دامسة الظلام، غابت نجومها، ولم يخفف من وحشتها سوى نسمات من الهواء المنعش. وأضناهم السفر الطويل الشاق، فعلقوا أراجيحهم وناموا ملء جفونهم للمرة الأولى منذ أسبوعين. حتى إذا استيقظوا كانت الشمس في رأد الضحى. فأصابهم الذهول لما شاهدوا. فعلى مرأى منهم، ومن بين نبات السرخس وأشجار النخيل، وعلى ضوء النهار الساكن، شاهدوا سفينة إسبانية كبيرة بيضاء قد علاها الغبار، وقد جنحت على ميمنتها قليلاً، ومالت صواريها السليمة، فتدلّت منها مزق الأشرعة الملطخة فلامست الآلات الأخرى التي بدت بينها نباتات الأوركيديا(١). كانت الطحالب تكاد تغطي هيكل السفينة، وقد تبعثرت بينها بقايا حيوانات بحرية قشرية، وقد غاص جانب السفينة بين حجارة الشاطىء. كان كل ذلك في عالم قفر منقطع منسيّ بعيد عن عاديات الزمان والطير. وطاف رجال الحملة في داخل السفينة برغبة وحذر، فما عثروا على شيء سوى غابة كثيفة من الزهور.

وقد أثّر اكتشاف السفينة الشراعية على دوافع خوزيه أركاديو بوينديا، بما دلّ عليه من قرب البحر. فكأنما قدره يسخر منه، فيبحث عن البحر عبثاً، مع كل ما يقدمه من تضحيات وما يلاقيه من عذاب، وفجأة،

---

(١) نبتة من الفصيلة السحلبية.

هكذا، يجد البحر مصادفة في طريقه، وكأنما هو شيء لا يقهر.

كانت قد مضت على هذه الحادثة سنون طويلة، حين مرّ الكولونيل أوريليانو في تلك الطريق، وقد أصبحت الطريق التي يسير عليها البريد بانتظام، فلم يجد من السفينة سوى هيكلها الخارجي المحروق وسط حقل من نبات الخشخاش(١). وعندها اقتنع أن القصة لم تكن مجرّد خيال من أبيه، وتساءل كيف استطاعت تلك السفينة الوصول إلى تلك البقعة من الأرض. وهو سؤال لم يحيّر خوزيه أركاديو بويندیا، في حينه، عندما وصل إلى البحر بعد مسيرة أربعة أيام، على بعد اثني عشر كيلومتراً من السفينة الجانحة. فقد توقفت أحلامه عند البحر المزبد، بلونه الرمادي العكر، والذي لم يستأهل كل تلك الأخطار والتضحيات التي تكبدها القوم في المغامرة.

لقد صاح خوزيه عندما رأى البحر: «بئس الأمر. ماكوندو محاطة بالماء من كل الجهات».

وسادت، حتى زمن طويل بعد ذلك، فكرة كون ماكوندو واقعة في شبه جزيرة، حسب الخارطة الأولية التي رسمها خوزيه أركاديو بويندیا لدى عودته من حملته. فقد رسمها وهو مغتاظ، وغالى، عن سوء نية، في إظهار مصاعب الاتصال، وكأنما هو يعاقب نفسه لاختياره موقع القرية دون تبصّر. وكثيراً ما كان يندب حظه لأورسولا، قائلاً: «لن نغادر هذا المكان أبداً. ولسوف نفنى هنا قبل أن تصلنا خيرات العلوم». وسيطر عليه هذا الاعتقاد شهوراً بحالها، وهو معتكف في مكتبه الذي اتخذه مخبراً، حتى توصل إلى فكرة نقل ماكوندو إلى موقع أفضل. ولكن أورسولا التي توقعت ما سيخرج به، كانت قد أعدّت خطة، وإن بدت

---

(١) نبات مخدّر.

ضعيفة، فأخذت تنفذ خطتها بسرية النملة الصغيرة وإصرارها. فأثارت نساء القرية على أهواء أزواجهن حين بدأوا الاستعداد للرحيل. ولم يعرف خوزيه أركاديو بوينديا قط متى ولا كيف، ولا سر القوة المضادة التي أفسدت عليه خطته، فبدأت تواجهه الأعذار المصطنعة الواهية حيناً، والظروف غير المنتظرة حيناً آخر، والتملص من الوعود حيناً ثالثاً. وهكذا ذوت الخطة، ورآها تتحول إلى ما يشبه الوهم. وذات صباح، أخذت أورسولا ترقب زوجها ببراءة وشيء من الشفقة والرثاء، بينما كان يجترّ أحلام الرحيل ويضع أدواته المخبرية في صناديق. راقبته حتى انتهى من ترتيب أدواته، وسمّر الصناديق، وكتب حروف اسمه الأولى عليها بريشة محبّرة، دون أن تنبس ببنت شفة، مع أنها كانت تعرف أنه على علم بأن أهل القرية لن يشاركوه في رحيله. فقد سمعته يحدث نفسه بذلك بصوت خفيض. حتى رأته ينزع باب المكتب من مكانه، فجازفت بسؤاله عن سبب ما يفعله. فأجاب بمرارة وحزن: «سوف نرحل وحدنا، إذا لم يكن أحد يريد الرحيل معنا. ولم تتراجع أورسولا ولم تتأثر، فقالت له: «لا. لن نذهب، بل سوف نبقى هنا، لأننا أنجبنا هنا واحداً من أولادنا».

قال: «ولكن لم يمت لنا أحد هنا. ولا ينتسب الإنسان إلى أرض لا موتى له تحت ترابها»..

فأجابته بشيء من الحزم: «إذا كان لا بدّ من ذلك فسوف أموت أنا هنا». ولم يكن خوزيه أركاديو بوينديا يظن، لحظة واحدة، أنّ إرادة زوجته قوية لا تقهر. فحاول أن يزيّن لها الأمر، فكشف لها عن كنوز خياله الموعودة، فوعدها بعالم جديد عجيب، يكفي أن تصب فيه السوائل السحرية على الأرض حتى تغدق الأشجار والنباتات ثمارها، وحيث تباع بأسعار زهيدة الآلات التي تخفف آلام المزارعين. ولم ترضخ أورسولا لأفكاره وآرائه المغرية، فأجابته قائلة:

«بدلاً من التفكير بمخترعاتك الوهمية، ينبغي لك أن تعتني بولديك. أنظر إلى حالتهما يجريان في الحقول كالحمير البريّة».

وفكر خوزيه أركاديو بوينديا مليًا في ما قالته زوجته، ونظر من النافذة ليرى ابنيه حافيين في البستان الذي تلفحه الشمس بحرارتها. وبدا له، للوهلة الأولى، أنهما إنما خلقا في تلك اللحظة، بفضل إدراك أورسولا ودعائها. شيء ما حدث في داخله. شيء غامض وحاسم اقتلعه من وجوده الحاضر وفصله عن أرجاء مجهولة في ذاكرته. وبينما راحت أورسولا تكنس بيتها متيقنة من أنها لن تغادره أبداً ما دامت حية، كان زوجها غارقاً في تأمل ولديه، ثابت النظر عليهما، حتى اغرورقت عيناه بالدموع، فمسحها بقفا يده، ونفث تنهيدة رضا عميقة، ثم قال:

«حسناً، قولي لهما أن يأتيا لمساعدتي في إفراغ الصناديق». كان خوزيه أركاديو، ابنه البكر، قد بلغ الرابعة عشرة من عمره. كان ذا رأس مربع، وشعر كثيف، وله مثل خلق أبيه. وعلى الرغم من أن وتيرة نموّه، وقوته البدنية، تشبهان ما كان لأبيه، فقد بدا مبكراً أنه كان ضعيف الخيال. فقد حملته أمه وأرضعته في فترة صعبة، هي فترة عبور الجبال قبل تأسيس ماكوندو. وقد شكر أبواه الله عندما لم يجدا فيه، لدى ولادته، أية ملامح حيوانية.

أما الولد الثاني، أوريليانو، الذي كان أول مولود إنساني في ماكوندو، فسيبلغ السادسة من عمره في شهر آذار (مارس). وكان صامتاً ومنكفئاً على ذاته. لقد بكى وهو بعد في رحم أمه، وولد مفتوح العينين، وكان يحرك رأسه ذات اليمين وذات اليسار، وهم يقطعون له حبل الخلاص. فكان كأنما هو يتفقد أشياء الغرفة ويتعرف على وجوه الحاضرين بشيء من الفضول دون أن يبدو عليه أنه يستغربها. ثم ركّز اهتمامه، وكأنه غير معنيّ بمن كانوا يقتربون منه ليتفحصوه، على سطح

أغصان النخيل الآيل للسقوط تحت ضغط المطر الهائل. ولم تتمكن أورسولا من تذكر شدة تلك النظرة طوال فترة طويلة من الزمن، إلى أن جاء يوم دخل فيه عليها، وهي على وشك رفع قدر الشورباء الغالية عن النار لوضعها على الطاولة. عندها قال الصغير وهو يتردد على عتبة الباب : «سوف تسقط».

كانت القدر ثابتة في وسط الطاولة. لكنها، ما إن نطق الصغير بنبوءته، حتى تحركت القدر بثبات في اتجاه حافة الطاولة، كأنما هي مدفوعة بقوة خفية، ثم انقلبت وتدحرجت وتكسرت على الأرض. واضطربت أورسولا، وروت ما حدث لزوجها، ولكنه أوّلها بأن ذلك أمر طبيعي. وهكذا كان دائما غريبا عن وجود ولديه، أولاً، لأنه كان يرى في الطفولة مرحلة ضعف عقلي، وثانياً، لأنه، كان غارقاً في تأملاته الخيالية.

ولكن، منذ أصيل ذلك اليوم، عندما دعا ولديه لمساعدته في إعادة أدواته المخبرية من الصناديق إلى أماكنها في المخبر، بدأ خوزيه يكرس لهما أفضل وقته. كان يعلّمهما القراءة والكتابة والحساب في مكتبه الصغير، الذي بدأت جدرانه تكتسي تدريجاً بالخرائط الغريبة والرسوم البيانية الخرافية. ثم أخذ يحدثهما عن عجائب العالم، فلا يكتفي بما يعرفه، بل يجمح بخياله إلى أقصى حدود الوهم. وهكذا تعلم الطفلان أنّ في أقصى طرف افريقيا الجنوبي بشراً بلغوا من الذكاء والصفاء أنهم يقضون أوقاتهم في التأمل وحسب. وتعلما أن بوسع الإنسان أن يقطع بحر إيجة سيراً على القدمين، وذلك بالقفز من جزيرة إلى أخرى حتى يبلغ مرفأ سالونيك. وقد ظلت هذه الحكايات الخرافية المثيرة محفورة في ذاكرة الطفلين، إلى الدرجة التي جعلتها تعود، بعد سنوات كثيرة، إلى ذاكرة أوريليانو في اللحظة التي سبقت إصدار الأمر إلى فريق الإعدام بإطلاق

النار. ففي تلك اللحظة، استعاد ضابط القطعات النظامية - الكولونيل أوريليانو بوينديا - ذكرى عصر ذلك اليوم الرائع من آذار، عندما قطع أبوه درس الفيزياء، ووقف مشدوهاً، ويده مرفوعة في الهواء، وعيناه جامدتان، يصغي لصوت قادم من بعيد لأبواق وطبول وصنوج غجرية. فقد كان الغجر قادمين، مرة أخرى، إلى القرية لكي يعلنوا أحدث الاكتشافات وأكثرها غرابة لدى حكماء ممفيس.

كانوا غجراً جدداً هذه المرة، فتياناً وفتيات لا يتكلمون غير لغتهم الخاصة. كانوا نماذج بشرية لطيفة ظريفة، بشراتهم زيتية اللون، وأيديهم رشيقة حالمة. نشرت موسيقاهم، وما رافقها من رقص في الطرقات، هياجاً ومرحاً وطرباً مجنوناً. فالببغاوات الملونة تردد الأغاني الإيطالية، والدجاجة التي تبيض مئة بيضة على صوت الطبلة، والقرد المدرّب يقرأ أفكار الناس، والآلة متعددة الأغراض التي يمكن أن تخيط الأزرار، وتخفف الحمّى، والجهاز الذي ينسي المرء ذكرياته السيئة، ودواء قضاء الوقت دون عمل، وألف اختراع آخر عبقري وغريب، حتى إن خوزيه أركاديو بوينديا كان يرد لو كان بوسعه أن يخترع آلة للذاكرة لكي يتذكر تلك الأشياء جميعاً. ووجد أهل ماكوندو أنفسهم ضائعين في طرقات قريتهم، وقد أذهلهم ذلك المعرض الحاشد.

كان خوزيه أركاديو بوينديا يسير ممسكاً بيدي ولديه، كي لا يضيعا في تلك الزحمة، ويصادف في طريقه مهرجين أسنانهم مغلفة بالذهب، ومشعوذين للواحد منهم ست أذرع، ويكاد يختنق من رائحة الروث الممتزجة برائحة الصندل والفائحة من ذلك الحشد. كان يمشي كالمعتوه، باحثاً في كل مكان عن ملكيادس، عله يشرح له أسرار الكابوس الغريب. سأل عنه الكثيرين من الغجر الجدد، ولكنهم لم يفقهوا لغته. ثم توجه إلى المكان الذي اعتاد ملكيادس أن ينصب فيه خيمته. وهناك

وقع بصره على رجل أرمني قليل الكلام، يتحدث بالإسبانية عن إكسير سائل يحوّل المرء إلى إنسان غير مرئيّ. وقد أدار في حلقه، جرعة واحدة، كأساً كاملة من تلك المادة العنبرية، عندما استطاع خوزيه أركاديو بونديا أن يشق طريقه بعنف عبر الجماعات المحتشدة لحضور المشهد، فاغرة أفواهها. واستطاع خوزيه أن يطرح سؤاله. وتفحصه الغجريّ بنظرة باهتة، في ما هو فيه من مظهر مخيف، قبل أن يحول بصره إلى بركة صغيرة من الزفت ينبعث منها دخان كريه الرائحة، ليطفو من فوقها صدى جوابه :

«مات ملكيادس».

وصعق خوزيه أركاديو بونديا بالنبأ. وحاول أن يتغلب على الحزن الذي جلبته له هذه الصفعة الرهيبة، بينما تفرّق الناس يبحثون عن ألاعيب جديدة، وتبخرت بركة الأرمنيّ الصامت فلم يبق منها شيء، وظل خوزيه ذاهلاً في مكانه. ثم أكد له غجر آخرون أن ملكيادس قد مات بالحمّى في مستنقعات سنغافورة، وأنهم ألقوا بجثته في أعمق مكان من بحر جاوا. أما ولداه فما كانا ليأبها بذلك الخبر. فقد كانا ينتظران أن يأخذهما أبوهما كي يشهدا اختراع حكماء ممفيس العجيب، الذي كان الغجر يعلنون عنه عند باب خيمة ادعوا أنها كانت للملك سليمان. وقد ألحّا في الطلب حتى رضخ خوزيه أركاديو بونديا، ودفع ثلاثين ريالاً، وأدخلهما حتى وسط الخيمة، حيث كان ينتصب عملاق كثيف شعر الجذع، حليق الرأس، علق في أنفه حلقه من نحاس، ووضعت في قدميه سلسلة ثقيلة من الحديد، يقوم على حراسة صندوق قرصان. رفع العملاق غطاء الصندوق، فانبعثت منه هبّة هواء جليدي، وما كان فيه سوى كتلة هائلة شفافة تحوي عدداً لا حصر له من الإبر، تفجرت عليها أضواء المساء على هيئة نجوم مختلفة الألوان. وما كان خوزيه أركاديو بونديا ليجهل، في حيرته، أن ابنيه كانا ينتظران منه شرحاً سريعاً لما

يشاهدان. فجازف بأن تمتم لهما قائلاً :

«هذه أكبر ماسة في الدنيا».

وصاح الغجريّ مصححاً : «لا. إنها جليد».

ودون أن يدري خوزيه أركاديو بوينديا، مدّ يده إلى الكتلة. ولكن العملاق دفع يده قائلاً : «خمسة ريالات من أجل لمسها». فدفع خوزيه أركاديو بوينديا المبلغ، ووضع يده على الجليد بضع دقائق، وقد شعر بفرح ممزوج بالخوف لمجرد ملامسته للسر. ثم دفع، دون أن يدري ما يقوله، عشرة ريالات أخرى ليمكّن ولديه من تلك الخبرة العظيمة. ورفض خوزيه أركاديو الصغير أن يلمسها. أما أوريليانو فتقدم ووضع يده عليها، ثم سحبها قائلاً : «إنها تغلي». ولم يأبه أبوه لقوله، فقد غمرته الغبطة أمام هذه المعجزة العجيبة الحقيقية، حتى استسلم برهة، فنسي خيبة أمله في مغامراته اليائسة، ونسي جثة ملكيادس التي تركت طعاماً لحيوانات البحار. ثم دفع خمسة ريالات أخرى؛ وصاح وهو يضع يده على تلك الكتلة الكعكة، كمن يشهد مقسماً على الكتاب المقدّس : «إنه أعظم اختراع في زماننا».

(٢)

لمّا هاجم القرصان فرانسيس دريك ريوهاشا في القرن السادس عشر، أرعبت أصوات أجراس الإنذار وطلقات المدافع جدة أورسولا إيجواران، حتى فقدت صوابها، فجلست على فرن مشتعل. فأحالتها الحروق إلى زوجة لا نفع لها طوال باقي عمرها. فما كانت تستطيع القعود إلاّ منحرفة إلى أحد جانبيها، راكزة نفسها بالوسائد والحشايا. وقد أثر ذلك، كما يبدو، على مشيتها فجعلها غريبة غير طبيعية، فلم يرها أحد، من بعد، تسير بين الناس في محفل عام. تخلّت عن العادات والعلاقات الاجتماعية، وسيطرت عليها فكرة أنّ لجسدها رائحة كريهة. كانت تقضي الليل بطوله دون نوم خشية أن ترى الإنجليز في منامها، بل أن يدخلوا عليها من النافذة، بكلابهم المتوحشة، فتتعرض للعذاب على أيديهم بالحديد المحمى بالنار. وقد بذل زوجها التاجر الأراغوني، الذي ولدت منه طفلين، كل جهد ممكن في سبيل البحث عما يهدّىء روعها، فأنفق نصف رأسمال مخزنه ثمناً لأدويتها وسلواها. وانتهى به الأمر، أخيراً، إلى أن صفّى أملاكه، ورحل بعائلته ليعيش بعيداً عن البحر في قرية هادئة آمنة للهنود عند سفوح الجبال. وهناك بنى لزوجته غرفة نوم بلا نوافذ كي لا يصل إليها قرصان كوابيسها.

في تلك القرية النائية، كان يعيش، منذ عهد قديم، زارع دخان من أبناء البلاد الأصليين، يدعى دون خوزيه أركاديو بوينديا. اتفق معه جدّ جدّ أورسولا على القيام بمشروع ازدهر بعد سنين قليلة ووفّر لهما ثروة

كبيرة. وبعد قرون من ذلك التاريخ، تزوج حفيد حفيد ذلك المواطن المزارع حفيدة حفيد التاجر الأراغوني. ولذلك، كانت أورسولا، عندما تضيق بنزوات زوجها، ترجع ثلاثة قرون إلى الوراء، وتستعيد الأحداث التي لم تكن متوقعة، وتلعن الساعة التي هاجم فيها فرانسيس دريك ريوهاشا. ولم يكن ذلك سوى نوع من السلوى ومواساة الذات، لأن ارتباطها بزوجها كان أقوى من الحب، ارتباطاً حتى الموت. فقد كانت وإياه ابني عم، نشأ في القرية التي جعلها أسلافهما، بتعبهما وشقائهما وطريقة عيشهما، من أحسن القرى في المنطقة. يومذاك، وعلى الرغم من أن كل شيء كان ينبىء منذ ولادتهما بأنهما سيكونان زوجين، فقد حاول ذووهما، عندما أعلنا رغبتهما في الزواج، أن يصرفاهما عنه. . فقد كانوا يخشون أن يعاني هذا الفرعان السليمان من سلالتين، تزاوجتا منذ القدم، عار ولادة تمساح منهما. وهناك سابقة لذلك رهيبة. فقد وضعت عمة لأورسولا تزوجت عمّاً لخوزيه أركاديو بوينديا ولداً أضطر أن يرتدي، طوال حياته، بنطالاً فضفاضاً، ثم مات بعد أن نزف كل دمه وهو في الثانية والأربعين من عمره دون زواج، لأنه ولد وشبّ وله ذنب غضروفيّ لولبيّ في طرفه خصلة شعر، فلم يجرؤ قط على أن تراه امرأة، ثم انتهى بأن كلفه ذلك حياته كلها عندما تطوّع، ذات يوم، لحّام صديق له، فقطعه له بضربة سكين.

ولكن خوزيه أركاديو بوينديا، باستهتار ابن التاسعة عشرة من العمر، حلّ المشكلة بعبارته البسيطة : «لا يهمني أن يكون لي أبناء خنازير ما داموا يتكلمون». وهكذا تزوجا، ودام الفرح ثلاثة أيام، بلياليها، حافلة بالموسيقى والغناء والألعاب النارية. وكان يمكن لهما أن يظلا سعيدين في حياتهما ،لو أن أم أورسولا لم ترعبها بما روته لها من نبوءات سوداء عن سلالتها، حتى وصل الأمر بها إلى نصحها بعدم إتمام الزواج، أي

بمنع زوجها من الدخول عليها. وخوفاً من أن ينتهز زوجها القوي الحازم نومها، فيفض بكارتها، ألبستها بنطالاً سميكاً قصته لها من قماش الأشرعة، وقوّته بأشرطة متصالبة، وأغلقته من الأمام بحلقة من حديد. وهكذا عاش خوزيه وأورسولا شهوراً على هذه الحال. فكان هو يرعى في النهار ديكة القتال، وكانت هي تمضي نهارها بالحياكة على النول مع أمها، حتى إذا حلّ الليل نشبت بينهما معركة شديدة دامت عدة ساعات. ولكن هذا النمط من الحياة والعراك حلّ بينهما، على ما يبدو، محل علائق الحب. ثم أدرك الناس أن شيئاً غير طبيعي يسود حياتهما. وبعد سنة من الزواج، انتشر بين الناس خبر أن أورسولا ما زالت عذراء لأن زوجها عنين. ثم تناهى الخبر إلى خوزيه أركاديو بويندا نفسه.

فقال لزوجته : «أسمعت ماذا يروي الناس يا أورسولا؟» فأجابت : «دعهم وما يقولون. فنحن نعرف أن ذلك غير صحيح». واستمرت الحال على ما كانت عليه ستة أشهر أخرى، حتى جاء ذلك اليوم المأساوي. كان يوم أحد، وقد فاز خوزيه أركاديو بويندا في معركة الديوك ضد برودينسيو أجويلار. وغضب ذلك الخاسر حتى خرج عن طوره، ولا سيما عندما رأى ديكه دامياً. فأدار ظهره لخوزيه أركاديو بويندا، كي يمكن الناس المجتمعين من سماع ما يقوله له.

وصاح : «مبارك عليك. أرجو لهذا الديك أن يقوم بواجبات زوجتك».

فحمل خوزيه أركاديو بويندا ديكه هادئاً، وخاطب الناس قائلاً : «سأعود حالاً». ثم وجه كلامه إلى برودينسيو إجويلار قائلاً : «أما أنت فأسرع إلى بيتك، وأحضر سلاحاً لك، لأنني سأقتلك».

وبعد عشر دقائق، عاد يحمل رمح جدّه المثلّم. وكان برودينسيو إجويلار ينتظره عند باب ساحة قتال الديوك، وقد اجتمع نصف أهل

القرية. ولم تتح فرصة كبيرة لبرودينسيو للدفاع عن نفسه، فقد انطلق إليه رمح خوزيه أركاديو بوينديا بقوة ثور، وبالمهارة التي كانت تمكن أوريليانو بوينديا الأول من قتل نمور المنطقة كلها، فنفذ الرمح من عنقه.

وفي ذلك المساء، وبينما كان الآخرون يقضون الليل حول جثة القتيل، ظهر خوزيه أركاديو بوينديا فجأة في غرفة نومه، بينما كانت زوجته تهم بارتداء بنطال الطهارة. فسدّد الرمح إليها، ونهرها قائلاً : «انزعي هذا». ولم تشك أورسولا لحظة في حزم زوجها آنذاك. فتمتمت قائلة : «أنت المسؤول عمّا سوف يحدث».

ركز خوزيه أركاديو بوينديا رمحه في أرض الغرفة الطينية، وأجاب : «إذا أطفلتِ تماسيح فسوف نربي التماسيح. ولكن لن يموت أحد آخر في القرية بسببك».

كانت ليلة جميلة من ليالي حزيران، هواؤها عليل منعش، وقمرها ساطع منير، فبقيا في سريرهما حتى الفجر لاهيين غير عابئين بالهواء الذي كان يدخل غرفة النوم، حاملاً إليهما نحيب عائلة برودينسيو إجويلار.

وانتهت القضية عند هذا الحد، فقد اعتبرت الحادثة مبارزة شرف. ولكنها خلّفت نوعاً من وخز الضمير لدى الزوجين. فقد خرجت أورسولا في تلك الليلة، إلى صحن الدار كي تشرب ماء، فرأت شبح برودينسيو إجويلار قرب الجرة الكبيرة. كان ممتقع اللون، يغمر وجهه الأسى والحزن، وهو يحاول أن يسدّ الثقب في عنقه بضماد من الحلفاء. ولم تخف أورسولا، ولكنها أشفقت عليه. ورجعت إلى غرفتها فروت لزوجها ما رأت، فلم يعلّق، ولم يكترث بذلك، بل قال في نفسه : «هذا يعني أننا لا نقوى على احتمال أوزار ضمائرنا». وبعد ليلتين رأت أرسولا برودنيسيو إجويلار، ثانية، في الحمّام، يمسح بضماد الحلفاء الدم المتخثر

بالجنون.

أما في تلك الليلة، عندما أقام أبوه ورهطه خيامهم على ضفة النهر، فقد كان يبدو عليهم كأنهم قوم نجوا، بعد لأي، بعد أن تحطمت سفينتهم، ولم يبق أمامهم سبيل للنجاة. ولكن عددهم كان قد ازداد خلال رحلة العبور، وكانوا جميعاً متهيئين لئلا يموتوا إلاّ شيوخاً. وذلك ما كان فعلاً. لقد رأى خوزيه أركاديو بويندیا في ما يرى النائم، في تلك الليلة، أنه ستقوم في ذلك المكان مدينة عظيمة، جدران بيوتها مرايا. وسأل: ما تكون تلك المدينة، فأجيب باسم لم يسمع به من قبل، اسم ليس له معنى، لكنه كان ذا وقع جميل خارق للطبيعة في حلمه: ماكوندو. وفي اليوم التالي، أقنع رفاقه بأنهم لن يصلوا إلى البحر أبداً. وأمرهم بأن يقطعوا الشجر، كي يفسحوا في الغابة قريباً من مجرى النهر، وفي أكثر الأماكن برودة على ضفته. وهناك أسسوا القرية: ماكوندو.

ولم يتوصل خوزيه أركاديو بويندیا إلى تفسير لحلمه عن بيوت جدرانها مرايا، حتى اليوم الذي اكتشف فيه الجليد. وعندها ظنّ أنه أدرك معناها العميق. ظنّ أن المستقبل القريب سيشهد صناعة كتل من الجليد على مدى واسع، من الماء المتوافر، لتنشأ منها البيوت الجديدة في القرية. وبذلك تتبدل قرية ماكوندو من قرية حارة حارقة تتلوّى فيها الأقفال والمصاريع بعامل القيظ، إلى مدينة مشتى(١). ولم يثنه عن محاولاته لبناء مصنع الجليد إلاّ أنه منصرفٌ بحماسة لتعليم ولديه، ولا سيما أوريليانو الذي أظهر منذ البداية استعداداً وتبصّراً غريبين لتعلم الكيمياء. وهكذا نظف خوزيه مخبره، وأعاد قراءة ملاحظات ملكيادس بتركيز وصفاء ذهن، بعيداً عن الهوس الذي أصابه عندما أطلع عليها للمرة الأولى. وجعل يقضي مع ولديه الجلسات الطوال، محاولاً، بصبر

(١) مدينة دافئة يقصدها الناس لقضاء فصل الشتاء البارد.

على عنقـه. ثـم رآته في ليلة أخـرى يتنزه تحت المطر. وانزعـج خـوزيه أركاديو بوينديا من رؤى زوجته. فحمل رمحه وخرج إلى صحن الدار. فوجد الرجل الميت أمامه وعلى وجهه تعابير الحزن. فصاح به خوزيه أركاديو بوينديا : «إلى الجحيم، وفي كل مرة تعود سأقتلك من جديد».

ولم يبتعد برودينسيو إجويلار، ولم يجرؤ خوزيه أركاديو بوينديا على قذفه بالرمح. ومنذ تلك الليلة لم يعد يعرف الراحة. سيطر عليه حزن الميت العظيم، وهو يرمقـه تحت المطر، ويعـذبه حنينه العـميق لعـالم الأحياء، وقلقه وحيرته وهو يبحث في الدار عن قليل من الماء يبلل به ضماد الحلفاء. وكان يقول لأورسولا : «هل ترين، إنه يتألم كثيراً. إنه يعاني الوحدة». وحزنت أورسولا لذلك، حتى إنها عندما رأت الميت، في المرة التالية، يرفع أغطية القدور الموضوعة على الموقد، أدركت مراده، وجعلت، منذ ذلك اليوم، تضع له بعض الأواني ملأى بالماء في أنحاء الدار. وقد رآه خوزيه أركاديو بوينديا، ذات ليلة، يغسل جراحه في غرفته الخاصة، فما استطاع الاحتمال بعد ذلك. . .

قال في نفسه : «حسناً، يا برودينسيو، سوف نرحل عن هذه القرية إلى أبعد ما نستطيع. ولن نعود إليها بعد اليوم. فالآن، تستطيع أن ترحل عنّا مطمئناً».

وهكذا كان عزمهم على عبور الجبال(١). فقد بدأ عدد من أصدقاء خوزيه أركاديو بوينديا، ممن كانوا في مثل عمره من الشباب، بحزم أمتعتهم. ثم اصطحبوا نساءهم وأولادهم، متجهين إلى تلك الأرض التي لم يسبق أن وعدهم أحد بها. وقبل الرحيل، دفن خوزيه أركاديو بوينديا رمحه في أرض الدار، وقام بذبح ديكته المقاتلة الجميلة، واحداً بعد الآخر، مؤمناً بأنه، بهذه الطريقة يمكن أن يدخل الطمأنينة إلى نفس

---

(١) جبال السييرا.

بروديسنسو إجويلار. ولم تحمل أورسولا معها عدا صندوق ثياب عرسها وبعض أدوات المطبخ، والصندوق الصغير الذي كان يحوي القطع الذهبية التي ورثتها عن أبيها. لم يضعوا للرحلة خطة، ولم يحددوا اتجاهاً دقيقاً، بل ساروا في اتجاه معاكس لطريق ريوهاشا، كي لا يتركوا خلفهم أثراً، ولا يلتقوا بأحد يعرفونه.

كانت رحلة غريبة. وبعد أربعة عشر شهراً من السفر، أنهكت خلالها معدة أورسولا من أكل لحم السعادين وشوربا الأفاعي والسلاحف، وضعت طفلاً كانت كل ملامحه وأجزاء جسده بشرية، فقضت نصف الطريق محمولة على أرجوحة يرفعها رجلان على كتفيهما، لأن ساقيها تورّمتا، وتفجّرت دواليهما كفقاعات الماء. وقد اجتاز الأطفال محن الرحلة ومخاطرها خيراً من والديهم. فعلى الرغم من أن بطونهم المنتفخة وعيونهم الشبيهة بعيون الموتى كانت تثير الشفقة والحزن، فقد كانت المغامرة عندهم، في غالب الوقت، ضرباً من اللهو.

وبعد نحو سنتين من السفر، وذات صباح، اكتشفوا المنحدرات الغربية من سلسلة الجبال. فكانوا أول من يراها بين البشر. ومن على قمة الجبل المختبئة بين الغيوم، أخذوا يتأملون رقعة ماء المستنقع الكبير التي كانت تمتد حتى طرف العالم الآخر.

ولكنهم لم يصادفوا البحر. وذات ليلة، وبعد أن هاموا على وجوههم شهوراً في منطقة موحلة، على بعد سحيق عن آخر من التقوا بهم من الهنود، سكان البلاد الأصليين، أقاموا خيامهم على ضفة نهر كثير الحصى في مجراه، يشبه ماؤه سيلاً من زجاج متجلّد.

وبعد سنين من ذلك التاريخ، وخلال الحرب الأهلية الثانية، حاول الكولونيل أوريليانو بوينديا أن يسلك تلك الطريق لكي يداهم ريوهاشا على حين غرة. ولكنه أدرك، بعد مسيرة ستة أيام أن خطته كانت أشبه

ومثابرة، أن يفصل ذهب أورسولا عن بقايا الأخلاط المتفحمة في قعر القدر. ولم يكن خوزيه أركاديو الابن يشارك بحماسة في تلك الأعمال. وبينما كان الأب منصرفاً بكل حواسه ووجدانه إلى أتونه، كان ابنه البكر العنيد، والذي كان دائماً يبدو أكبر من سنه، ينمو ويتحول إلى شاب يافع ضخم الجثة. وقد تغيّر صوته إلى شيء من الخشونة، وبدأ بعض الزغب يغطي ما فوق شفته العليا. وفي إحدى الأمسيات، دخلت أورسولا الغرفة، بينما كان الفتى ينزع ثيابه عنه استعداداً للنوم، فأحست بشيء من الشفقة الممزوجة بالحياء. فقد كان أول رجل تراه عارياً بعد زواجها. كانت بنيته قوية العدة للحياة إلى درجة أنه بدا غير طبيعي نوعاً ما.

وحملت أورسولا للمرة الثالثة، فعاودتها المخاوف التي عرفتها في بدايات زواجها.

وفي تلك الأثناء، كانت تتردد إلى البيت امرأة مرحة لعوب وقحة بعض الشيء وبذيئة اللسان مثيرة، وتعرف قراءة المستقبل بورق اللعب. كانت تساعد أورسولا في خدمة البيت، فحدثتها أورسولا عما شاهدته في ابنها، وعن ظنونها في أن عدم التناسب في أحجام أعضائه ربما كان أمراً غير طبيعي، كذيل الخنزير في ابن عمها. فأطلقت تلك المرأة ضحكة رنانة صاخبة تجاوبت أصداؤها في أرجاء البيت كأنما هي أوان من زجاج يتدحرج ويتكسر، وقالت للأم: «على العكس تماماً. فسوف يكون محظوظاً وسعيداً في حياته». وبعد أيام، حملت معها ورق اللعب إلى البيت لتثبت للأم صحة قولها. ثم اختلت بخوزيه أركاديو الفتى في مستودع الحبوب المتصل بالمطبخ من الناحية الخارجية. فوزعت أوراقها بأناة وهدوء على طاولة عتيقة، ثم أخذت تتحدث عن أشياء من هنا وهناك، بينما الفتى إلى جانبها يرقب ما تفعله بشيء من الملل. وفجأة

مدّت يدها إليه ولمسته، ثم هتفت قائلة: «يا إلهي». فقد أصابها الذهول فعلاً، فلم تقوَ على قول شيء آخر. أما خوزيه أركاديو الفتى فقد أحسّ كما لو أن عظامه قد طفحت زبداً، وسيطر عليه خوف شديد ورغبة جامحة في البكاء. ولم تحاول المرأة إثارته قط، ولكنه قضى ليلة كأنما يبحث عنها في رائحة الدخان التي انبعثت من صحونها وانسربت إلى ما تحت جلده. كان يودّ لو أنه يبقى معها طوال الوقت، يودّ لو أنها كانت أمه، ولو أنه يظل معها في المستودع، أو لو أنها تلمسه ثانية وتقول له: «يا إلهي، يا لك من غريب»!. ولم يتمالك نفسه ذات يوم، فمضى إلى زيارتها في بيتها. كانت زيارته رسمية، فبقي في غرفة الجلوس هادئاً دون أن ينبس ببنت شفة. ولم يشعر بأنه يشتهيها في تلك اللحظة. كانت مختلفة تماماً، غريبة عن الصورة التي توحي بها رائحتها. وكأنما كانت امرأة أخرى. فاحتسى قهوته وغادر البيت مكتئباً. ولكنه في غمرة أرقه، في تلك الليلة، اشتهاها بشوق ورغبة وحشيين، لا بالهيئة التي عرفها بها في المستودع، بل بالهيئة التي بدت بها عصر ذلك اليوم.

وبعد بضعة أيام دعته المرأة فجأة إلى بيتها، حين كانت وحدها مع أمها. وأدخلته إلى غرفة النوم بحجة أنها تريد أن تريه مجموعة من ورق اللعب. وهناك راحت تلامسه بدلال مفرط وحرية لا متناهية، حتى أحس بشيء من الوهم بعد الرعدة الأولى، وشعر بالخوف أكثر من اللذة. ثم طلبت إليه أن يأتي إليها تلك الليلة، فوافق سريعاً لمجرد التخلص منها، وهو يعرف أنه لن يستطيع ذلك. ولكنه، ما إن خيم الليل حتى أدرك، وهو في سريره الملتهب، أنّ عليه أن يمضي لرؤيتها، حتى وإن لم يكن قادراً على ذلك. تحسّس ثيابه وارتداها، مصيخاً السمع، في الظلام، لنفس أخيه الهادئ المنتظم، وسعال أبيه الجاف في الغرفة المجاورة، ولهاث الدجاج في فناء الدار، ودمدمة الذباب، ودقات

قلبه الخافقة، وحركة العالم غير العادية التي لم يلحظها قط من قبل. وهكذا غادر البيت إلى الشارع الغافي. وكان يتمنى من كل قلبه لو أنه يجد باب بيتها مقفلاً وليس مغلقاً كما كانا قد اتفقا. ولكنه وجد الباب مفتوحاً، فدفعه بأطراف أصابعه، فندّت عن المصراع آنّة حزينة منتظمة كان لها صدى متجمد في أوصاله. انسلّ إلى الداخل محاذراً أن يحدث ضجة ولو بسيطة. ثم عبقت في أنفه الرائحة التي يميزها. ووجد نفسه في القاعة التي يعلق فيها إخوة الصبية الثلاثة أراجيحهم في وضع يجهله ولا يمكنه تحديده في الظلام الدامس. وكان عليه أن يعبر القاعة متحسساً طريقه بيديه، حتى إذا دفع باب غرفة النوم تبيّن الاتجاه وتخلص مما عليه، دون أن يخطىء السرير. وقد تمّ له ذلك، ولكنه احتك بحبال أرجوحة علقت أدنى مما توقّع، واستدار. كان ما يزال يغطّ في نومه، وتلفّظ بصوت غير واعٍ: «كان يوم الأربعاء». وعندما دفع باب غرفة النوم لم يستطع أن يحول دون احتكاكه بأرضها غير المستوية. وأدرك فجأة، وهو في ظلام الغرفة الدامس، أنه قد ضلّ سبيله، وسيطر عليه ذلك الشعور الغريب. في تلك الغرفة الصغيرة، كانت ترقد الأم وابنتها الأخرى مع زوجها وابنيها، وامرأة أخرى لم يكن من المنتظر أن تكون هناك. وكان يمكن له أن يستدل بالرائحة المعهودة لو أن تلك الرائحة لم تكن لتعبق في البيت كله، خادعة ونفّاذة، تماماً كما لو كانت حالها منذ انطبعت تحت جلده، فتوقف في مكانه هادئاً وقتاً طويلاً لا يبدي حراكاً، متأملاً، فيما هو فيه من الذعر الشديد، في الحال التي أوصلته إلى هذا الضياع الرهيب، عندما لامست وجهه، فجأة، يد ممتدة بأصابعها الخمس، في الظلام الحالك. ولم يفاجئه ذلك، كأنما كان ينتظره في لا شعوره. فاستسلم لتلك اليد، وهو في حالة من الإرهاق الشديد، تقوده إلى مكان غير واضح المعالم، حيث تنزع عنه ثيابه ويلقى به كما لو كان كيساً من البطاطا، ويقلب من جانب إلى آخر في ليل دامس لا يُدرك غوره ولا

يفيد فيه سلاح، وحيث طغت رائحة الأمونيا على رائحة المرأة. ولقد حاول جاهداً أن يتذكر وجهها، ولكنه لم يستطع أن يتذكر غير وجه أورسولا. وكان يشعر شعوراً مبهماً بأنه كان يفعل شيئاً تمنى منذ أمد بعيد لو أنه يتحقق له، ولكنه لم يتخيل قط أن يحدث له. في الواقع، كل ذلك، دون أن يعرف تماماً ما الذي كان يفعله، بل هو لم يكن يدري موقع قدمه من رأسه ولا رأس من من قدم من. فقط، كان يحس أنه غير قادر على أن يقاوم أكثر من ذلك ثورة كليتيه الصمّاء الجليدية، ولا الهواء الذي كان ينفخ بطنه وأمعاءه، ولا الخوف ولا الرغبة والشوق الهائجين والملحين على الفرار، والملحين في الوقت ذاته على البقاء إلى الأبد في هذا الصمت المطبق النزق وتلك الوحدة الرهيبة.

كان اسمها بيلار تيريزا. وكانت من رهط المهاجرين الذين آل رحيلهم الكبير إلى نهايته بتأسيس ماكوندو. وقد أرغمتها عائلتها على اصطحابها كي تبعدها عن الرجل الذي اغتصبها، وهي بعد في الرابعة عشرة من عمرها، وأحبها حتى بلغت الثانية والعشرين، ولكنه لم يقرر إعلان علاقته بها على الملأ لأنه كان رجلاً انعزالياً متردداً. وقد وعدها أن يلحق بها حتى آخر الدنيا، بعد زمن قصير يرتب خلاله شؤونه. وأجهدها انتظاره والبحث عنه بقصد التعرف إليه بين الكبار والصغار من الرجال، الشقر والسمر، الذين كان يعدها الورق بقدومهم، من أصقاع الأرض، براً أو بحراً، في غضون ثلاثة أيام، أو ثلاثة أشهر، أو ثلاث سنوات. وفي انتظاره الطويل، فقدت كنازة ردفيها وقوة فخذيها وبروز نهديها وعاداتها الرقيقة اللطيفة، وما بقي فيها سليماً غير جنون قلبها المحب.

وأصابت اللعبة اللذيذة الجميلة عقل خوزيه أركاديو بالارتباك والتشويش وما يشبه الجنون، فتابعها طوال لياليه في متاهة الغرفة. واتفق، في إحدى المرات، أن وجد الباب مقفلاً بالعارضة التي تسنده من

الداخل، فطرقه عدة مرات، وهو يعلم أنه ما دام قد تجرأ على الطرق مرة أولى، فلا بد من أن يتابع الطرق. وبعد انتظار طويل فتحت له الباب. أما في النهار فكان يمضي وقته بليداً، مستسلماً لأحلامه، ناعساً متكاسلاً، يستعيد في سريره ذكرى الليلة السابقة ومتعتها. وعندما كانت تأتي إلى بيته مبتهجة فرحة، لا مبالية، رشيقة جريئة حتى حدّ الوقاحة، فلم يكن يبذل أي جهد لإخفاء اضطرابه. أما هي فقد كانت قعقعة ضحكها الصاخب تفزع الحمام في فناء الدار. ولم تكن فيها تلك القوة الخفية التي تعلمه كيف يضبط تنفسه ويهيمن على تسارع نبضات قلبه. لقد مكنته من أن يدرك لماذا يخاف الناس الموت.

وهكذا انغلق الشاب على نفسه، وانكفأ على ذاته، حتى إنه لم يدرك سبب الهياج والفرح عندما هاج الأب والأخ، بل البيت كله، فرحاً بنبأ التوصل إلى سحق البقايا المعدنية وفصل ذهب أورسولا عن تلك البقايا.

أجل، لقد نجحا بعد كفاح وصبر طويلين على العمل الدؤوب والعمليات المعقدة. وسعدت بذلك أورسولا، حتى إنها شكرت الله لأنه خلق الكيمياء. وتزاحم أهل القرية في المخبر، حيث قدمت لهم أورسولا الحلوى المصنوعة من الجوافة ورقائق البسكوت احتفالاً بالاختراع العجيب. أما خوزيه أركاديو بويندا فقد جعل يعرض عليهم البوتقة وفيها الذهب المستعاد، كأنما هو الذي اخترعه. وبينما كان يعرض ابتكاره على الجمهور واحداً واحداً، وجد نفسه فجأة وجهاً لوجه أمام ابنه البكر، الذي نادراً ما دخل المخبر في الفترة الأخيرة بطولها. فوضع الكتلة الصلبة الصفراء أمام عينيه وسأله : «كيف تراها؟». فأجاب خوزيه أركاديو بصراحة :

«براز كلاب».

فما كان من أبيه إلا أن صفعه بقفا يده صفعة أسالت دموعه ودمه.

وفي تلك الليلة حرصت بيلار تيريزا على أن تضع على وجهه الضمادات والرفادات المغموسة بسائل الأرنيكا، وهي تتحسس في الظلام القطن والقارورة. وقد فعلت معه كل ما كانت تهوى من حب ومعاشرة دون إزعاج له، فمارست الحب معه دون أن تدعه يتحرك. وقد بلغا من الود والحب درجة جعلتهما، من بعد، يتهامسان دون وعي منهما :

قال لها : أريد أن أكون وحيداً معك. وسيأتي يوم أحدث فيه الناس عن كل شيء. وعندها سيمضي، إلى غير رجعة، الزمن الذي نتسلل فيه ونختبىء خوفاً من الناس.

ولم تحاول هي تهدئته أو التسرية عنه.

فقالت : «سوف يكون ذلك رائعاً. وعندما نغدو وحيدين سوف ندع المصباح مضاء، فيرى أحدنا الآخر، ونرى ماذا نفعل. وعندها سأكون قادرة على الصياح والصراخ بما أشاء وما أود، دون أن يزعجنا أحد. وعندها سوف تهمس في أذني بكل الكلام المثير والقذر الذي يدور في ذهنك».

وأثاره هذا الحديث، إضافة إلى الحقد الذي كان يكنه لأبيه عندئذ، وولدت لديه رغبته الشديدة في الحب العنيف الحر شجاعة لا متناهية، وبطريقة عفوية، دون أي إعداد أو تفكير في الأمر، أطلع أخاه على تفاصيل كل ما كان يجري معه.

في البدء، لم يدرك أوريليانو الصغير سن الأمر كله سوى المخاطر التي تنطوي عليها مغامرات أخيه. لم يستطع فهم السحر والحلاوة الكامنين في الموضوع. ولكن سرعان ما شدّه الشوق وأسرته اللهفة. أدهشته تفاصيل المخاطر والمغامرات، وراح يتوحّد مع أخيه ويعيش وإياه معاناته ومتعته، وشيئاً فشيئاً بدأ يتسلى بتفاصيل جولات أخيه، منساقاً بالحمّى نفسها، طالباً منه أن يروي له كل صغيرة وكبيرة، مشاركاً إياه في ألمه

وخوفه ومسرّته، ممتلئاً معه خوفاً وسعادة. وقد ينتظره يقظان حتى الفجر راقداً في سريره، الذي كان كأنما مليء جمراً، حتى يعود من إحدى لياليه. فإذا عاد ظلا يتحدثان حتى الصباح. فما لبث الأخوان أن بدت على كليهما مظاهر الإعياء والتراخي والكسل. ولم يعد لديهما أيّ اهتمام بالكيمياء، ولا بحكمة أبيهما وعلمه. وانكفأ كل منهما على نفسه متقوقعاً متخذاً من ذاته ملاذاً له.

وكانت أورسولا، الأم، ترقب ولديها. فقالت: «لقد جُنّ هذان الولدان. ولا بدّ أنهما مصابان بالدود». وأعدّت لهما شربة من أيدي الإوز المطحونة، فشربها الشابان بصبر غير منتظر بسبب سوء طعمها. وتناوب كل منهما على قدره إحدى عشرة مرة في يوم واحد، وأسقطا بعض الطفيليات الزهرية اللون عرضاها على من في البيت بسرور وعبث صاخب، لأن ذلك مكنهما من تحويل ظنون أورسولا عن السبب الحقيقي لنعاسهما وكسلهما.

لم يكن أوريليانو يستمع إلى تجارب أخيه وحسب، بل كان يعيشها أيضاً كما لو أنها حدثت له. وفي أحد الأيام، وبينما كان أخوه يشرح له تفاصيل آلية الحب والعملية كلها، قاطعه سائلاً: «وبماذا نحس؟». فأجابه خوزيه أركاديو دون انتظار: «بشيء كأنه هزّة أرضية».

وذات يوم خميس من أيام كانون الثاني (يناير)، وفي الساعة الثانية صباحاً ولدت أمارانتا. وتفقدت أورسولا أعضاءها جميعاً قبل أن يدخل غرفتها أحد. كانت خفيفة ورطبة، كحرذون الجدران، لكن أعضاءها جميعاً كانت إنسانية. ولم يعلم أوريليانو أنّ في البيت طفلاً جديداً إلاّ حينما غصّ بالناس. وانتهز البلبلة والهرج والمرج وغادر البيت، دون أن ينتبه له أحد، كي يدعو أخاه الذي انسلّ من سريره في الحادية عشرة مساء. وقد كان قرار أوريليانو ذاتياً سريعاً، لم يتوقف للتفكير فيه. فلم

يفكر في الطريقة التي يخرج بها أخاه من غرفة بيلار تيريزا. ظل يطوف حول البيت ساعات، يصفر بالإشارة التي اتفقا عليها، حتى قارب الفجر البزوغ، فاضطر للرجوع إلى البيت. وعندما دخل على أمه غرفتها وجد أخاه يداعب أخته الصغيرة الوليدة، وعلى وجهه سيماء براءة لا يرقى إليها شك.

وما كادت أورسولا تنتهي من نقاهة الأربعين يوماً حتى عاد الغجر. كانوا نفس المهرجين المشعوذين الذين جاؤوا بالجليد من قبل. لم يكونوا مثل قبيلة ملكيادس، فقد أظهروا سريعاً أنهم ليسوا مبشرين بالتقدم، بل أصحاب تسلية وناقلو ألعاب تمتع الناس. وقد سبق لهم عندما عرضوا الجليد أن قدموه على أنه من غرائب السيرك وليس على أنه أمر نافع في حياة البشر. أما هذه المرة فقد عادوا يحملون، في ما يحملونه من ألعاب ذكية، بساطاً طائراً لم يدّعوا أنه من أسس تطور النقل، وإنما أداة للتسلية. وعلى الرغم من ذلك، سارع الناس للبحث عن آخر نقودهم الذهبية المطمورة في الأرض، كي ينعموا بالطيران السريع فوق بيوت القرية. واستغل خوزيه أركاديو وبيلار الفوضى العامة التي سببها قدوم الغجر، واستمتعا بضع ساعات بالحرية، فسارا بين المحتشدين كخطيبين سعيدين، ضاعا في زحمة الجمهور، حتى توصلا إلى الظن بأن الحب قد يكون شعوراً أكثر راحة وهدوءاً وعمقاً من السعادة التي ترافق اللذة، المحمومة، ولكنها الآنية الزائلة سريعاً، في لياليهما السرية.

ولكن بيلار أفسدت روعة الخبرة والتجربة. فقد شجعتها حماسة خوزيه أركاديو وسعادته برفقتها، ولكنها لم تحسن اختيار اللفظة واللحظة، وكأنها قلبت الدنيا على رأسه فجأة. فقالت له: «أنت الآن رجل حقاً». وعندما لم يدرك ما كانت تعنيه، أوضحت له دون مواربة قائلة:

ـ «سوف يكون لك ولد».

قضى خوزيه أركاديو أياماً لا يجد الجرأة فيها على الخروج من البيت. فقد كان يكفيه أن يسمع ضحك بيلار يتردد في المطبخ، حتى يعدو ملتجئاً إلى المختبر الذي عادت أدوات الكيمياء فيه إلى العمل برضا أورسولا ومباركتها. واستقبل خوزيه أركاديو بوينديا ابنه الضال سعيداً مرحباً، وأطلعه على التجارب التي أجراها مؤخراً بحثاً عن حجر الفلاسفة.

وفي عصر أحد الأيام بلغ إعجاب الشابين الأخوين بالبساط الطائر أوجه، لما رأياه يمرّ سريعاً مقابل نافذة المختبر، وهو يحمل الغجريّ الذي يقوده وعدداً من أطفال القرية الذين كانوا يلوحون بأيديهم بفرح وسرور. ولكن خوزيه أركاديو بوينديا لم يكلف نفسه حتى عناء النظر إليه، بل قال: «دعهم يحلمون، أما نحن فسنطير أفضل منهم، وبوسائط أكثر علمية من غطاء تعيس حقير. وعلى الرغم من تظاهر خوزيه أركاديو الابن بالاهتمام، فهو لم يدرك شيئاً من خصائص بيضة الفلاسفة. فما كان يبدو لناظريه لم يكن يعدو قارورة وسخة. فهو لم يستطع الهرب مما كان يشغل باله. وقد فقد شهيته للطعام وقدرته على النوم، وازداد طبعه حدّة، فصار أشبه بأبيه عندما يفشل في إحدى تجاربه ومشروعاته. وقد ازداد اضطراب خوزيه الابن حتى أن أباه نفسه أراحه من واجباته في المختبر، ظناً منه أن ابنه لم يكن يحب الكيمياء.

وأدرك أوريليانو، دون شك، أن البحث عن الحجر الفلسفي لم يكن سبب حزن أخيه، ولكنه لم ينجح في انتزاع أي اعتراف منه. فقد فقد خوزيه أركاديو عفويته القديمة، وانقلب من رفيق يبث الشكوى إلى كتوم معاند انطوائي عدائي.

وفي إحدى الليالي ألحّت عليه الحاجة للوحدة، وضغط عليه تحامله

على العالم من حوله، فغادر سريره كعادته، ولكنه لم يذهب إلى بيت بيلار تيريزا، بل ليلقي بنفسه بين جمهور سوق الفرجة لعله يضيع في زحمته. وبعد جولة أمام مختلف أنواع الألعاب، دون اكتراث بأي منها، توقف عند شيء لم يكن جزءاً من المشهد العام: كانت هناك غجرية صغيرة تكاد تكون طفلة تنوء بحمل حلاها البلورية. كانت أجمل امرأة رآها في حياته. وكانت تقف بين حشد من الناس تشاهد العرض الحزين للرجل الذي تحوّل إلى أفعى لأنه عصى أبويه.

ولم يكترث خوزيه أركاديو لكل ما كان يجري. ففي الوقت الذي كان يجرى فيه الاستجواب المأساويّ للرجل الأفعى، شقّ الشاب طريقه إلى صف النظارة الأول، حيث كانت الفتاة الغجرية. فوقف وراءها، ملتصقاً بظهرها. وحاولت الفتاة الزوغان من أمامه، ولكن خوزيه أركاديو زاد في إلحاحه على ملاحقتها، وزاد من ضغطه عليها والتصاقه بظهرها. وأحسّت الفتاة به جيداً، فلبثت في مكانها جامدة ترتجف دهشة وخوفاً، وهي لا تستطيع إدراك ما ألمّ بها. ثم التفتت نحوه، ورنت إليه بابتسامة عصبية محمومة. وعند هذا الحدّ، أعاد الغجريان الرجل الأفعى إلى قفصه، وحملاه إلى داخل الخيمة، ثم أعلن الغجري الذي كان يدير المشهد قائلاً:

«والآن، سيداتي وسادتي، سوف تشهدون المحنة القاسية التي تعيشها المرأة التي حكم عليها بقطع رأسها في هذا الوقت من كل ليلة، وعلى مدى مئة وخمسين سنة، عقاباً لها لأنها رأت ما كان ينبغي لها ألا تراه».

ولم يشهد خوزيه أركاديو والفتاة الغجرية منظر قطع الرأس، بل مضيا إلى خيمتها، حيث تبادلا القبل بنهم محموم، فيما كانا يخلعان ثيابهما. وتجرّدت الفتاة الغجرية من خراطاتها التي كانت ترتديها، بعضها فوق بعض، ومن شلحات الدانتيلا المنشّاة، ومن مشدّها، ومن الحلي البلورية

التي كانت تثقلها، حتى إنها لم يبق منها عملياً شيء يذكر، حتى لكأنها ضفدعة ضئيلة، صغيرة النهدين نحيلة الفخذين، لا يزيد محيط أحدهما عن محيط ذراع خوزيه أركاديو. ولكنها أبدت من الحزم والدفء والحرارة ما كان يعوض عن ضآلة جسمها. ولكن خوزيه أركاديو لم يشأ أن يبادلها ما بدر منها من تجاوب وحرارة، لأنهما كانا في خيمة تكاد تكون عامة، يمرّ فيها الغجر بأدوات السيرك، ذهاباً وإياباً، أو يرتبون ثيابهم ويبدلونها، أو يتوقفون أحياناً، قريباً من السرير، للعب بالنرد. وكان المصباح المعلق بالعمود الرئيس يضيء المكان كله. وبعد وقت أمضياه في المداعبة، استلقى خوزيه أركاديو عارياً على السرير، لا يدري ما يفعل، بينما تحاول الفتاة أن تثير همته. وبعد قليل دخلت امرأة غجرية بدينة مكتنزة اللحم يصحبها رجل من غير القافلة، بل ومن غير القرية أيضاً. وسرعان ما بدأ بخلع ثيابهما عند طرف سرير خوزيه أركاديو والفتاة. وألقت المرأة البدينة نظرة خاطفة على خوزيه أركاديو، ثم توقف بصرها عند حيوانه الكبير الرائع، متفحصة إياه وهو نائم، ثم هتفت قائلة له:

ـ «ليحفظك الله تماماً كما أنت، يا بنيّ».

وطلبت الفتاة، رفيقة خوزيه أركاديو، إلى الرجل والمرأة البدينة أن يتركاهما وحدهما دون إزعاج. فرقد الاثنان على الأرض قرب السرير. وأيقظت حرارة الأخيرين حمى خوزيه أركاديو وهمته. وعندما ضمّ الغجرية هصرها، فقرقع ظهرها قرقعة مخيفة كأنما تخلّعت مفاصلها، أو كأنّ علبة دومنو قد انقلبت بما فيها. وغمر العرق بشرتها فتحولت إلى لون شاحب، واغرورقت عيناها بالدموع، وندّت عن جسدها أنّة حزينة ورائحة طين غامض. ولكن الفتاة احتملت الهصرة بشجاعة وصلابة عظيمتين. أما خوزيه أركاديوا فأحس أنه علا في الجوّ، متسامياً إلى حالة إلهام ملائكية فاض بها قلبه المعنّى ببذاءات رقيقة عبرت أذن الفتاة

الغجرية، فترجمتها إلى عبارات تلفظت بها في لغتها. كان ذلك يوم الخميس. وفي ليلة السبت، ربط خوزيه أركاديو على رأسه خرقة حمراء، ورحل مع الغجر.

واكتشفت أورسولا غياب ولدها خوزيه أركاديو، فبحثت عنه في القرية كلها. فبعد أن نزع الغجر خيامهم لم يبق في مكانهم سوى كومات من النفايات والرماد المنتشر في المواقد وحولها، وقد انطفأت تلك المواقد إلا من دخان ما زال يتصاعد منها. وأسرّ لأورسولا عابر سبيل، كان يبحث بين النفايات والقاذورات لعله يجد حلية ما، أسرّ لها بأنه رأى ولدها، في الليلة السابقة، يدفع العربة التي كانت تقلّ الرجل الأفعى. فصاحت أورسولا بزوجها:

ـ «لقد صار الولد غجرياً».

لم تبد على الأب أية علامة من علامات الفزع لاختفاء ولده. ولكنه قال لزوجته، وهو يطحن في جرنه المادة التي طحنها ألف مرة ثم سخّنها من جديد وأعاد طحنها:

ـ «أرجو أن يكون ذلك صحيحاً. فبهذه الطريقة سيتعلم كيف يصير رجلاً».

ولكن أورسولا سألت عن الطريق التي سلكها الغجر في رحيلهم. ثم انطلقت على تلك الطريق تغذّ السير، مستعلمة في سيرها عن كل شيء يتصل بأولئك الغجر، وهي تقدّر أن بوسعها أن تلحق بهم قبل مضي وقت طويل. وما زالت أورسولا تبتعد عن القرية حتى أدركت أنها صارت في منأى عنها لا تستطيع عنده الرجوع إليها. ولم يكتشف خوزيه أركاديو بوينديا غياب زوجته إلاّ بعد الثامنة مساء، عندما ترك المادة التي كان يسخنها على كومة سماد، وانصرف إلى تفقد ابنته الصغيرة أمارانتا التي مضى عليها وقت وهي تبكي حتى بحّ صوتها من البكاء. وعندها

جمع زمرة من الرجال المجهزين أحسن تجهيز، وسلّم أمارانتا إلى امرأة عرضت أن ترضعها من لبانها في غياب أمها، وانطلق هائماً على وجهه في الدروب الخفية، باحثاً عن أثر لأورسولا. وقد رافق أورليانو، الابن الأصغر، أباه في تلك الرحلة. والتقى القوم، عند الفجر، بجماعة من الصيادين من السكان المحليين، يجهلون لغتهم. وقد فهموا بالإشارة من هؤلاء أنهم لم يروا أحداً قط. ومضت أيام ثلاثة في البحث والتفتيش، حتى تبين للقوم أن لا فائدة من ذلك، فعادوا أدراجهم إلى القرية.

واستسلم خوزيه أركاديو بوينديا لحزنه المقيم، وراح يعكف على ابنته الصغيرة أمارانتا يربيها ويعنى بها كأنه أمها. كان يغسلها ويبدل ثيابها، ويأخذها أربع مرات، في اليوم، إلى مربيتها، حتى إذا حلّ الليل جعل يغني لها ويردد ألحاناً ما عرفتها أورسولا.

وذات يوم، عرضت عليه بيلار تيريزا ان تتطوع بخدمة البيت حتى عودة أورسولا. ولكن أورليانو، وقد أرهف البؤس والحزن حدسه، أحس بشرارة من رؤيا عندما رآها تدخل البيت. فقد أدرك تلك الساعة، وبطريقة غامضة، أنها المسؤولة عن فرار أخيه، وما تلاه من اختفاء أمه. فراح يعذب تلك المرأة بعدائه الصامت المكتوم الذي لا يرحم أبداً، حتى أنها لم تعد لتطأ أرض بيتهم مرة ثانية.

وساءت الأمور، حتى آل كل شيء إلى مألوف كأنه عادة. ولو حاول خوزيه أركاديو بوينديا أن يذكرا متى استأنفا العمل في المخبر بالتحديد لما تمكنا. نفضا عنه الغبار، وأشعلا فيه الأتون، وعادا، من جديد، إلى معالجة المادة التي كانت متروكة مهملة في ثنايا السماد. وكانت الصغيرة، أمارانتا، نفسها، وهي راقدة في سرير من قصب معلق، ترقب أباها وأخاها، وهما يعملان دائبين في الغرفة الصغيرة التي كان هواؤها يعبق بأبخرة الزئبق.

وذات يوم، وبعد أن مضت عدة أشهر على غياب أورسولا، بدأت تحدث أمور غريبة. فقد أخذت قارورة، فارغة منسية في إحدى الخزانات، يزداد وزنها حتى استحال تحريكها من مكانها. كما إن قدر ماء، كانت موضوعة على طاولة العمل، أخذت تغلي دون نار مدة نصف ساعة، حتى تبخر ماؤها تماماً. وكان خوزيه أركاديو بوينديا وابنه أورليانو يشهدان تلك الظواهر بدهشة وإعجاب ممزوجين بالخوف. ولم يستطيعا تعليل تلك الظواهر فظنّا أنها من دلالات المادة. ثم إن سرير أمارانتا تحرك ذات يوم باندفاع ذاتي خاص، فدار دورة كاملة في الغرفة، على مرأى من أورليانو المندهش، حتى همّ به فأوقفه. أما أبوه فلم يقلق لذلك ولم ينزعج، بل أعاد السرير إلى مكانه وربطه بقائمة الطاولة، موقناً بأن الحدث الذي طال انتظاره بات وشيكاً. وقد سمعه أورليانو يشير إلى ذلك بقوله :

ـ «إذا لم تخش الله، فتأمل المعادن، وسوف تخشاه».

وعادت أورسولا، فجأة، بعد غياب خمسة أشهر منذ اختفائها، وهي أجمل وأفتى من أي وقت مضى، وعليها حلى جديدة ما عهدت القرية مثلها. ولم يستطع خوزيه أركاديو بوينديا مقاومة المفاجأة، فصاح :

ـ «هذا ما كنت أتوقع. فقد عرفت أنك ستعودين».

فقد كان موقناً بعودتها في دخيلة نفسه، لأنه كان وهو يعالج المادة، في معتكفه الطويل في المخبر، يدعو الله في أعماقه ألا تكون الأعجوبة المنتظرة اكتشاف حجر الفلاسفة، ولا تحرير الروح التي في المعدن، ولا إمكان تحويل ما في البيت، من مفاصل وأقفال وسواها، إلى ذهب، بل أن يتحقق هذا الذي حدث وحسب : عودة أورسولا .

أما أورسولا فلم يبد عليها أنها تشاطره فرحه، فقبلته قبلة تقليدية، وكأنها لم تغب عنه ألا ساعة أو بعض ساعة، ثم قالت له :

«انظر خارج البيت».

وقد أمضى خوزيه أركاديو بوينديا وقتاً طويلاً حتى استفاق من الدهشة عندما خرج إلى الطريق ورأى جمهور الناس. لم يكونوا غجراً، وإنما كانوا رجالاً ونساء من جنسهم، له شعور مسبلة وبشرات سمراء، يتكلمون لغتهم ويتألمون مثل آلامهم. وقد جلبوا معهم بغالاً محملة مؤناً، وعربات تجرها الأبقار، وقد امتلأت أثاثاً وأدوات وأواني للطبخ، ومتاعاً من أصناف شتى لانتفاع الإنسان، كل ذلك معروض للبيع، دون ضجة ولا صياح؛ يبيعه تجار صغار عاديون. لقد وصلوا من الطرف الآخر للمستنقع الكبير، الواقع فقط على بعد مسيرة يومين، حيث يوجد مدن وقرى يصلها البريد كل شهر، ويعرف الناس وسائط الحياة الطيبة ذات المستوى الرفيع.

لم تستطع أورسولا العثور على الغجر؛ ولكنها وجدت الطريق التي لم يستطع زوجها اكتشافها في بحثه الفاشل، والخيب للآمال، عن الاختراعات الكبرى.

(٣)

جيء بابن بيلار تيريزا، بعد أسبوعين من ولادته، إلى بيت جديه. وقد قبلت أورسولا بذلك الأمر مكرهة مستسلمة لعناد زوجها الذي لم يرض فكرة ترك وليد من نسله للمصادفة والضياع، ولكنه اشترط ألاّ يعرف الطفل هويته الحقيقية. وعلى الرغم من أنهم أسموه خوزيه أركاديو، إلاّ أنهم انتهوا بدعوته باسم أركاديو تجنباً للتشويش والخلط بين الأسماء. وفي تلك الفترة، ساد القرية نشاط كثيف، وغدا البيت نهباً لحركة دائبة، حتى احتلت تربية الطفلين منزلة ثانوية، فعهد بهما إلى فيزيتا سيون، وهي هندية من قبيلة الجواجيرو، جاءت القرية وأخوها هرباً من طاعون الأرق الذي أصاب قبيلتهما منذ عدة سنوات. وكان الاثنان مطيعين لطيفين فاختارتهما أورسولا لخدمتها لعلهما يعينانها في خدمة البيت. وهكذا تعلم الطفلان أركاديو وأمارانتا لغة الهنود الجواجيرو قبل تعلم اللغة الإسبانية، وتعلما احتساء شوربا السحالي وأكل بيض العناكب دون أن تنتبه أورسولا لكل ذلك. فقد كانت مشغولة بشؤون حيوانات الكاراميلا الكاندي الواعدة الصغيرة وتجارتها.

لقد تبدلت ماكوندو. فاكتشف القوم الذين جاؤوا مع أورسولا خصوبة أرضها وطيب موقعها الممتاز بالنسبة للماريجو، وانقلبت القرية الصغيرة الجرداء سريعاً إلى بلدة نشطة تعج بالمخازن والمعامل والمشاغل اليدوية، وصارت محطة على طريق تجارية لا تنقطع، منها جاء العرب

الاوائل الذين كانوا ينتعلون الأخفاف، ويرتدون السراويل الفضفاضة. ويعلقون الأقراط في آذانهم، ويقايضون الببغاوات بأطواق من الخرز الزجاجي. ولم يذق خوزيه أركاديو بوينديا طعم الراحة. فقد سحرته الحقائق الجديدة المباشرة، وتبدّى له أنها أروع من عالم خياله الواسع. وزال اهتمامه بمخبر الكيمياء، وأهمل المادة التي أجهدته، خلال شهور، بالتجارب المتتابعة، وعاد إلى حياته السابقة، عندما كان رجل المشروعات والخدمات العامة، عندما كان يخطط الشوارع واتجاهات البيوت في القرية، فلا يفيد بيت منها، أكثر من سواه، من امتيازات الموقع. وتوطدت له السلطة بين القادمين الجدد، فلم ينشأ بناء أو سياج إلاّ أخذ فيه رأيه. وتمّ الاتفاق بين السكان على أن يكون هو المسؤول عن توزيع الأراضي. ولمّا عاد الغجر المشعوذون، بسوقهم المتنقلة التي أصبحت مؤسسة كبيرة للألعاب، استقبلهم أهل القرية فرحين، ظانين أن خوزيه أركاديو قد عاد معهم. ولكن خوزيه أركاديو لم يكن بينهم، ولا كان بينهم الرجل الأفعى، الذي كان وحده، حسب رأي أورسولا، عارفاً بأخبار ابنها. ولذلك لم يسمح لهم بالإقامة في البلدة، ومنعوا من العودة إليها في المستقبل. فقد اعتبرهم أهل البلدة سفراء دعارة وفساد. ولكن خوزيه أركاديو بوينديا أعلن صراحة أن قبيلة ملكيادس القديمة، الرجل الذي ساهم كثيراً في تفتيح القرية وتحضيرها وتحديثها، بحكمته العريقة واختراعاته الخارقة، سوف تجد دائماً أبواب البلدة مشرعة لها. ولكن الرحّالة رووا أن قبيلة ملكيادس قد زالت عن وجه الأرض، لأنها تجاوزت حدود المعرفة الإنسانية.

وعندما تحرّر خوزيه أركاديو بوينديا، ولو إلى حين، من عذابات خياله الجموح، استطاع، خلال وقت قصير، أن يقيم نظاماً من الانضباط والعمل، ولم يسمح إلاّ بإجازة بسيطة واحدة سمح لنفسه بها، وهي

إطلاق الطيور، التي كانت منذ تأسيس ماكوندو توقظ القرية على أصوات صداحها الرائعة. فقد بدّل بها ساعات موسيقية حلّت محلها في كل بيت. وكانت ساعات جميلة من الخشب المحفور قايض العرب بها ببغاوات، وضبطها خوزيه أركاديو بوينديا بدقة، فباتت القرية كلها تمرح كل نصف ساعة بنغم لحن واحد، يتصاعد مع الوقت حتى يصل أوجه عند الظهيرة، دقيقاً في القرية كلها، حتى لكأنه جوقة كاملة. خوزيه أركاديو بوينديا هو الذي قرّر في تلك الفترة أيضاً أن تزرع أشجار اللوز في شوارع القرية بدلاً من أشجار الأكاسيا. وهو الذي اكتشف، دون أن يعلن، الطريقة التي تجعل تلك الأشجار خالدة. وبعد زمن طويل، وبعد أن حالت ماكوندو إلى بيوت بسيطة مصنوعة من الخشب والتوتيا، كانت أشجار اللوز ما تزال تعيش على جوانب الطرق القديمة فيها، ولو أنها صارت عجفاء يعلوها الغبار بشكل شبه دائم، ولكن أحداً ما كان ليدري من كان الذي زرعها. وفي الوقت الذي كان الأب فيه ينظم القرية، وكانت الأم تعمل على زيادة ثروة العائلة بعملها الرائع، كصناعة الحلوى على هيئة ديكة وأسماك، تصدرها من الدار مرتين في الأسبوع، مدلاّة من على قصيبات من خشب الكابوك، في هذا الوقت كان أوريليانو يمضي الساعات الطوال في المخبر المهمل يتمرس فيه على فن صياغة الفضة بتجاربه الخاصة. ونما جسمه نمواً سريعاً، حتى صارت ثياب أخيه الأكبر، التي خلفها عند رحيله، صغيرة لا تناسبه، فبدأ يرتدي ثياب أبيه. ولكن فيزيتا سيون جعلت تعالج القمصان والبناطيل ثنياً وتقصيراً، لأن لأوريليانو سمنة الآخرين من أهله. وأدرك مرحلة المراهقة، فاختفت نعومة صوته، وانكفأ على ذاته فبات صامتاً مغرقاً في الوحدة. ولكنه في الوقت ذاته، من جهة أخرى، راجع عينيه البريق الذي كان لهما عند ولادته. وانصرف كلياً إلى تجاربه في الصياغة، فما كان يبرح المخبر إلاّ

لتناول الطعام. أما خوزيه أركاديو بوينديا، وقد لاحظ سلوك ولده، فأعطاه مفاتيح الدار وبعض المال، ظناً منه أنه بحاجة إلى امرأة. ولكن أوريليانو صرف المال في شراء حامض الكلوريدريك ليصنع به ماء الذهب، ثم جمّل المفاتيح بطليها به، وما كانت تصرفاته الغريبة لتشبه، بأي شكل من الأشكال، تصرفات أركاديو وأمارانتا اللذين كانا قد بدآ تبديل أسنانهما، وكانا يقضيان اليوم بطوله متشبثين بمعطفي الهنديين ويصران على الكلام بلغة الجواجيرو دون الإسبانية. وقد دأبت أورسولا على القول لزوجها:

ـ «ينبغي ألاّ تشكو من هذا الأمر. فالأطفال يرثون جنون والديهم».

وبينما كانت تمعن في الشكوى من سوء حظها، معتقدة بأنّ هوس أبنائها لم يكن أقل إثارة للخوف من ذنب الخنزير، رمقها أوريليانو بنظرة حيّرتها وتركتها في شك مقيم، ثم قال لها:

ـ «هناك من هو قادم إلينا».

وحاولت أورسولا أن تثنيه بمنطق سيدة البيت، كما كانت تفعل كلما أعلن إحدى نبوءاته. فقد كان من الطبيعي أن يصل أحد ما. فماكوندو كانت تستقبل، كل يوم، عشرات الغرباء، دون أن يثير وصولهم شكاً أو فضولاً أو أية أفكار سرية. ولكن أوريليانو، خلافاً لكل المنطق، كان يبدو واثقاً من نبوءته. فألحّ بالقول:

ـ «لا أدري من هو القادم، ولكنني أعلم أنه الآن في طريقه إلينا».

وفي يوم الأحد التالي وصلت روبيكا فعلاً. لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها. كانت رحلتها شاقة من مانور، وقد وصلت مع تجار فراء كلفوا اصطحابها، مع رسالة، إلى بيت خوزيه أركاديو بوينديا. ولكنهم لم يستطيعوا أن يبينوا له تماماً من كان الذي طلب إليهم القيام بهذه الخدمة. ولم يكن معها من المتاع سوى محفظة ثياب صغيرة، وكرسيّ

هزّاز نقشت عليها باليد أزهار صغيرة ملوّنة، وكيس مصنوع من القنّب (أو الكانغا) الذي يقرقع بصورة دائمة: كلوك ـ كلوك ـ كلوك، وكانت تحمل فيه عظام أبويها.

كانت الرسالة الموجهة إلى خوزيه أركاديو بوينديا مصوغة بلغة محببة وعبارات دافئة، من شخص ما زال يحبه على الرغم من مضيّ الزمان وبعد المكان، ورأى من واجبه، نزولاً عند أبسط العوامل الإنسانية، أن يرسل إليه، من باب الرأفة والشفقة، طفلة يتيمة فقيرة لا مأوى لها ولا معيل، وهي ابنة عمّ لأورسولا من الدرجة الثانية، وبالتالي فهي من أقارب خوزيه أركاديو بوينديا، وإن تكن قرباها منه أبعد، غير أنها كانت ابنة الصديق الذي لا ينسى: نيكانور أولوا، وزوجته الجزيلة الاحترام روبيكا مونتييل، تغمدهما الله بواسع رحمته. وكانت الفتاة تحمل رفاتهما لعلهما يمنحان قبراً مسيحياً.

كانت الأسماء المذكورة في الرسالة واضحة، وكذلك كان التوقيع. ولكن خوزيه أركاديو بوينديا وأورسولا لم يذكرا قط أنّ لهما أقارب بتلك الأسماء، كما لم يذكرا اسم المرسل ولا مدينة مانور النائية. ولم يكن ممكناً الحصول على مزيد من المعلومات من البنت الصغيرة. فمنذ وصولها وهي جالسة في كرسيها الهزّاز، تمصّ أصابعها وترقب كل من حولها بعينيها الواسعتين الذاهلتين، دون أن يبدو عليها أنها تفهم كلمة مما تسأل عنه. كانت ترتدي ثوباً عرضانيّ التخطيط مصبوغاً باللون الأسود، رثّاً مهترئاً من كثرة الاستعمال، وتلبس حذاء طويلاً كان يلمع قبل أن يتقشّر. وكان شعرها معقوصاً وراء أذنيها وقد ربط به وتدلّى منه شريط أسود. وكانت ترتدي صدرية عليها رسوم اهترأت من كثرة العرق، وفي رسغها الأيمن ناب حيوان لاحم مثبت على أرضية من نحاس أحمر، هو عبارة عن تعويذة ضد الحسد. وكانت بشرتها المزرقّة، وبطنها المنتفخ

المستدير والمشدود كطبل يدلاّن على صحتها السيئة وجوعها الشديد، فتبدو أكبر من عمرها. ولكنهم عندما ناولوها بعض الطعام، وضعت الطبق على ركبتيها دون أن تمسه. حتى ظنوا أنها صمّاء خرساء، إلى أن سألها الهنديان بلغتهما ما إذا كانت تريد ماء. عندها تحركت عيناها، كأنها عرفتهما، وأشارت برأسها موافقة.

وهكذا أبقوها عندهم لأنهم لم يجدوا مخرجاً آخر. وقرروا أن يسموها ريبيكا، وهو اسم أمها كما جاء في الرسالة، لأن أوريليانو أوتي الصبر على أن يذكر لها أسماء كل القديسين دون أن يبدو منها أي ردّ فعل تجاه اسم أي منهم. ونظراً لعدم وجود مقبرة في ماكوندو، في ذلك الوقت، لأنّ أحداً لم يمت فيها بعد، احتفظوا بكيس العظام ريثما يجدون مكاناً مناسباً لدفنها. وهكذا ظل كيس عظام أهل ريبيكا يضايق أهل البيت، مدة طويلة من الزمن، وهم ينقلونه من مكان إلى آخر بقرقعته التي تشبه قوقأة دجاجة بيّاضة.

وقد مضى وقت طويل قبل أن تندمج ريبيكا في حياة الأسرة. كانت تظل جالسة في كرسيها المتحرك، تمص إصبعها، في أقصى زاوية من البيت. وما كان يشد اهتمامها غير موسيقى الساعات، فكانت تبحث عنها بعينيها الذاهلتين، كل نصف ساعة، كأنها تنتظر أن تراها في مكان ما من الأفق. وكثيراً ما كان أهل البيت جميعاً يخفقون في جعلها تتناول شيئاً من الطعام. ولم يستطع أحد أن يدرك كيف بقيت الطفلة على قيد الحياة، بعد ذلك الجوع الشديد الطويل، إلى أن اكتشف الهنديان، اللذان لم يكن يغيب عنهما شيء، لأنهما كانا يسيران في البيت، دون انقطاع، بخطاهما الرشيقة، غير الملحوظة، أن ريبيكا كانت تحب أن تأكل من تراب الدار الرطب ومن رقائق الكلس التي كانت تنتزعها عن الجدران بأظافرها. وقد بدا واضحاً أن أهلها، أو من ربّوها، كانوا يوبخونها

بسبب عادتها الضارّة تلك، لأنها كانت تفعل ذلك في الخفاء، وبشعور من الذنب، وتحاول تخزين ما يتجمّع لها من تلك المواد كي تستطيع التهامها بعيداً عن أعين الجميع. ومنذ ذلك الحين وضعت تحت المراقبة الشديدة، ورُشَّت الأرض بمرارة البقر، وطليت الجدران بمرق الفلفل، ظنّاً من أهل البيت أن تلك الوسائل ستقضي على علتها المؤذية. ولكن ريبيكا أظهرت مهارة وذكاءً في إيجاد التراب المطلوب، حتى أكرهت أورسولا على استعمال وسائط أقوى وأشد. فأخذت تضع عصير البرتقال والراوند في قدر، تتركها تحت الندى طوال الليل، ثم تسقيها الجرعة في اليوم التالي قبل الطعام. وعلى الرغم من أن أحداً لم يخبر أورسولا أن ذلك الدواء كان مفيداً في شفاء أكلة التراب من علتهم، فقد كانت تظن أن أية مادة مرة لا بد أن تحرك الكبد متى تلقتها المعدة فارغة. وكانت ريبيكا، على هزالها، ثائرة قوية، فلا تبتلع الدواء إلاّ إذا ألقوها أرضاً وأوثقوها، وكأنها عجل صغير قويّ. وما كانوا يستطيعون السيطرة على رفساتها إلاّ بصعوبة كبيرة، مع ما يحتملونه، فوق ذلك، مما تجأر به من صراخ وكلام بين العضّ حيناً والبصق حيناً آخر. وقد أثارت شتائمها الهنديين اللذين زعما أنها أقذع الشتائم وأدنأ البذاءات التي تحويها لغتهما. وعندما علمت أورسولا بذلك، أضافت إلى علاجها الضرب بالسوط. ولم يستطع أحد أن يعرف، من بعد، سبب تماثل ريبيكا للشفاء بعد أسابيع قليلة. فهل كان الراوند أو الضرب أم كليهما معاً. ولكنّ الواقع أنها برئت فعلاً، بعد بضعة أسابيع، من تلك العادة الذميمة . ثم بدأت تشارك في اللعب مع أركاديو وأمارانتا، اللذين أخذا يعاملانها على أنها أختهما الكبرى. ثم جعلت تأكل بشهية وتستعمل الأطباق بطريقة لائقة. ثم اكتشف أنها تتكلم الإسبانية بالطلاقة التي تتكلم بها اللغة الهندية، وأنها كانت شديدة حذق اليدين، وأنها كانت

تغني مصاحبة أنغام الساعات، بكلمات جميلة من ابتكارها. وبعدئذ بات أفراد الأسرة جميعاً يعدونها واحدة من أهل البيت. وأظهرت روبيكا من الحب والود لأورسولا ما لم يظهره لها أحد من أولادها. وكانت تدعو أمارانتا بالأخت الصغيرة، وأركاديو بالأخ الصغير، وتنادي أورليانو بالعم، وخوزيه أركاديو بوينديا بالجد. وانتهى بها الأمر أن استحقت، كالآخرين، اسم روبيكا بوينديا، بعد أن كانت بلا اسم، وظلت أهلاً لذلك الاسم طوال حياتها.

وفي إحدى الليالي، بعد أن شفيت روبيكا تقريباً من علة أكل التراب وآلت إلى مشاركة الطفلين غرفتهما، استيقظت الهندية من نومها على صوت جيئة وذهاب في الزاوية. فقعدت مذعورة، وقد ظنت أنّ حيواناً ما قد دخل الغرفة. وإذا بها ترى روبيكا في مقعدها المتحرك، وقد جلست تمص إصبعها، وعيناها تبرقان كعيني هر في الظلام. وأدركت فيزيتا سيون، وقد صعقها الرعب وحطمها القدر الذي يلاحقها، في تينك العينين، أعراض الداء الذي أكرهها وأخاها على الاختيار الطوعي لنفي نفسهما، إلى الأبد، من مملكة قديمة قدم الدهر، حيث كانا أميراً وأميرة. لقد كان ذلك طاعون الأرق.

وعند الصباح، كان الهنديّ كاتور قد غادر البيت. وبقيت أخته، لأن قلبها المؤمن بالقدر أعلمها أنّ الداء المميت سوف يلاحقها حتى آخر منعرجات الأرض. ولم يدرك أحد قلق فيزيتا سيون وذعرها. فخوزيه أركاديو بوينديا كان يقول :

«إذا لم ننم كان أفضل لنا. فعندها نستطيع أن نجني أكثر من الحياة». ولكن الهندية أوضحت له أنّ ما يخشى من مرض الأرق ليس استحالة النوم لأن الجسد لا يحس بأي تعب، وإنما تطوره إلى ما هو أخطر : فقدان الذاكرة. كانت تعني أن المريض، بالقدر الذي يتعوّد فيه حالة السهر،

تمّحي من دماغه ذكريات الطفولة، فأسماء الأشياء والمفاهيم، ثم هويات الأشخاص. وبعد ذلك يتلاشى إحساس الإنسان المريض بوجوده، حتى يصل حالة البله، فيصبح بلا ماض. وانفجر خوزيه أركاديو بوينديا ضاحكاً، ظاناً أن ما تصفه الهندية ليس سوى مرض من الأمراض التي تصفها خرافات الهنود. ولكن أورسولا، من باب الأمان، اتخذت خطوة وقائية، فعزلت روبيكا عن الطفلين.

وبعد بضعة أسابيع بدت مخاوف فيزيتا سيون قد تلاشت. ولكن خوزيه أركاديو بوينديا قضى ليلة بطولها يتقلّب في فراشه يمنة ويسرة دون أن يستطيع نوماً. وسألته أورسولا عمّا به، وكانت، هي الأخرى، مستيقظة، فأجاب : «عدت إلى التفكير بشأن برونسيو إجويلار». ولم يطبق لهما جفن دقيقة واحدة في تلك الليلة. ولكنهما في اليوم التالي شعرا بالقوة والنشاط، حتى نسيا كل ما يتصل بتلك الليلة التعيسة. وقد علّق أورليانو بشيء من الدهشة، وقت الغداء، بأنه يجد نفسه على أحسن حال مع أنه أمضى ليلته بكاملها في المختبر يُذهّب حليةً ينوي أن يقدمها لأورسولا في عيد ميلادها. ولم يفطن أحد للأمر إلاّ في اليوم الثالث، وقد لاحظوا أنهم لا يرغبون في النوم لدى حلول وقته، ثم تبينوا أنهم قضوا خمسين ساعة دون نوم.

وعلّقت الهندية، القدرية المعتقد، قائلة : «والأطفال يقظون أيضاً. فعندما يدخل المرض بيتاً لا يسلم منه أحد».

لقد أصيبوا فعلاً بمرض الأرق. وكانت أورسولا قد تعلمت من أمها خصائص النباتات الطبية، فأعدّت شراب الأكونيت، وسقتهم منه جميعاً، ولكنهم لم يستطيعوا النوم، وقضوا نهارهم يحلمون أيقاظاً. وأخذوا يرون، في حالتهم تلك من الهلوسة ووضوح الرؤية الرهيب، الصور التي تشكّل أحلامهم، ثم أخذ كل منهم يرى صور أحلام

الآخرين. وبدا كأن البيت امتلأ بالزائرين. وقد حلمت روبيكا، وهي قابعة في إحدى زوايا المطبخ على مقعدها المتحرك، برجل يشبهها كثيراً، يرتدي لباساً أبيض، في ياقة قميصه زرّ من ذهب، وقد جاء يحمل لها باقة ورد. وكانت ترافقه امرأة لها يدان رقيقتان، سحبت وردة من الباقة وعلقتها في شعر روبيكا. وأدركت أورسولا أن الرجل والمرأة لم يكونا سوى أهل روبيكا. وقد بذلت جهداً كي تتعرف إليهما، ولكن روبيكا أكدت لها يقيناً أنها لم ترهما قط من قبل.

وقد ارتكب خوزيه أركاديو بوينديا خطأً لم يغفره لنفسه من بعد. فقد ظلت حلويات الكراميلا، المصنوعة على هيئة الحيوانات، تباع في القرية. وظل أهل القرية، كباراً وصغاراً، يمصون، فرحين، طيبات ديوك الأرق الخضراء، وسمكات الأرق الوردية الفاخرة، وخيول الأرق الصغيرة الطرية الصفراء، حتى أن فجر يوم الإثنين قد طلع على القرية وأهلها جميعاً يقظون. ولم يكترث في البدء أحد لما يحدث، بل إنهم فرحوا بأنهم لم يناموا لأن العمل كان كثيراً في ماكوندو، وكان النهار يبدو قصيراً. وقد بذلوا جهوداً كبيرة حتى باتوا بلا عمل، وقد أدركوا الساعة الثالثة صباحاً، وقد جلسوا وأيديهم متصالبة على صدورهم يعدون أنغام دقات الساعات. أما الذين أحبوا منهم أن يناموا، لا عن تعب، بل لكي يحلموا من جديد. فقد لجؤوا إلى مختلف الأساليب المجهدة، ثم اجتمعوا كي يتحدثوا دون انقطاع. فاستعادوا، على مدى ساعات طوال، النكات والطرف المعروفة المألوفة نفسها. ثم راحوا يروون، حتى درجة التعب والسأم، قصة الديك المسمّى. وهي لعبة أو قصة لا نهاية لها. يسأل الراوي فيها السامعين ما إذا كانوا يريدون أن يقصّ عليهم قصة الديك المسمّى. فإذا قالوا: نعم، أجاب بأنه لم يسألهم كي يقولوا نعم، بل ما إذا كانوا يريدون أن يروي لهم قصة الديك المسمّى. وإذا صمتوا جميعاً،

قال الراوي إنه لم يطلب من أحد أن يصمت، بل ما إذا كانوا يريدون أن يقص عليهم قصة الديك المسمّى. ولم يكن أحد منهم يستطيع الذهاب إلى أي مكان، لأن الراوي كان يخاطبهم قائلاً إنه لم يطلب من أحد منهم الذهاب، بل ما إذا كانوا يريدون أن يروي قصة الديك المسمّى. وهكذا، دواليك، في كل حالة ولدى كل جواب وعند أي سلوك، وفي حلقة مفرغة يمكن أن تستمر ليالي بطولها.

وعندما أيقن خوزيه أركاديو بوينديا أن طاعون الأرق قد اجتاح البلدة: جمع رؤساء العائلات ليشرح لهم ما كان يعرفه عن مرض الأرق. فاتفقوا على اتباع طرق معينة، واتخاذ الاحتياطات اللازمة، للحؤول دون انتشار الوباء إلى قرى منطقة المستنقع الأخرى. ومن ذلك، مثلاً، أنهم انتزعوا الأجراس والنواقيس، التي بادل بها العرب الببغاوات، من أعناق الماعز، ووضعوها في مدخل القرية، في تصرف الذين لا يقبلون تحذير الحراس ولا يصيخون إلى تعليماتهم وتنبيهاتهم، ويصرون على الدخول إلى البلدة. فكان كل غريب يتجول، آنذاك، في طرقات ماكوندو، يحمل جرساً يرنّ به، كي يعلم أهل البلدة المرضى أنه سليم من المرض. وما كان يسمح للغرباء بأن يأكلوا أو أن يشربوا خلال إقامتهم في ماكوندو، فقد ثبت أن ذلك المرض ينتقل عن طريق الفم وحسب، وأن الطعام والشراب أصبحا موبوءين بعدوى الأرق. وهكذا أمكن حصر الوباء في البلدة ومحيطها. وقد تمّ اتباع الحجْر الصحي وروعيت حالة الحصار هذه بدقة، حتى صارت هذه الحال هي الحال الطبيعية للبلدة والناس فيها. وسارت الأمور بطريقة طبيعية، استؤنف فيها العمل دون أن يهتم أحد بعادة النوم التي لا نفع فيها.

وكان أوريليانو هو الذي استوعب المعادلة التي مكّنت الناس من الحفاظ على أنفسهم، خلال بضعة أشهر، من فقدان الذاكرة. وقد

اكتشف تلك المعادلة بالمصادفة. فقد خبر الأرق مبكراً، إذ انه كان من أوائل الذين أصيبوا به، وبذلك تعلّم، يومئذ، من التعلّم لإتقان فنّ صياغة الفضة. فذات يوم، نسي اسم السندان الصغير الذي يستخدمه في تطريق المعادن، بينما كان يبحث عنه. ولم يستطع تذكر اسمه. فأخبره أبوه باسمه : «سندان». فكتب أوريليانو الاسم على قطعة ورق لصقها على قاعدة السندان الصغير : «سندان». وهكذا، أيقن أنه بهذه الطريقة لن ينساه مستقبلاً. ولم يخطر له أن هذا كان أول أعراض فقدان الذاكرة، لأنه كان للشيء اسم يصعب تذكره. ولكنه تبيّن، بعد بضعة أيام، أنه يجد صعوبة في تذكر معظم أدوات المختبر. ولذلك وضع على كل أداة اسمها، فما كان عليه إلاّ أن يقرأ الاسم لكي يتعرف إلى الأداة.

وعندما أبدى الأب لابنه تخوفه لأنه نسي أهمّ أحداث طفولته، شرح له أوريليانو طريقته التي طبقها خوزيه أركاديو بوينديا في البيت كله ثم نشرها في البلدة كلها. فسجّل على كل شيء اسمه بفرشاة مغموسة بالحبر : طاولة، كرسي، ساعة، باب، حائط، سرير، مقلاة. ثم عمّم الطريقة نفسها على الحظيرة، فسجّل الحيوان والنبات : بقرة، عنزة، خنزير، دجاجة، شجرة مانيوك، مانغا، موز. وبعد أن راح يسبر أغوار احتمالات النسيان وفقدان الذاكرة شيئاً فشيئاً، أيقن أنه قد يأتي يوم يتعرّف فيه الإنسان على الأشياء من أسمائها الملصقة بها، دون أن يتذكر شيئاً من فوائدها أو خصائصها. ولذلك جعل يزيد في الشرح، فعلّق على غارب البقرة لافتة ، أرادها مثلاً يحتذي به أهل ماكوندو في كفاحهم ضد فقدان الذاكرة :

«هذه هي البقرة، يجب حلبها كل صباح لكي تعطي الحليب. والحليب يجب أن يغلى كي يخلط بالقهوة، فنحصل على قهوة بالحليب».

وهكذا ظلوا يعيشون في حياة الحقيقة الهاربة، يحاولون الإمساك بها، إلى أجل، فيأسرونها بالكلمات. ولكنها ما تلبث أن تفلت منهم فارّة بلا عودة عندما ينسون معاني الكلمات وقيمة الكتابة.

عند أول الطريق المؤدي إلى منطقة المستنقعات، وضعت لافتة باسم ماكوندو، ولافتة أخرى أكبر من الأولى في الشارع الرئيس كتب عليها : الله موجود. وكتبت في كل بيت، دون استثناء، أدلّة تذكّر بما ينبغي أن يثبت في الذاكرة من أشياء ومشاعر. غير أن مثل هذا النظام كان يتطلب حزماً شديداً وقوة طبع، حتى إن عدداً كبيراً من الناس بدأ يستسلم لسحر الخيال. وراح هؤلاء يغذون هذه الحياة الخيالية في أنفسهم، على الرغم من بعدها عن الواقع، لأنها مريحة. وكانت بيلار تيريزا أكثر من ساهم في الدعوة لهذه الخدعة، عندما خطرت لها فكرة ذكية، مؤداها أن تقرأ الماضي في أوراق اللعب، كما كانت، من قبل، تقرأ المستقبل. وبهذه الطريقة، أخذ الناس الذين لا ينامون يعيشون في عالم ورق اللعب الحافل بالمفاجآت والمصادفات، التي تتوحّد فيها، شئنا أم أبينا، ذكرى الأب الخافتة بذكرى ذلك الرجل الأسمر الذي وصل في أول نيسان (أبريل)، وتبدو صورة الأم، تلك المرأة السمراء التي تحمل في يدها اليسرى خاتماً ذهبياً، وحيث يعود تاريخ ولادة ما إلى آخر ثلاثاء سمع فيها غناء قبرة على شجرة الغار. وشعر خوزيه أركاديو بوينديا بالهزيمة واليأس أمام تلك الممارسات التي كانت تهدىء وتواسي ولكنها لا تعالج، فقرّر أن يبني آلة الذاكرة، التي طالما سبق له أن تمنّاها كي يتذكر اختراعات الغجر العظيمة كلها. وكان الأساس الذي تقوم عليه هو مراجعة كل المعلومات التي يكتسبها الإنسان عبر حياته في صباح كل يوم. وقد تصوّرها على هيئة قاموس محوري، أي ذي حركة دائرية، يستطيع المرء القائم على محورها أن يحركها بوساطة مقبض أو رافعة، فتمرّ أمام عينيه، في بضع ساعات،

الأفكار والمبادىء الضرورية جداً له في الحياة. ولقد تمكن من كتابة ما يقرب من أربعة عشر ألف مُدّخل أو جزء، عندما ظهر على طريق منطقة المستنقعات رجل عجوز، غريب الشكل يحمل جرس النائمين الحزين وحقيبة ضخمة مربوطة بحبل، ويجر عربة عليها غطاء أسود. واتجه الرجل رأساً إلى دار خوزيه أركاديو بوينديا.

لم تعرفه فيزيتا سيون حين فتحت له الباب. فقد ظنت أنه يريد أن يبيع شيئاً، وهو لا يعلم أنه لا يمكن بيع شيء في بلدة تغوص في فيافي النسيان دونما رجاء في الشفاء. وعلى الرغم من صوته المتهدج الذي حطمه الشك وعدم اليقين، ومن يديه اللتين تشكان في وجود الأشياء، كان واضحاً عليه أنه قد جاء من العالم الذي ما زال فيه البشر يستطيعون أن يناموا وأن يتذكروا.

جاء خوزيه أركاديو بوينديا، فوجده جالساً في غرفة الجلوس، يحرّك أمامه، لجلب الهواء، قبّعة سوداء مرقّعة، بينما يقرأ باهتمام اللافتات المثبتة على الجدران. حيّاه بمودّة وعاطفة وحرارة، خاشياً أن يكون قد عرفه في زمان مضى ولكنه لا يستطيع تذكره الآن. ولكن الزائر كان على بيّنة من أنّ ذلك ادّعاء باطل. فقد شعر بأنه قد بات منسياً، وما كان ذلك من نسيان القلب الذي يمكن إصلاحه، وإنما هو نسيان من نوع آخر أدهى وأقسى، لأنه لا شفاء منه. وهو يعرف جيداً أنه نسيان الموت. لقد أدرك الموقف. وعندها فتح حقيبته المكتظة بالأشياء السريّة، وأخرج منها علبة صغيرة ملأى بالقوارير الصغيرة. فأعطى خوزيه أركاديو بوينديا شراباً لطيف اللون، فعاد النور إلى ذاكرته فوراً، واغرورقت عيناه بالدموع حتى قبل أن يلاحظ موقفه ويكتشف عبث المكان الذي هو فيه، حيث عُلّقت على الأشياء أسماؤها، وقبل أن يشعر بالخجل من تلك التفاهات المكتوبة على الجدران، وقبل أن يتعرّف شخصية الزائر الجديد في أوج دهشته وفي

إشراقة لا توصف من الدهشة والغبطة. لقد كان ذلك القادم الجديد هو ملكيادس نفسه.

وبينما كانت ماكوندو تحتفل باستعادة ذاكرتها، كان خوزيه أركاديو بوينديا وملكيادس ينفضان غبار الزمن عن صداقتهما القديمة. ولقد جاء ذلك الغجريّ إلى البلدة بنيّة البقاء فيها. فلقد مرّ فعلاً بخبرة الموت، ومضى إلى ديار الموتى، ولكنه عاد منها لأنه لم يقوَ على احتمال الوحدة. ولمّا كان قد نفي ونُبذ من قبل قبيلته، بعد أن فقد كل قدراته الخارقة بسبب وفائه للحياة، فقد قرّر أن يلوذ بتلك الزاوية من العالم التي لم يكتشفها الموت بعد، كي يكرّس نفسه للعمل في مخبر للتصوير. ولم يكن خوزيه أركاديو بوينديا قد سمع بمثل هذا الاختراع من قبل. ولكنه، عندما رأى نفسه وقد ثبت وعائلته إلى الأبد على صفيحة معدنية برّاقة، استولت عليه الدهشة ولم ينبس ببنت شفة. ويرجع إلى ذلك التاريخ عهد الصورة المعدنية المؤكدة التي يُرى فيها خوزيه أركاديو بوينديا، بشعره الرماديّ الكثّ. وياقته المقفلة على أعلى عنقه بزرٍّ نحاسيّ، وهيئته الوقورة الكئيبة الصارمة، كأنه، على ما وصفته به أورسولا وهي تكاد تموت ضحكاً، جنرال خائف. والحقّ أن خوزيه أركاديو بوينديا كان خائفاً في ذلك الصباح الصافي الهادىء من شهر كانون الأول (ديسمبر)، الذي التقطت فيه الصورة، لأنه كان يظن أن الناس يزولون شيئاً فشيئاً بينما تبقى صورته منقوشة على اللوحة المعدنية. والغريب أن أورسولا هي التي انتزعت من رأسه هذه الفكرة، وهي التي قررت أيضاً، بعدما نسيت مرارتها وضغائنها القديمة، أن يعيش ملكيادس معهم في البيت. ولكنها لم تسمح لهم قط بتصويرها، لأنها (كما قالت بنفسها حرفيا) لا تريد أن تظل إلى الأبد أضحوكة لأحفادها. في ذلك الصباح، ألبست الأولاد أفضل ثيابهم، وجمّلت وجوههم بالمساحيق، وناولت كلاً منهم ملعقة

من شراب خلاصة النخاع، كي يبقوا جامدين، بلا حراك، خلال قرابة دقيقتين أمام آلة تصوير ملكيادس الرائعة. .

كان أوضح ما في تلك الصورة العائلية أوريليانو، بثوبه المخمليّ الأسود، وهو بين أمارانتا وريبيكا. وكانت تبدو على وجهه إمارات التعب نفسها، وفي عينيه تلك النظرة الثاقبة ذاتها، التي سوف تبدو عليه بعد سنين طويلة، وهو يقف في مواجهة فرقة الإعدام. ولكنه، عندئذ، لم يكن يدري شيئاً عن القدر الذي كان ينتظره. فلم يكن سوى صائغ فضة خبير، تقدّر منطقة المستنقعات كلها ذوقه الرفيع وروعة عمله في تلك الصناعة.

لم يكن يسمع له صوت نفس في المشغل، الذي كان يضم معه مخبر ملكيادس الغريب. وكان يبدو كأنه ينتمي إلى زمن آخر غير زمنه، بينما كان أبوه والرجل الغجري يفسران، في ضجة وصياح، نبوءات نوستراداموس، بين قرقعة الدوارق والأنابيب والمكثفات والصواني، ومشكلات اندلاق الأحماض وضياع بروميد الفضة نتيجة اللكزات والعراك في كل ثانية. وقد استطاع أوريليانو، بسبب تكريس نفسه لعمله، وبذكائه ونباهته في تركيز اهتمامه وإدارة مصلحته، أن يجمع من الثروة، في وقت قصير، ما يفوق ما جمعته أورسولا من حلويات الكاراميلا المشكلة على هيئة حيوانات صغيرة، ولكن الناس جميعاً كانوا يستغربون منه أن يبلغ مبلغ الرجال تماماً دون أن يعرف عنه أنه عاشر امرأة. والحقّ أنه لم يعاشر قط أمرأة بعد.

وبعد بضعة أشهر، عاد فرانسيسكو، ذلك الرجل الشريد القديم، الذي كاد يبلغ من العمر مئتي عام، قضاها وهو يجوب العالم، وكثيراً ما مرّ ببلدة ماكوندو، يغني ويوزّع أغاني وألحاناً من تأليفه. وكان فرانسيسكو يروي بأغانيه تلك تفاصيل الأحداث التي كانت تجري في

القرى الواقعة على طريق رحلاته من مانور حتى أقصى أطراف منطقة المستنقعات. حتى كان من يريد إرسال رسالة ما، أو نشر حدث من الأحداث، يدفع له سِنْتين، كي يضيف ذلك إلى تقريره الغنائي. وبهذه الطريقة علمت أورسولا بموت أمها، ببساطة لمجرّد أنها كانت تستمع، ذات ليلة، إلى الأغاني لعلها تعرف شيئاً من أخبار ابنها خوزيه أركاديو. وقد اختفى فرانسيسكو من ماكوندو أيام انتشار طاعون الأرق، اختفى ذلك الرجل الذي دعي بهذا الاسم لأنه غلب الشيطان في مبارزة ارتجال الأغاني. ولم يعرف اسمه الحقيقي. ولكنه عاد فظهر من جديد فجأة في مخزن كاتارينو في البلدة. واجتمع أهل البلدة كافة للاستماع له، لكي يعرفوا ما جرى من أحداث في العالم. وقد جاءت بصحبته، هذه المرة، امرأة بدينة ضخمة الجثة. حتى إن أربعة هنود يحملونها على مقعد هزّاز، وتدرأ عنها الشمس بمظلة واقية، فتاة مراهقة خلاسية حزينة.

في تلك الليلة، ذهب أوريليانو إلى مخزن كاتارينو. فوجد فرانسيسكو الرجل جالساً كتلة واحدة كحرباء، وحوله حلقة من النظارة مستطلعي الأنباء. وكان يغني الأنباء بصوته القديم المتعب النشاز، وهو يعزف على الأوكورديون العتيق نفسه، ذاك الذي أهداه إليه السير والتر رالي في غوايانا، ويضبط الإيقاع بقدميه المشّاءتين الكبيرتين اللتين شقّقهما ملح البارود. وعند باب القاعة الخلفي، الذي يدخل الناس منه ويخرجون، كانت تقعد العجوز، ذات المقعد الهزّاز، صامتة تحرّك مروحتها. وكان كاتارينو، بوردته المخملية خلف أذنه، يبيع الحاضرين صحاف شراب قصب السكّر المخمّر. وكان يتحيّن هذه الفرصة ليقترب من الرجال فيلامس منهم ما لا ينبغي له أن يفعل. وعندما انتصف الليل باتت الحرارة لا تطاق. وقد أصغى أوريليانو إلى الأخبار المغنّاة حتى نهايتها، فما وجد فيها ما يهم أهله. وبينما كان يهم بالعودة إلى البيت،

أشارت العجوز له بيدها، قائلة :

ـ «ادخل أنت أيضاً. فذلك لا يكلفك سوى عشرين سنتاً».

وألقى أوريليانو قطعة نقود في المطمورة التي كانت العجوز تضعها في حضنها، ودخل الغرفة وهو لا يدري سبباً لذلك. كانت الفتاة الخلاسية الصغيرة، بنهديها الشبيهين بضرع كلبة، مستلقية عارية على السرير. وقبل أوريليانو كان قد مرّ ثلاثة وستون رجلاً في تلك الغرفة. كان الهواء مشبعاً بالرذيلة، مترعاً بالعرق، مجبولاً بالتنهدات، تخالطه، نتيجة لكثرة الاستعمال، رائحة الطين والعفن. شدّت الفتاة غطاءَها المبلول فخلعته عنها، وطلبت إلى أوريليانو أن يمسك به من الطرف الآخر. كان ثقيلاً كقطعة من نسيج الكانافا. عصراه وهما يفتلانه من طرفيه حتى عاد إلى وزنه الطبيعي. وقلبا الفراش، وهو حصيرة من تبن وقش، فتحوّل العرق إلى الجهة الأخرى يخرج منها. وكان أوريليانو يرجو ألاّ تنتهي هذه العملية. فقد كان يعرف مبادىء آلية الحب نظرياً، ولكنه لم يستطع الوقوف على قدميه، فقد خار فخذاه تحته لضعف ركبتيه. واقشعرّ بدنه، وبات لا يستطيع مقاومة الاضطراب في أمعائه، وإلحاح شيء ما على الخروج منها، على الرغم من الحريق الذي كان يشتعل في جلده كأنما هو نوع من الوخز. وعندما انتهت الفتاة من إعداد السرير وطلبت إليه أن يخلع ثيابه، قدم لها شرحاً مشوّشاً مرتبكاً، فأجاب دون أن ينتبه لما يقول :

ـ «أدخلوني إلى هنا، وطلبوا إليّ أن ألقي عشرين سنتاً في المطمورة، وقالوا لي أن أسرع في الخروج. ولا أطيل البقاء».

وأدركت الفتاة حيرته، فقالت له بصوت رائق عذب :

ـ «إذا ألقيت عشرين سنتاً أخرى في المطمورة عند الخروج، يمكنك البقاء فترة أطول».

وخلع أوريليانو ثيابه، يعذبه شعوره بالعار وفكره عن الطهارة، وهو لا يستطيع أن يبعد من عقله فكرة مقارنة عريه بعري أخيه. وأحس، على الرغم مما بذلته الفتاة من جهد، أنه بعيد وأنه وحيد وحيد. وخاطبها قائلاً : «سوف أدفع عشرين سنتاً أخرى». فشكرته وهي صامتة.

كان ظهرها عارياً، وقد التصق جلدها بأضلاعها، يهصر أنفاسها تعب غير محدود. فقبل سنتين من ذلك اليوم، وفي مكان قصيّ عن ذلك المكان، نامت في الليل دون أن تطفىء شمعتها، ثم استفاقت والنار ملتهبة تحيط بها فتأكل كلّ شيء في البيت، حتى استحال ذلك البيت، الذي كانت تسكنه وجدتها التي كفلتها، إلى كومة من رماد. ومنذ ذلك اليوم، أخذتها جدتها، وراحت تنتقل بها من قرية إلى قرية، وتكرهها على مضاجعة الرجال لقاء عشرين سنتاً، عن كل رجل، حتى تسدّد ثمن البيت الذي احترق. وقد بقي للفتاة، طبقاً لحساباتها، عشر سنين تقريباً تضاجع فيها كلّ ليلة سبعين رجلاً، لأنها كانت مضطرة لأن تدفع نفقات السفر والطعام لها ولجدتها، وأن تدفع كذلك أجر أربعة هنود يحملون مقعد الجدة المتحرك.

وعندما قرعت العجوز باب الغرفة، للمرة الثانية، خرج أوريليانو دون أن يكون قد فعل شيئاً، وقد اختبلت عيناه رغبة في البكاء. ولم يغمض له جفن، في ليلته تلك، وهو يفكر بالفتاة الخلاسية، وقد اختلطت لديه الشهوة بالشفقة. كان يحس بحاجة لا تقاوم لحبها وحمايتها. وعند الفجر حزم أمره بهدوء، وقد أنهكه النعاس والحمّى، وقرّر أن يتزوجها لعله ينقذها من ظلم جدتها، فيستمتع بكل ما تمنحه من لذائذ الليل لسبعين رجلاً. ولكنه، عندما وصل في الساعة العاشرة إلى مخزن كاتارينو، كانت الفتاة قد رحلت عن البلدة.

وقد أذبل الزمن قراره المتسرع، ذلك القرار الذي اتخذه من غير تبصّر

أو وعي، ولكنه زاد من إحساسه بالحرمان وخيبة الأمل. فلاذ بالعمل، مصمماً على أن يبقى طوال حياته رجلاً بلا امرأة، لكي يخبيء خجله وعاره من أنه رجل لا ينفع لشيء.

في أثناء تلك الفترة، كان ملكيادس قد فرغ من تسجيل وطباعة كل ما يمكن طباعته من ماكوندو على لوحاته، ثم ترك مختبر التصوير لتصوّرات خوزيه أركاديو بوينديا ونزواته، فقرّر هذا الأخير أن يستعمل المختبر لإقامة الدليل العلمي على وجود الله. وبات على يقين بعد استنتاجاته المتلاحقة المعقدة، التي توصل إليها في أنحاء البيت المختلفة، من أنه، عاجلاً أم آجلاً، سوف يحصل على صورة لله، إذا كان الله موجوداً، وإلاّ فإنه سوف يلغي، مرة وإلى الأبد، فرضية وجوده. وراح ملكيادس يتعمق في تفسيراته لنوستراداموس[1]. فكان يقضي الوقت، حتى الهزيع الأخير من الليل، منزوياً في صدريته المخملية الضيقة الحائلة ألوانها، يكتب بيديه الصغيرتين الشبيهتين بقائمتي عصفور دوريّ، وقد فقدت الخواتم في أصابعه بريقها القديم. وظن في إحدى الليالي أنه توصل إلى نبوءة تتعلق بمستقبل ماكوندو.

وتقول النبوءة إن ماكوندو سوف تغدو مدينة مشرقة باهرة، بيوتها كبيرة من زجاج، ولكن دون أن يبقى فيها أحد من سلالة بوينديا. وصاح خوزيه أركاديو بوينديا هادراً: «هذا خطأ. فلن تكون البيوت من زجاج، بل من جليد، كما رأيت أنا في المنام، وسيبقى فيها دائماً بعض آل بوينديا، حتى آخر الدهر».

كانت أورسولا تكافح كي تحافظ على التوازن والمنطق والحس السليم في ذلك البيت المعتوه المتهور. فوسّعت تجارتها في حلويات الكاراميلا المصنوعة على هيئة حيوانات صغيرة، بوساطة فرن تظل، الليل بطوله، تصدر منه سلاّت وسلاّت من الخبز وأنواع شتّى من الفطير والحلوى

(١) صاحب النبوءات المشهور

ورقائق البسكوت، التي كانت توزع، خلال ساعات قلائل، فتعمّ طرف منطقة المستنقعات الملتوية المتعرجة كلها.

وكانت قد بلغت من العمر ما يجعل من حقها أن ترتاح، ولكنها، بدلاً من ذلك، كانت تزداد نشاطاً يوماً بعد يوم. كان النجاح في تجارتها يملأ عليها حياتها ويستغرق كل وقتها. وفي عصر أحد الأيام، وبينما كانت الفتاة الهندية تساعدها في تحلية العجين بالسكر، حانت منها التفاتة عجلى، دون تركيز أو انتباه، إلى الدار. وإذا بها ترى فتاتين جميلتين لم تميزهما وكانت كل منهما تحوك على نولها على ضوء الأصيل. ولم تكن الفتاتان سوى ريبيكا وأمارانتا، وقد نزعتا عنهما ثياب الحداد على الجدة، التي ارتديتاها أعواماً ثلاثة بتزمّت شديد. وكان يبدو عليهما بزينتهما وملابسهما بألوانها الفاقعة كأنهما مولودتان من جديد. كانت ريبيكا خلافاً لكل توقع، هي الأجمل. كان لونها شفّافاً، وعيناها واسعتين هادئتين، ويداها ساحرتين حتى بدت كأنما تصنع تصميم سداة التطريز بخيوط خفية. أما أمارانتا، وكانت أصغر سناً: فكانت قليلة الجاذبية والرشاقة، لكنّ لها ألقاً طبيعياً وعنفواناً داخلياً ورثتهما عن جدتها المتوفّاة. وكان يجلس قريباً منهما أركاديو الذي بدأ يتخذ شكل نمو أبيه الصارخ من الناحية الجسدية، وإن كان لا يزال طفوليّ المظهر. وقد بدأ يتعلم حرفة صياغة الفضة مع أوريليانو، الذي علمه كذلك القراءة والكتابة.

وأدركت أورسولا، فجأة، أنّ البيت قد امتلأ بالناس، وأن أولادها سوف يصبحون قريباً في سن الزواج، ثم يكون لهم أولاد، ويضطرون للرحيل والانتشار بسبب ضيق المكان. فأخرجت المال الذي جمعته، خلال أعوام الشقاء الطويلة، وحصلت على بعض المساعدات من زبائنها، ثم بدأت تخطط لتوسيع البيت. خصّصت غرفة استقبال للزوّار،

وأخرى أكثر حيوية وبساطة لأهل البيت، وغرفة للطعام تتسع لمائدة عليها اثنا عشر طبقاً تكفي العائلة والضيوف واشتملت خطة البيت على تسع غرف لها نوافذ تطل على فناء الدار، وشرفات واسعة تقيها الحرّ من شمس الظهيرة وورود كبيرة متدلية، ولها حوافّ عليها أوان وأصص زرع فيها بعض السرخس والبيونيا. وأمرت أورسولا بتوسيع المطبخ ليشتمل على فرنين. وبهدم المخزن القديم، الذي قرأت فيه بيلار تيريزا الحظ، بورق اللعب، لخوزيه أركاديو، وبناء مخزن جديد يكبر السابق مرتين، كي لا تنقص مؤونة البيت الاحتياطية. وأنشأت في فناء الدار، في ظل شجرة الكستناء، حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء، وأقامت في طرف الفناء اسطبلاً كبيراً، وزريبة مسيّجة للدواجن، وحظيرة لبقر الحليب، ومأوى للطيور مفتوح السقف مشرع الأبواب، لعلّ الطيور الضالة تأوي إليه على هواها.

وجعلت أورسولا، وكأنّ حمّى زوجها قد أصابتها بدوارها، تخطط وتنظم، يتبعها إثنا عشر من البنائين والنجارين، اتجاه الضوء وانتقال الحرارة، وتوزع المكان من غير أن تكون لديها أية فكرة عن حدوده. وهكذا امتلأ بيت المؤسسين البدائي بالأدوات ومواد البناء والعمال اللاهثين من التعب، والمتصببين عرقاً، وهم يرجون أهل البيت ألا يعرقلوا غدوّهم ورواحهم، دون أن يدركوا أنهم هم الذين يعرقلون حياة من في البيت. وكان أكثر ما يزعجهم إنما هو كيس العظام البشرية، الذي كان يلاحقهم أنّى اتجهوا بقرقعته التي لا تنقطع.

والحق أن أحداً لا يدري كيف أمكن أن تخرج من بين كل تلك الإزعاجات وروائح الكلس والطين الحار، وسائل القطران، ومن أحشاء تلك الأرض، أجمل الدور وأنضرها وأبردها وأكرمها، لا في البلدة وحدها، بل في تلك المنطقة كلها. وكان أقلّ الناس إدراكاً لما جرى

خوزيه أركاديو بوينديا، الذي كان منصرفاً بكل جهده وذهنه، لاكتشاف العناية الإلهية، بينما كان ذلك الانقلاب يتمّ دون هوادة. وعندما قارب البيت على الانتهاء، جاءته أورسولا كي تخرجه من عالم أحلامه، وتخبره أنها قد استلمت أمراً بطلي الواجهة باللون الأزرق لا الأبيض الذي قرّراه. وأطلعته على وثيقة الأمر الرسمي. فدقّق خوزيه أركاديو بوينديا النظر في التوقيع، ودون أن يدرك ما كانت تتحدث عنه، سألها قائلاً:

- «من هو هذا؟».

فقالت أورسولا بلهجة حزينة: «إنه الحاكم. ويقول الناس إنه صاحب السلطة الذي أرسلته الحكومة».

لقد وصل الدون أبولينار موسكوت، وهو الحاكم، إلى ماكوندو في غاية الهدوء. فأقام في فندق جاكوب، الذي بناه أحد العرب الأوائل الذين جاؤوه يقايضون الببغاوات ببضاعتهم. واستأجر في صباح اليوم التالي مكتباً صغيراً يشرف على الطريق العام غير بعيد عن بيت آل بوينديا. ثم اشترى من جاكوب طاولة وكرسياً جعلها في المكتب، وعلق على الجدار شعار الجمهورية الذي حمله معه، وكتب على الباب كلمة «الحاكم». وكان أول أمر أصدره أن تطلى البيوت كلها باللون الأزرق احتفالاً بذكرى الاستقلال الوطني. فأسرع خوزيه أركاديو بوينديا، ممسكاً بيده نسخة من الأمر الجديد، فوجد الحاكم الجديد في قيلولته، مستلقياً في أرجوحة معلقة في الغرفة الصغيرة التي اتخذها مكتباً له. سأله: «أأنت الذي كتبت هذه الورقة؟» وكان الدون أبولينار موسكوت رجلاً ناضجاً، غير شجاع، ولكنّ له ملامح مزاج دموي. فأجابه: نعم. فسأله خوزيه أركاديو بوينديا من جديد: «وبأي حقّ؟». فأخرج الدون أبولينار موسكوت ورقة من درج مكتبه، وأراه إياها قائلاً: «لقد عيّنت حاكماً لهذه البلدة». ولكن خوزيه أركاديو بوينديا لم يقرأ كتاب التعيين، بل قال

له وهو يحافظ على هدوئه : «نحن في هذه البلدة لا نصدر الأوامر على قطع من ورق. وليكن معلوماً لديك الآن، وإلى الأبد، أننا لا نحتاج لحاكم هنا إذ ليس لدينا ما نحتكم بشأنه».

وقف خوزيه أركاديو بوينديا في مواجهة الدون أبولينار موسكوت، الذي بدا هازئاً في موقفه، وراح يروي له بصوت هادىء كيف أسسوا القرية، وكيف وزعوا فيها الأرض، وشقوا الطرقات، وذكر له التحسينات ومظاهر التقدم التي كانت تتحقق عندما تدعو لها الحاجة، وكيف تمّ كل ذلك دون أي ازعاج لأية حكومة ودون أن يزعجهم أحد. وأضاف قائلاً : «نحن قوم مسالمون إلى درجة أنّ أحداً منّا لم يمت حتى الآن، حتى نتيجة الموت الطبيعي. وبوسعك أن ترى أنه لا توجد عندنا أية مقبرة». ولم ينزعج، ولم يشك من أن الحكومة لم تقدم لهم يد المساعدة. على العكس تماماً، فقد أبدى ارتياحه وسروره، لأن الحكومة تركتهم ينعمون بسلام، وودّ لو أنها تستمر في ذلك. فهم لم ينشئوا البلدة من أجل أن يأتيهم أول قادم إليهم فيملي عليهم أوامره في ما يجب أن يفعلوه. وعند هذا الحد نهض الدون أبولينار موسكوت، فارتدى سترته العريضة المصنوعة من الكتان الأبيض، بلون بنطاله، دون أن يخرج، لحظة واحدة عن كياسته أو يتخلى عن أناقته. وختم خوزيه أركاديو بوينديا كلامه قائلاً : «أعني أنك إذا كنت قد جئت إلينا كي تقيم بيننا مواطناً عادياً كالآخرين، فعلى الرحب والسعة. أما إذا كنت قد جئت كي تبذر الفوضى وتجبر الناس على أن يطلوا بيوتهم باللون الأزرق، فتستطيع أن تحمل متاعك وترحل من حيث اتيت. واعلمك ان بيتي سوف يكون أبيض كالحمامة».

شَحُب لون الدون أبولينار موسكوت، واصفرّ وجهه، وتراجع خطوة إلى الوراء، فشدّ فكّيه وقال بشيء من الحزم والتهديد : **«احذر فإني أحمل**

سلاحاً».

ولم يدر خوزيه أركاديو بوينديا كيف، ولا في أية لحظة، استعاد في يديه القوة التي كان يستطيع بها أن يصرع حصاناً، فأمسك بالدون أبولينار موسكوت من قفا سترته، ورفعه بيديه حتى مستوى عينيه، وقال له :

«إني أفعل هذا لأني أفضّل أن أحملك حيّاً على أن أحمّل وجداني أمر موتك بقية أيام حياتي».

ثم دفعه خوزيه أركاديو بوينديا هكذا إلى منتصف الطريق العام، وهو يمسك به من قفاه، ثم وضعه على قدميه أمام طريق منطقة المستنقعات.

ولم يمض على ذلك أسبوع إلاّ وعاد الحاكم يصحبه ستة جنود حفاة، ممزقة ثيابهم، وهم مسلحون بالطبنجات (البنادق القديمة)، ووراءه عربة يجرها ثوران وفيها زوجته وبناته السبع. ثم وصلت عربتان أخريان تحملان الأثاث من الصناديق والأمتعة وأدوات المطبخ والأدوات المنزلية الأخرى، وأسكن الحاكم أسرته في فندق جاكوب ريثما يجد له بيتاً ويفتح مكتبه بحراسة الجنود.

وتداعى مؤسسو ماكوندو وروّادها الأوائل، وتوافدوا إلى خوزيه أركاديو بوينديا، وقد عزموا على طرد الغزاة، فوضعوا أنفسهم تحت تصرفه ، هم وأبناؤهم الكبار. ولكنه اعترض لأن الدون عاد بصحبة زوجته وبناته، ولا يليق برجل أن يهين رجلاً أمام أهله. ومن أجل ذلك قرّر أن يسوّي الأمر ودّياً.

وصحبه أوريليانو، وكان إذ ذاك ذا شارب أسود معقوف مثبت بالدهن وصوت جهوريّ قوي اشتهر بهما في الحرب. ولم يكن الرجلان يحملان سلاحاً. دخلا مكتب الحاكم دون أن يأبها بالحراس، فلم يفقد الدون أبولينار موسكوت هدوء أعصابه، بل عرّفهما باثنتين من بناته كانتا عنده مصادفة، وهما : أمبارو السمراء شبيهة أمها، وهي في السادسة عشرة من

عمرها، وريميديوس الصغيرة الجميلة، وهي في التاسعة من عمرها، وكانت بلون الزنبق ولها عينان خضراوان. وكانت الفتاتان مهذبتين، رشيقتين وناعمتين لطيفتين، قدّمتا للداخلين كرسيين كي يجلسا قبل أن يعرف بهما أبوهما. ولكن الأب والابن لبثا في مكانيهما واقفين.

قال خوزيه أركاديو بوينديا : «حسناً، يا صديقي، تستطيع البقاء هنا، لا من أجل قطاع الطرق الواقفين ببابك بطبنجاتهم، بل تقديراً لزوجتك وبناتك».

وبدا الأضطراب على الدون أبولينار موسكوت، ولكن خوزيه أركاديو بوينديا لم يدع له مجالاً للجواب، فأضاف : «ولكن لنا شرطين : الأول أن يطلي كل إنسان بيته باللون الذي يختاره، والثاني : أن يرحل الجنود فوراً. فنحن، من جهتنا نضمن استتباب الأمن». فرفع الحاكم يده اليمنى، قائلاً :

ـ «كلمة شرف؟».

فأجاب خوزيه أركاديو بوينديا :

ـ «بل كلمة عدو».

ثم أضاف بلهجة قاسية جافة :

ـ لأنني يجب أن أخبرك أمراً : فأنت وأنا ما نزال عدوين».

في ذلك اليوم عصراً رحل الجنود الستة، وبعد ذلك ببضعة أيام وجد خوزيه أركاديو بوينديا بيتاً للحاكم وعائلته. وعاد السلام والهدوء إلى نفوس الناس جميعاً باستثناء أوريليانو، لأن صورة ريميديوس ابنة الحاكم الصغرى ظلت عالقة في مخيلته، تؤلمه في ناحية ما من جسده، مع أنها، لصغر سنها، تكاد تكون ابنته في عمرها. وكان ذلك الإحساس البدني الغريزيّ يؤرقه ويزعجه، كيفما سار، كما لو كان حصاة عالقة في داخل حذائه.

(٤)

كان تدشين البيت الجديد الأبيض، كالحمامة، بحفلة راقصة. وقد برزت الفكرة لأورسولا، عصر ذلك اليوم، عندما لاحظت أن روبيكا وأمارانتا أصبحتا صبيتين مراهقتين. ويمكن القول إن السبب الرئيس لبناء البيت هو رغبتها في أن يكون للفتاتين مكان مناسب لاستقبال الزائرين. فقد مضى عليها وقت وهي تعمل كالمحكوم بالأشغال الشاقة في ترتيب البيت وتنظيمه، كي لا ينقص أي شيء، من جماله وبهائه الرائعين. حتى إنها، وقبل أن ينتهي العمل في البيت، أوصت على مجموعة من الأواني وأدوات التزيين الغالية جداً، ومن بينها ذلك الاختراع العظيم، الذي لا بدّ أن يثير إعجاب أهل البلدة جميعاً، وأن يفرح الفتاتين، وهو البيانو الآلي، وقد وصل هذا البيانو قطعاً معبّأة في صناديق، فرّغت جميعاً، مع الأثاث المصنوع في ڤينا، والكريستال البوهيمي المجري والصحاف المصنوعة من قبل شركة جزر الهند، وأغطية الطاولات الهولندية، وتشكيلة غنية متنوعة من القناديل والشمعدانات وأواني الزهور، والمعلّقات وأدوات الزينة الأخرى. وقد أرسلت الشركة المستوردة، على نفقتها، اختصاصياً إيطالياً، يدعى بيترو كريسبي، كي يركب البيانو وينظم إيقاعه، ويدرب المشترين الزبائن على طريقة استعماله، ويعلمهم الرقص على أحدث الألحان التي جاء بستة ملفات منها.

أرعبها مروره بباب غرفة نومها. وحيّاً أوريليانو الجالس إلى طاولة شغله في صياغة الفضة بكل حواسه المتوثبة. ولم يتوقف عند أحد، بل ظل ماضياً في طريقه إلى المطبخ. وهناك توقف للمرة الأولى في رحلة بدأت من الطرف الآخر للعالم. وهناك ألقى التحيـة. وفغرت أورسولا فاهاً جزءاً من الثانية، ثم حدّقت في عينيه، وصاحت صيحة هائلة، ووثبت مطوّحة بذراعيها، وتعلّقت بعنقه وهي تصرخ وتبكي فرحاً.

لقد كان خوزيه أركاديو.

وقد عاد فقيراً كما كان يوم رحيله، حتى إن أورسولا أعطته بيزوين (قطعتي نقود) لكي يدفع أجر الحصان. وكان يتكلم إسبانية ممزوجة بلهجة أبناء البحر العامية. سألوه أين كان، فأجاب: «هناك». ثم علق أرجوحته في الغرفة التي كانوا قد خصصوها، له ونام ثلاثة أيام بطولها.

وعندما استفاق، وبعد أن التهم ست عشرة بيضة نيئة، مضى مباشرة إلى مخزن كاتارينو، حيث أثارت بنيته الهائلة بين النساء رغبة في معرفته مشفوعة بالرعب من منظره.

طلب شيئاً من الموسيقى، وقدّم للحاضرين عصير قصب السكر على حسابه. ثم خاض جولة من الرهان. كان أولها أن تحدى خمسة رجال أن يثنوا قبضته. ولكنهم تبينوا أنهم لا يستطيعون تحريك ذراعه، فقالوا: «ذلك مستحيل، لأنه يلبس سوار الصليب». وقد روي عنه أنه كان يشقّ عروق ذراعه قبل أن يلبس السوار، كي تخرج منها قوة فوق إنسانية. ولم تصدق كاتارينو تلك الرواية، فراهنته على أن يرفع منضدة الحاجز (طاولة البار) لقاء اثني عشر بيزواً(١). فانتزعها خوزيه أركاديو من الأرض، ورفعها فوق رأسه، ثم حملها إلى الطريق العام. وقد استعانت كاتارينو، من بعد، بأحد عشر رجلاً كي يعيدوا المنضدة إلى مكانها.

(١) البيزو Peso قطعة من النقود.

وفي حمّى تلك الحفلة، عرض خوزيه أركاديو فحولته الخارقة على الموجودين جميعاً. كان كله موشوماً، وقد غطت جسده كتابات حمراء وزرقاء بلغات مختلفة. وكانت النسوة يحاصرنه من كل جهة برغباتهن العارمة. فوافق على أن يوافي منهن من تدفع له أكثر. فقدّمت له أغناهنّ عشرين بيزواً، ولكنه عرض أن تجرى عليه قرعة، وأن يكون سعر التجربة عشرة بيزوات. وكان هذا السعر عالياً جداً، لأن أكثر النساء حظوة، عندئذ، ما كانت لتجني في الليلة أكثر من ثمانية بيزوات. ولكنهن وافقن جميعاً، وكتبن أسماءهن كلاً على قطعة ورق، ووضعن الأوراق في قبعة. ثم سحبت كل منهنّ ورقة واحدة، وعندما لم تبق سوى ورقتين في القبعة عرف الجميع صاحبتي الحظ. فقال خوزيه أركاديو: «لتدفع كل منكما خمسة بيزوات أخرى فأكون لكما معاً». فقد كان يعيش من هذه الحرفة. وقد طاف حول العالم خمساً وستين مرة، مع طاقم من البحارة لا ينتمون لبلد. وقد أعادته المرأتان، اللتان قضتا الليلة معه في مخزن كاتارينو، عارياً إلى قاعة الرقص والحفلات، لكي يرى الناس أنه لم يكن في جسده شيء واحد دون أن يغطيه الوشم، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.

ولم يستطع خوزيه أركاديو التكيف للحياة العائلية، ولم يتمكن من الانسجام مع أفراد أسرته. كان يقضي النهار كله نائماً، ويمضي الليل بطوله في حي الأضواء الحمراء وبيوت اللهو، يراهن على قوته الجسدية. وفي المرات القليلة التي ألحت فيها أورسولا في ضمه إلى أفراد الأسرة، وفي اتخاذه مكانه معهم إلى مائدة الطعام، كان يبدو رقيقاً مشرقاً ولطيفاً، وخصوصاً عندما يتحدث عن مغامراته في بلدان العالم البعيدة. فلقد تحطمت السفينة التي كان فيها، مرة، وغرقت، وظل هائماً على وجهه، في بحر اليابان طوال أسبوعين، بعيداً عن اليابسة. كان يأكل من

جثة رفيق له قتلته ضربة شمس. وكان لحم الجثة، الذي أشبع بملح البحر ، وأنضجته حرارة الشمس الشديدة ، يبدو عجيباً ولكنه طيب المذاق حلو. وفي خليج البنغال ، وفي ظهيرة يوم مشرق رائع ، ارتطمت سفينته بتنين بحر فقتلته. فوجدوا في بطنه خوذة وزرداً وسلاح فارس صليبي. وقد رأى في البحر الكاريبي شبح سفينة القرصان فيكتو هوج، وقد مزّقت أشرعتها ريح الموت، وقضمت صواريها ديدان البحر وحشراته، وهي ما تزال تبحث عن مجرى الواديلوب. وكانت أورسولا تبكي حينئذ، وهي تصغي، وكأنها كانت تقرأ رسائله، التي لم تصل إليها، التي يحدثها فيها عن أعماله ومغامراته الفاشلة والناجحة. ثم تقول وهي تنتحب وتتنهّد : «كل هذا، والبيت الكبير هنا ينتظرك، يا بنيّ. كل هذا ونحن نلقي بفضلة زادنا للخنازير !».

والحق أنّ أورسولا الأم لم تكن تستطيع، في أعماقها، أن تتصور أن ذلك الفتى الصغير، الذي صحبه الغجر، قد غدا هذا العملاق الذي يلتهم نصف خنزير رضعي في غدائه، وأن هموم العيش ورياح الشقاء قد أذبلت كل أزهاره.

ولم تكن مشاعر سائر أفراد الأسرة إزاءه لتختلف عن إحساسات الأم. فما كانت أمارانتا لتقوى على إخفاء قرفها من تجشئه الحيواني على المائدة. وما كان أركاديو، الذي لم يعرف قط سرّ علاقته الأبوية به، ليجيب عن أسئلته إلاّ باقتضاب. ولم يكن يدري أن غايته من طرح أسئلته عليه أن يكسب وده وعاطفته. وقد حاول أوريليانو أن يستعيد ذكريات الفترة التي كانا يعيشان فيها في غرفة واحدة ، وأن يذكره بحياتهما معاً وتعاونهما الطفولي. ولكن خوزيه أركاديو قد نسي كل شيء ، ذلك أن الحياة في البحر قد استأثرت بذاكرته وأشبعتها حتى التخمة. وحدها روبيكا هي التي شغفت به، ووقعت في حبه من النظرة

الأولى. فمنذ اليوم الذي رأته فيه يمرّ قرب غرفة نومها، وجدت أن بيترو كريسبي لم يكن سوى قطعة حلوى تافهة أمام هذا الفحل العظيم الذي تسمع أنفاسه البركانية في كل أرجاء الدار. وقد حاولت التقرّب منه بشتى الذرائع. وفي إحدى المرات، حدّق خوزيه أركاديو فيها، متفحصاً كل جسدها باهتمام لا يعرف الخجل، وقال لها : «لقد صرت امرأة حقيقية، أيتها الأخت الصغيرة». وفقدت روبيكا السيطرة على نفسها. وعادت، بعدئذٍ، إلى عادتها في أكل التراب وطلاء الجدران الكلسي بشره الماضي. وعادت إلى مصّ إبهامها في نهم شديد، سبّب لها نشوء آلام في رأسها. وجعلت تتقيأ سائلاً أخضر فيه علقات ميتة. وقضت بعد ذلك ليالي طويلة لا تعرف فيها النوم، وهي تعاني الدوار الدائم، وتنتظر عودة خوزيه أركاديو في الهزيع الأخير من الليل، فيهتز البيت كله لقدومه. وفي وقت القيلولة من أحد الأيام، وقد هجع كل من في الدار، لم تستطع روبيكا المقاومة، فمضت إلى غرفته. فوجدته مستلقياً عارياً، إلاّ من سرواله، وقد تمدّد في أرجوحته التي علّقها بنفسه بين عارضتين ضخمتين، بوساطة حبال غليظة من تلك التي تستعمل في ربط السفن. وأذهلها عري جسده الهائل المزيّن بمختلف الألوان، وأحست بدافع للعودة من حيث أتت، وقالت معتذرة متلعثمة : «عفواً، لم أكن أعلم أنك هنا». قالت ذلك بصوت خفيض كي لا توقظ أحداً في الدار.

فقال لها : «تعالي». وأطاعت روبيكا. ووقفت قرب الأرجوحة، وقد أحسّت بعرق جليدي يغمر جسدها، وباضطراب في أمعائها، حينما أخذت رؤوس أصابع خوزيه أركاديو تداعب كاحليها، ثم ربلتي ساقيها، ثم ردفيها، وهو يتمتم : «آه، أيتها الأخت الصغيرة. الأخت الصغيرة». وقد بذلت روبيكا جهداً غير إنساني، وغير معقول، كي لا تغادرها روحها، عندما ضمتها قوّة كالإعصار، ورفعتها من خصرها، ثم جرّدتها

من ثيابها، وغمرتها ولفتها بحركات ثلاث، كما لو كانت عصفوراً صغيراً. ولقد وجدت روبيكا متسعاً من الوقت، وبقية من الجهد، كي تشكر الله لأنه أوجدها قبل أن تستسلم طائعة، وغير واعية تماماً، لتلك اللذة العجيبة وذلك الألم الذي لا يطاق، في غمار مستنقع الأرجوحة اللاهب، الذي امتصّ، كورق النشاف، انفجار دمها.

وبعد مضيّ ثلاثة أيام على ذلك، تزوّج خوزيه أركاديو وروبيكا، خلال صلاة الساعة الخامسة. وكان خوزيه أركاديو قد ذهب في الليلة السابقة إلى مخزن بيترو كريسبي. فوجده يعطي درساً في الموسيقى عن القيثارة، فقال له، دون أن يتنحى به جانباً : «سأتزوج روبيكا». فامتقع وجه بيترو كريسبي، وناول القيثارة، التي كانت في يده، إلى أحد طلابه، وأعلن انتهاء الدرس، وصرف الطلاب. وعندما بقيا وحيدين في الصالة التي كانت مزدحمة بالآلات الموسيقية، واللعب الآلية واللعب الأخرى ذات النوابض، قال له بيترو كريسبي : «إنها أختك».

فأجاب خوزيه أركاديو : «لا يهمني ذلك».

وجفف بيترو كريسبي العرق عن جبينه بمنديله المعطّر بالخزامى، وأضاف قائلاً : «هذا أمر ضد الطبيعة، وعلاوة على ذلك فإنه ضد القانون».

وأثار اصفرار بيترو كريسبي وشحوبه خوزيه أركاديو أكثر مما أثارته حججه. فقال محتداً : «أبول على الطبيعة، ولتذهب إلى الجحيم. وقد جئت لأنبئك بالأمر، ولأجنبك عناء سؤال روبيكا عن أي شيء».

ولكن لهجته لانت بعض الشيء عندما رأى عيني بيترو كريسبي تغرورقان بالدموع، فخفف من حدّة أسلوبه، وقال له بلهجة أخرى : «والآن، إذا كانت العائلة هي التي تعجبك فقد بقيت لك أمارانتا».

أعلن الأب نيكافور، في موعظة يوم الأحد، أن خوزيه أركاديو

وروبيكا ليسا أخاً وأختاً.

ولم تغفر لهما أورسولا قط ما أقدما عليه من عدم الاحترام والخرق غير المعقول للتقاليد. ولدى عودتهما من الكنيسة لم تسمح للعروسين الشابين بالرجوع إلى البيت. فقد اعتبرتهما ميتين. فاستأجرا بيتاً صغيراً، عند الطرف الآخر من المقبرة. وانتقلا إليه، ولم يكن عندهما من الأثاث سوى أرجوحة خوزيه أركاديو؟.

وفي ليلة الزفاف، لسعت عقرب قدم روبيكا بعد أن اندست في حذائها، فسببت لها خدراً في لسانها. ولكن ذلك لم يحل دون أن يقضيا ليلة كانت فضيحة، بل شهر عسل ظلّ حديثاً للناس. فلقد ذعر الجيران من الصياح والصراخ الذي أيقظ الحيّ كله ثماني مرات في ليلة واحدة، وثلاث مرات في وقت القيلولة، حتى أخذوا يصلون عسى ألاّ تزعج تلك العاطفة الهائجة راحة الموتى في قبورهم.

وكان أوريليانو الوحيد الذي اهتمّ بهما، فاشترى لهما بعض الأثاث، وقدّم لهما من المال ما كان كافياً حتى يعود خوزيه أركاديو إلى حياة الواقع، فيبدأ بالعمل على استغلال قطعة الأرض المجاورة للدار، والتي لا يملكها أحد.

أما أمارانتا فلم تستطع قط أن تتغلب على ضغينتها وحقدها على روبيكا، مع أن القدر هيأ لها من الحظ، ومنحها من الرضا، ما لم تكن تحلم به.

وما كانت أورسولا لتدري كيف تغطي العار الذي تعرّضت له الأسرة، فبادرت بأن عرضت على بيترو كريسبي أن يستمر على عادته في تناول طعام الغداء معهم في البيت كل يوم ثلاثاء. ففعل، وهو يبذل أقصى جهده في تجاوز فشله والارتفاع فوق ألمه في هدوء ووقار. وقد واظب على إبقاء الشريط الأسود على قبعته احتراماً منه للعائلة. وكان

يسعده أن يعبر عن حبه وتقديره لأورسولا، فدأب على تقديم الهدايا الغريبة الغالية لها : كالسردين البرتغالي، ومربّى (حلوى) الورد التركي. وقد حمل لها مرة شالاً جميلاً من مانيلا. وكانت أمارانتا تهتم به وتستقبله باندفاع حنون. كانت تعرف رغائبه ومطالبه قبل أن يعلنها، حتى تنزع الخيوط الناسلة من كُمّيه. وقد طرّزت له اثني عشر منديلاً، تحمل الحروف الأولى من اسمه، هدية في عيد ميلاده. وكان كلّ ثلاثاء يجلس معها، بعد الغداء، ويسعد بصحبتها وهي تطرز في الشرفة. لقد كانت تلك المرأة، التي طالما تجاهلها وعاملها كطفلة، اكتشافاً جديداً بالنسبة له. وعلى الرغم من أن مزاجها كانت تنقصه الرشاقة، وجمالها تنقصه الجاذبية القوية، فقد كانت تتمتع بحساسية نادرة في تقدير الأمور وتفهم أشياء الحياة. وكانت، إضافة إلى ذلك ذات رقة خفية.

وفي أحد أيام الثلاثاء، طلب بيترو كريسبي يد أمارانتا، فتحقق تقدير كل الذين كانوا يظنون أن هذا الأمر لا بدّ أن يتحقق عاجلاً أم آجلاً. ولم تتوقف أمارانتا عن التطريز، فانتظرت حتى تبددت حمرة الخجل الحارّة التي صبغت أذنيها، ثم قالت بصوت وقور رزين مفعم بالنضج والوعي : «طبعاً يا كريسبي، ولكن بعد أن يعرف أحدنا الآخر بشكل أفضل. فليس حسناً أن تستعجل الأمور».

وارتبكت أورسولا. فهي، على الرغم من احترامها وتقديرها العظيم لبيترو كريسبي، لم تكن تدري ما إذا كان قراره جيداً أم سيئاً، من الناحية الخلقية والمعنوية، بعد خطبته الطويلة المشهورة لروبيكا. ولكن الأمر انتهى بأورسولا إلى الموافقة وقبول الأمر كحقيقة، لا بالحسنة ولا بالسيئة، لأن أحداً لم يكن يشاركها شكوكها ومخاوفها.

لكنّ أوريليانو، وقد غدا رجل البيت الآن، قد زاد في حيرتها وارتباكها عندما أدلى برأيه الحازم والغريب، قائلاً : «ليس هذا أوان

التفكير في الزواج».

ولم تدرك أورسولا مغزى ذلك الرأي إلاّ بعد بضعة أشهر. وقد كان ذلك هو الرأي الوحيد المخلص الذي يرتئيه أوريليانو، وهو صادق مع نفسه. فهو ما كان ليهتم بالزواج أو غيره من الأمور، باستثناء الأمر الذي كان شغله الشاغل، وهو الحرب. ولم يكن هو نفسه يدرك بوضوح، وهو يواجه فصيل الإعدام. كيف تتالت الأحداث وتداخلت المصادفات البسيطة، على خطورتها، فأدّت به إلى حيث كان يقف. لم يسبب له موت رعيديوس اليأس الذي كان يخشاه. فقد أورثه ذلك غضباً عارماً، راح يزول بعامل الزمن، مخلفاً وراءه إحساساً سلبياً بالحرمان، تحوّل إلى شيء من التقوقع والعزلة، شبيه بالشعور الذي أوصله إلى عزمه على أن يكون بلا امرأة. فقد أغرق نفسه في عمله، وإن كان قد واظب على عادة لعب (الدومينو) مع حميه. وقد وطّدت أحاديثهما المستمرة علاقات الصداقة بينهما، في بيت كان ما يزال غارقاً في الحداد. ولطالما كان الرجل يقول لصهره : «تزوج ثانية يا أوريليانو. فلديّ ستّ بنات، ولك أن تختار من تشاء منهن».

وفي إحدى المرات، عاد الدون أبولينار موسكوت من إحدى رحلاته الكثيرة، عشية الانتخابات، وهو موزّع الفكر مشغول البال بسبب حالة البلاد السياسية. فقد كان الأحرار عازمين على خوض الحرب ضد الحكومة. وما كان لدى أوريليانو، في تلك الفترة، سوى أفكار مشوشة وسطحية وغامضة عن الفرق بين الأحرار والمحافظين. فقام حموه بتوضيح الأمور له في عدة دروس تفصيلية. فذكر له أن الأحرار ماسونيون، وسيئون، يريدون شنق الكهنة ورجال الدين، ويدعون إلى الزواج المدني وإقرار الطلاق. وينادون بالمساواة في الحقوق بين الأبناء الشرعيين والأبناء غير الشرعيين. ويعملون على تمزيق وحدة البلاد بإقامة نظام اتحادي

(فيدرالي) ينتزع الامتيازات من السلطة المركزية. أما المحافظون فيستمدون سلطتهم من الله نفسه مباشرة، وهم يسهرون على حفظ النظام العام والأخلاق العائلية، وهم المدافعون عن دين المسيح ومبدأ السلطة، ولا يقبلون بتجزيء البلاد إلى كيانات مستقلة ذاتياً.

وقد تعاطف أوريليانو مع الأحرار، وأحبهم، مدفوعاً بعواطفه ومشاعره الإنسانية، بسبب موقفهم من حقوق الأبناء الطبيعيين (غير الشرعيين). ولكنه، على أية حال، لم يدرك كيف يمكن للناس أن يصلوا إلى درجة إعلان الحرب من أجل أشياء وأمور غير ملموسة. وقد اعتبر أن حماه قد بالغ حين استقدم، في فترة الانتخابات، ستة رجال مسلحين بالبنادق، بإمرة رقيب، إلى بلدة خالية من كل العواطف والمشاعر السياسية.

ولم يقتصر الأمر على وصول الجنود إلى البلدة، ولكنهم فتّشوها بيتاً بيتاً، وصادروا من البيوت أسلحة الصيد والمناجل، بل سكاكين المطابخ نفسها، قبل أن يوزعوا على الرجال، الذي هم في الحادية والعشرين فما فوق، أوراق اقتراع زرقاء تحوي أسماء المرشحين المحافظين، وأخرى حمراء فيها أسماء المرشحين الأحرار. وفي عشية الانتخابات تلا الدون أبولينار موسكوت، بنفسه، أمراً يمنع بيع المشروبات الكحولية، كما يمنع الاجتماعات التي تضم أكثر من ثلاثة أشخاص ليسوا من نفس العائلة.

ومرّت الانتخابات دون حوادث. ففي الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد، وضع صندوق الاقتراع الخشبي في الساحة العامة، وقام الجنود الستة على حراسته. وأدلى الناس بأصواتهم بحرية تامة، كما لاحظ أوريليانو بنفسه، وقد ظل اليوم بطوله، مع حميه يسهر مهتماً بألا يدلي أحد بصوته مرتين. وفي الساعة الرابعة من بعد الظهر، أعلن قرع الطبل، في الساحة العامة، نهاية الاقتراع، وقام الدون أبولينار موسكوت بختم

الصندوق بقطعة ورق ألصقها عليه ووضع عليها توقيعه. وفي مساء ذلك اليوم نفسه، وبينما كان الدون أبولينار موسكوت يلعب الدومينو مع أوريليانو، أمر الرقيب بأن ينزع ختم الورقة المصمغة الموقعة والملصقة على صندوق الاقتراع، كي يقوم بحساب الأصوات. فكان عدد الأوراق الزرقاء والحمراء متساوياً تقريباً، ولكن الرقيب لم يدع من الأوراق الحمراء سوى عشر منها وأكمل الفرق بأوراق زرقاء. ثم ختم الصندوق ثانية بورقة مصمّغة جديدة. وفي ساعة الصباح الأولى. أرسل الصندوق إلى عاصمة الإقليم وعندها قال أوريليانو: «سوف يخوض الأحرار الحرب». فأجاب الدون أبولينار موسكوت، وهو ما يزال يركز اهتمامه على لعبة الدومينو: «إنهم لن يعلنوا الحرب بسبب تبديل أورق الاقتراع، لأننا أبقينا بعض الأوراق الحمر كي لا تكون هناك اعتراضات وشكاوى». فأدرك أوريليانو، عندئذ صعوبة كون الإنسان في المعارضة، وقال: «لو كنت من الأحرار لقاتلت بسبب تبديل هذه الأوراق». فنظر إليه حموه من فوق نظارته، وقال له: «لو كنت من الأحرار، يا عزيزي، لما شهدت تبديل أوراق الاقتراع حتى ولو كنت صهري».

ولم تثر نتائج الانتخابات حنق أهل البلدة، ولكن الذي أثارهم حقاً هو أن الجنود لم يعيدوا السلاح إلى أصحابه. وتحدث وفد من النساء إلى أوريليانو عله يقنع حماه بردّ سكاكين المطبخ إلى البيوت. ولكن الدون أبولينار موسكوت أبلغه خبراً في غاية السرية، مفاده أن الجنود نقلوا السلاح المصادر، كي يقيموا الدليل على استعداد الأحرار للحرب. فأزعجته السخرية القاتلة الكامنة في تلك الملاحظة ولؤم ذلك التصريح. ولم يعلّق بشيء قط، ولكنه كان ذات ليلة يتحدث مع جيرينيلدو ماركيز ومانييفكو فيسبال، وبعض الأصدقاء الآخرين، عن حادثة السكاكين، فسألوه إن كان من الأحرار أو المحافظين. ولم يتردد أوريليانو في القول:

«إذا كان لا بد من الانتساب فسوف أكون من الأحرار، لأن المحافظين غشاشون».

وفي اليوم التالي، قام أوريليانو بزيارة الطبيب ألبريو نوجويرا، بناء على تشجيع أصدقائه، متذرعاً بعلاج ألم وهمي في كبده. ولم يكن يدرك معنى هذه الحيلة أو التمثيلية.

وكان الطبيب ألبريو نوجويرا قد وصل إلى ماكوندو قبل بضع سنوات، ومعه صندوق أدوية مليء بحبات دواء لا طعم لها، وشعار طبي على لافتة، لا يقنع أحداً، هو : كل مسمار يسحب آخر. والواقع أنه كان دجالاً. فلقد كان يخفي وراء مظهر الطبيب البريء، عديم الشهرة، مخرباً ساتراً تحت جلد حذائه الطويل، حتى منتصف فخذه، ندوباً(١) خلفتها على رجليه خمس سنوات قضاها مقيداً بالأغلال. وكان قبض عليه إبّان الحملة الفيدرالية الأولى، ولكنه نجح في الفرار إلى كوراساو، متنكراً بجبة كاهن، وهو لا يمقت شيئاً مثل مقته لهذا الثوب. وبعد نفي طويل، حرّكته الأخبار المثيرة التي كان ينقلها المنفيون، عبر الكاريبي، إلى كوراساو، فنجح في ركوب سفينة للمهربين، ليظهر بعد ذلك في ريوهاشا، ومعه قوارير حبوب الدواء، التي لم تكن سوى حبات سكر مصفّى، ومعه شهادة من جامعة لايبزيج(٢) زوّرها بنفسه. وكانت خيبة آماله كبيرة، فبكى بكاء مراً. فحماسة الفيدراليين، التي شبهها المنفيون ببرميل بارود على وشك الانفجار، لم تكن سوى موجة سرعان ما ذابت في الأوهام الانتخابية. وآلمته مرارة الإخفاق، فانكفأ إلى البحث عن مكان يمضي فيه بقية أيامه آمناً، فلاذ بماكوندو يعمل فيها طبيباً زائفاً. وعاش في هذه البلدة في غرفة صغيرة تملؤها القوارير، استأجرها

(١) آثار الجروح.
(٢) University of Leipzig جامعة لايبزيج في المانيا.

عند طرف الساحة العامة، حيث أمضى بضع سنوات يعتمد في رزقه على دخله من المرضى اليائسين، بعد أن جرّبوا كل دواء، ثم انتهوا إلى الرضا ببعض أقراص السكر عزاء لهم. وظلت هادئة في داخله غرائز الحرّض الكامنة فيه ما دام الدون أبولينار موسكوت يكتفي بمظهر السلطة. فكان يقضي وقته في استعادة ذكرياته وفي الصراع ضد مرض الربو. ولما اقتربت الانتخابات كانت له بمثابة البداية التي أوصلته إلى قمة التخريب. فراح يتصل بشباب البلدة الذين كانت تنقصهم الثقافة السياسية، ثم بدأ بحملة سرية للتحريض والإثارة. ولم تكن أوراق الاقتراع الحمر التي وجدت في الصندوق، وعزاها الدون أبولينار موسكوت إلى حب الاستطلاع والتجديد لدى الشباب، لم تكن في الحقيقة سوى واحد من أجزاء خطته : فقد جعل أتباعه يقترعون لكي يثبت لهم أن الانتخابات لم تكن سوى مهزلة. فقد كان يقول لهم :

«إن الشيء الوحيد المفيد هو العنف».

واستجاب معظم أصدقاء أوريليانو، بحماسة، لفكرة إنهاء النظام المحافظ، ولكنّ أحداً لم يجرؤ على دعوته للانضمام إلى خططهم، لا بسبب علاقاته بالحاكم وحسب، وإنما بسبب سلوكه الانعزالي وطبعه المراوغ. ولقد كان معروفاً، علاوة على ذلك، أنه قد اقترع للقائمة الزرقاء، أي للمحافظين، بناء على توجيهات حميه.

وهكذا، لم يكن إفصاحه عن عواطفه السياسية سوى محض مصادفة، ولم تكن فكرة زيارته للطبيب، كي يعالج مرضاً لا يشكو منه، إلا بدافع حب الاستطلاع. ولما وصل إلى ذلك الكوخ العتيق، الشبيه ببيوت العناكب، والذي تفوح منه رائحة البخور، وجد نفسه مقابل عجوز شبيه بالحرباء الغبراء، التي تصفر رئتاها لدى كل شهيق أو زفير. وقبل أن يطرح عليه الدكتور أي سؤال، قاده إلى النافذة وفحص له داخل

جفنه الأسفل. فقال له أوريليانو، حسب تعليمات أصدقائه: «ليس هنا». ثم ضغط برؤوس أصابعه بقوة على مكان الكبد، مضيفاً: «هذا الألم الذي يحول دون نومي».

وعندها أغلق الطبيب نوجويرا النافذة، بحجة أن نور الشمس قويّ، ثم شرح له، بكلام بسيط، أن الواجب الوطني يقضي بذبح المحافظين. وقد ظل أوريليانو أياماً، يحمل في جيب قميصه قارورة صغيرة، يخرجها كل ساعتين، ويصب في راحته منها ثلاث حبات يقذفها في فمه، لكي تذوب ببطء على لسانه.

وقد سخر الدون أبولينار موسكوت من ثقة أوريليانو بقدرة الطبيب الزائف. ولكن أولئك الذين كانوا أعضاء في المؤامرة رأوا فيه واحداً من جماعتهم. والواقع أن أبناء روّاد ماكوندو جميعاً، تقريباً، كانوا ضالعين في ذلك الأمر، دون أن يعرف أحد منهم تماماً ماذا كانوا يفعلون. ولكن أوريليانو استطاع أن يستنتج أبعاد المؤامرة في اليوم نفسه الذي أحاطه الطبيب فيه علماً بالسر. ولقد أخافه المخطط، على الرغم من اقتناعة بضرورة إنهاء النظام المحافظ.

كانت للطبيب نوجويرا طريقة غريبة غامضة في الاغتيالات الشخصية. وتتلخص طريقته في تنسيق سلسلة من الأعمال الفردية، تبدو على هيئة ضربة متقنة على مستوى الأمة، فتصفّي فعاليات النظام وموظفيه وعائلاتهم، ولا سيما الأطفال، لكي تستأصل فكرة المحافظين من جذورها. وكانت أسماء الدون أبولينار موسكوت وزوجته وبناته الست في القائمة بطبيعة الحال.

قال له أوريليانو دون أن يفارق هدوءه: «أنت لست من الأحرار ولا من غيرهم. أنت سفّاح». ولكن الطبيب أجاب بلهجة هادئة: «وفي هذه الحال، أعد إليّ القارورة، فلست بحاجة إليها».

ولم يعلم أوريليانو إلاّ بعد مضي ستة أشهر أنّ الطبيب قد يئس من اعتباره رجل عمل، وأنه كان يعتبره عاطفياً لا مستقبل له، سلبيّ الطبع، مقضياً عليه أن يعيش وحيداً في عزلته. وحافظ الأصدقاء على صلاتهم به، وعدم الانقطاع عنه، خشية أن يشي بهم، فتنفضح مؤامرتهم. فطمأنهم أوريليانو بأنه لن يتفوّه بكلمة واحدة. ولكنهم في الليلة التي ذهبوا لكي يقتلوا عائلة موسكوت وجدوه يحرس باب الأسرة ويدافع عنها. وقد بدا عليه قراره وموقفه الحازمان، مما اضطرهم إلى تأجيل الخطة إلى أجل غير مسمّى.

ولقد كان في تلك الأيام أن سألت أورسولا أوريليانو رأيه في زواج بيترو كريسبي من أمارانتا، وكان جوابه لها أن ليس هذا أوان التفكير في الزواج. فقد كان، منذ أسبوع، يحمل تحت قميصه مسدساً قديماً. وكان يواظب على مراقبة أصدقائه. وكان، في عصر كل يوم، يذهب لتناول القهوة مع خوزيه أركاديو وريبيكا، اللذين رتبا بيتهما بشكل أفضل. وكان، بعد السابعة، يذهب كي يلعب الدومينو مع حميه. وكان يقضي ساعة الغداء في الحديث والنقاش مع أركاديو، الذي غدا يافعاً ضخماً، وقد تبين أنه يزداد، مع الأيام حماسة لابتداء الحرب، وقد تزايدت حمّى الأحرار في المدرسة التي كان أركاديو يعلم فيها طلاباً أكبر منه سناً، إلى جانب أطفال لم يتقنوا الحديث بعد. فقد كان هناك حديث متزايد حول إعدام الأب نيكانور، وتحويل الكنيسة إلى مدرسة، وتكريس حرية الحب، وقد حاول أوريليانو التخفيف من دوافعه وتهدئة حماسته. فنصحه بالكتمان والتعقّل، ولكن أركاديو لم يصغ إلى منطقه العاقل وواقعيته الحكيمة، بل عاب عليه، علناً، ضعف طبعه وشخصيته. وانتظر أوريليانو صابراً. وأخيراً، وفي بداية شهر كانون الأول (ديسمبر)، اندفعت أورسولا إلى المشغل، وهي ترتجف خوفاً وفزعاً، وقالت: «لقد

اندلعت الحرب».

والواقع أن الحرب كانت قد انفجرت قبل شهور ثلاثة. وقد أعلنت الأحكام العرفية في البلاد. وكان الوحيد الذي عرف ذلك في حينه هو الدون أبولينار موسكوت، ولكنه لم يطلع حتى زوجته على الخبر، بينما كانت كتيبة الجيش، المكلفة باحتلال البلدة على حين غرة، في الطريق إليها.

دخل الجيش البلدة، دون ضجة، قبل بزوغ الفجر، وبصحبتهم قطعتان من المدفعية الخفيفة تجرهما البغال. وأقام الجنود مركز قيادتهم في المدرسة. وفي الساعة السادسة مساء، أعلن منع التجول. وقام الجنود بعملية تفتيش من بيت إلى بيت أشد وأدق من العملية السابقة. وفي هذه المرة، صادروا حتى أدوات العمل الزراعي. وقد اقتادوا الطبيب نوجويرا من بيته، وربطوه إلى شجرة في الساحة العامة، وأعدموه رمياً بالرصاص، دون أية محاكمة.

وقد حاول الأب نيكانور أن يؤثر على السلطات العسكرية بعرض ارتفاعه العجائبي، ولكنّ أحد الجنود شجّ رأسه بعقب بندقيته. وانطفأت طفرة الأحرار، ونشوة بهجتهم، أمام عنف الإرهاب الصامت. ولكنّ أوريليانو، بلونه الشاحب الممتقع، وغموض تفكيره وسلوكه، تابع لعب الدومينو مع حميه، في شيء من التقوقع على ذاته، وقد أدرك أن الدون أبولينار موسكوت لم يكن سوى صورة مظهرية للسلطة، على الرغم من اللقب الذي كان يحمله، أي الحاكم المدنيّ العسكريّ للبلدة. فالقرارات كان يتخذها نقيب من الجيش، كان كل صباح يجمع ضريبة استثنائية بحجة الدفاع عن النظام العام. وقد انتزع أربعة من الجنود، العاملين بإمرته، امرأة، عضها كلب، من بين أفراد عائلتها، وقتلوها ضرباً بأعقاب بنادقهم. وفي يوم الأحد، بعد أسبوعين من الاحتلال، دخل

أوريليانو بيت جيرينيلدو ماركيز، وبطريقته الرزينة الهادئة المألوفة، طلب كأساً من القهوة دون سكر. حتى إذا كانا وحدهما في المطبخ، قال له أوريليانو بلهجة آمرة حازمة لم يعهدها فيه أحد:

«أعدّ الشباب، فسوف نبدأ الحرب».

ولم يصدّق جيرينيلدو ماركيز ما سمعه، فسأله: «بأي سلاح؟».

ـ وأجاب أوريليانو: «بسلاحهم».

وفي يوم الثلاثاء، وعند منتصف الليل، وفي عملية جنونية، قام واحد وعشرون رجلاً، جميعهم دون الثلاثين من العمر، بقيادة أوريليانو بوينديا، وسلاحهم سكاكين الموائد والأدوات الأخرى الحادّة، بمفاجأة الحامية. فاستولوا على السلاح، ونفّذوا حكم الإعدام في النقيب والجنود الذين قتلوا المرأة.

وفي الليلة نفسها، وبينما كانت طلقات فصيل الإعدام تتردّد في الأفق، سُمّي أركاديو قائداً مدنياً وعسكرياً للبلدة. وفي وقت جدّ قصير، لم يكد يسمح للثائرين المتزوجين بوداع زوجاتهم، فتركوهن يتدبّرن مصائرهن. ورحلوا مع بزوغ الفجر، يحييهم الشعب الذي حرّروه من الإرهاب، كي يلتحقوا بقوات القائد الثوري الجنرال فيكتوريو مدينا، الذي أفادت الأنباء أنه كان يزحف باتجاه مانور. وقبل أن يرحل أوريليانو، أخرج الدون أبولينار موسكوت من الغرفة الصغيرة التي اختبأ فيها، وقال له: «اطمئن، يا عمّ. فالحكومة الجديدة تضمن لك، بشرف العهد، سلامتك الشخصية وسلامة عائلتك».

ولم يكن من اليسير على الدون أبولينار موسكوت أن يميز ذلك المتآمر، بحذائه الطويل، وببندقيته المعلقة، عرضاً، في كتفه، من ذلك الشخص الذي يلعب الدومينو معه حتى الساعة التاسعة مساء.

صاح قائلاً : «هذا جنون، يا أوريليانو».

فأجاب أوريليانو : «ليس هذا جنوناً. إنّها الحرب. ولا تدعُني باسم أوريليانو بعد الآن. فأنا، منذ الساعة العقيد (الكولونيل) أوريليانو بويندیا».

(٦)

لقد نظّم العقيد (الكولونيل) أوريليانو بويندیا اثنتين وثلاثين انتفاضة مسلّحة، كان بطلها جميعاً. وقد خسرها جميعاً. وقد أنجب سبعة عشر ولداً ذكراً، من سبع عشرة امرأة. وقد أعدموا جميعاً، الواحد بعد الآخر، في ليلة واحدة، ولم يبلغ أكبرهم الخامسة والثلاثين من عمره. وقد نجا العقيد أوريليانو بويندیا من أربع عشرة محاولة اغتيال، ومن ثلاثة وسبعين كميناً، ومن فصيل إعدام واحد. ولم تقتله كمية كبيرة من سمّ الستريكنين، وضعت في قهوته، وكانت تكفي لقتل حصان.

لقد رفض وسام الاستحقاق الذي منحه إياه رئيس الجمهورية. ورُقّي إلى رتبة القائد العام للقوات الثورية، وامتدت سلطته وصلاحياته إلى كل أنحاء البلاد، حتى أقصى حدودها، وكان الرجل الذي لم ترهب الحكومة أحداً مثله، ولكنه لم يسمح قطّ بأن تؤخذ له صورة واحدة. ولم يقبل راتباً تقاعدياً، مدى الحياة، بعد أن وضعت الحرب أوزارها. فعاش أيام شيخوخته من الدخل الذي كانت تدره عليه السمكات الذهبية الصغيرة التي كان يصنعها في مشغله في ماكوندو. ولقد قاتل دائماً على رأس رجاله، ولكنه لم يجرح سوى مرة واحدة، جرحاً هو الذي أوقعه بنفسه، بعد أن وقّع معاهدة نيرلانديا، التي وضعت حداً لما يقرب من عشرين سنة من الحرب الأهلية. عندما أطلق رصاصة من مسدسه في صدره، فنفذت الطلقة من ظهره، دون أن تصيب منه مقتلاً. أما الشيء الوحيد الذي بقي من كل تلك الأفعال العظيمة فهو شارع صغير باسمه

في ماكوندو. ومع ذلك، فقد صرّح قبل وفاته، وفاة الشيخوخة، ببضع سنوات، أنه لم يكن يتوقع شيئاً من ذلك، في فجر ذلك اليوم عندما رحل مع رجاله الواحد والعشرين لكي ينضمّ إلى قوات القائد الثوري الجنرال فيكتوريو مدينا.

كان كل ما قاله عند الرحيل، يومئذ:

«أركاديو، نحن نستودعك ماكوندو، ونغادرها وهي في حال جيدة، فاحرص على أن تكون في وضع أفضل عندما نعود».

وفسّر أركاديو ذلك التوجيه تفسيراً شخصياً خاصاً. فاخترع لنفسه بزّة عسكرية خاصة، وعلّق عليها شارات مشير. وقد اقتبس شكلها عن صورة وجدها في أحد كتب ملكيادس. وعلّق في حزامه سيف النقيب الذي أعدم، بمدالياته الذهبية، وركّز المدفعين في داخل القرية، وألبس قدامى طلابه الزيّ العسكريّ، بعدما شحذ حماستهم بخطبه الملتهبة. وسمح لهم بالسير في طرقات البلدة مسلحين، قاصداً أن يوحي للغرباء أن البلدة أمنع من أن تغلب. وقد كان لهذه الحيلة أو المظاهرة أثران أو حدّان مختلفان. فمن جهة، ظلت الحكومة ستة أشهر وهي لا تجرؤ على مهاجمة البلدة، ومن جهة أخرى، عندما عزمت على مهاجمتها، دفعت إليها بقوات كبيرة استطاعت أن تحتلها خلال نصف ساعة، تحطمت فيها كل المقاومة.

وقد بدا أركاديو، منذ اليوم الأول لتسلمه الحكم، مولعاً جداً بالشكليات والمراسيم. وبلغ به الأمر أنه كان يصدر أربعة مراسيم في اليوم الواحد، لمجرد أن يأمر وينفذ كلّ ما يعنّ له. وقد فرض الخدمة العسكرية الإجبارية على من بلغوا الثامنة عشرة من العمر، واعتبر الحيوانات الهائمة في الطرقات، بعد الساعة السادسة مساء، ملكاً للحكومة، وأجبر الرجال الكبار في السن، أي المتقاعدين، على حمل شرائط حمراء على

سواعدهم. وقد فرض الإقامة الجبرية على الأب نيكانور في الأبرشية (الدير)، تحت طائلة الإعدام إذا ضبط في الخارج. ومنعه من أداء خدمة الصلاة، وقرع جرس الكنيسة، إلاّ إذا كان ذلك احتفالاً بانتصار الأحرار. وأمر فصيل الإعدام بأن يتدرب، في الساحة العامة، على إطلاق النار على فزّاعة عصافير.

ولم يحمله أحد، في البدء، محمل الجد. فقد كان هو ورفاقه، في نظر الناس، مجرّد تلاميذ مدارس يمثلون أدوار الكبار. وذات مساء، دخل أركاديو بيت كاتارينو، فحيّاه عازف البوق بلحن عسكريّ أضحك الحاضرين. فما كان من أركاديو إلاّ أن أعدمه لإهانته السلطة. وأما الذين احتجوا على ذلك فقد كبّل أرجلهم بالأغلال، وسجنهم في غرفة الصف، ولم يقدم لهم سوى الماء والخبز.

وكانت أورسولا تثور عليه وتصرخ في وجهه، كلما علمت بواحد من تصرفاته الجائرة، قائلة: «أنت مجرم قاتل. وسوف يعدمك أوريليانو عندما يعلم بأمرك. وسأكون أول من يفرح بموتك». ولكن ذلك لم يكن مجدياً. فشدّد أركاديو قبضته أكثر، دونما مبرّر أو سبب موجب، حتى صار أقسى حاكم عرفته ماكوندو.

ولقد قال الدون أبولينار موسكوت ذات يوم: «دعهم يجربوا الفرق. تلك هي جنة الأحرار». ولما علم أركاديو بقوله، هاجم بيته على رأس دورية من الجنود، وحطم كل أثاثه، وجلد بناته، ثم سحب الدون أبولينار موسكوت نفسه وراءه سحباً إلى الطريق العام. وفي اللحظة التي كان أركاديو على وشك أن يصدر الأمر لفصيل الإعدام بإطلاق النار على الدون أبولينار موسكوت، اندفعت أورسولا إلى ساحة القيادة، بعد أن طافت البلدة وهي تصرخ وتولول بالعار الذي لحق بها، وهي هائجة وتحمل بيدها سوطاً مطليّاً بالقار. وعندما وصلت إلى أركاديو، صاحت

به قائلة: «تجرأ، أيها اللقيط».

وقبل أن تبدر من أركاديو أية حركة أو أي فعل، ضربته أول سوط، وهي تصرخ: «تجرأ، أيها القاتل. ثم اقتلني أيضاً، يا ابن المرأة الشريرة. اقتلني، فلا تعود لي عينان تبكيان عاراً لأنني ربّيت وحشاً مثلك». ثم راحت تمطره بالسوط ضرباً بلا رحمة، حتى تصاغر أركاديو وانطوى على نفسه كبزّاقة صغيرة في صدفة.

كان الدون أبولينار موسكوت، خلال ذلك، مغمى عليه، وهو مشدود إلى عمود في مكان فزّاعة العصافير التي مزّقتها طلقات التدريب والمزاح. وتفرق الفتيان الذين كانوا يؤلفون فصيل الإعدام، خشية أن تصب أورسولا عليهم جام غضبها، ولكنها لم تنظر إليهم مجرّد نظر. وتركت أركاديو، ملقى على الأرض، وقد تعفّر زيه العسكري بالتراب، وهو يزأر ألماً وغضباً، وتقدمت من الدون أبولينار موسكوت، ففكت قيده وأعادته إلى بيته. وقبل أن تغادر القيادة حرّرت جميع المسجونين من القيود والأغلال.

منذ ذلك اليوم، تسلمت أورسولا قيادة البلدة وحكمها. فأعادت صلاة الأحد إلى الكنيسة، وأوقفت حمل الشرائط الحمراء، وألغت كل القيود التي فرضها تقلب المزاج. ولكنها، على الرغم من القوة التي أبدتها، لم تكن تنفك عن بكاء حظها العاثر. وقد شعرت بوحدتها القاسية، حتى لاذت بصحبة زوجها غير ذات النفع، وكان هناك منسيّاً تحت شجرة الكستناء.

كانت تخاطب زوجها، وأمطار حزيران (يونيو) تكاد تهدم مأواه: «أنظر إلى ماذا آلت حالنا. فقد تفرّق أولادنا في كل أنحاء الدنيا. أنظر إلى بيتنا الخالي من الناس، فها نحن وحيدان من جديد، كما كنا في أيامنا الأولى».

لكن خوزيه أركاديو بوينديا، وهو الغارق في هوّة اللاشعور، كان أصمّ عن نحيبها وحزنها ورثائها لما آلت إليه الحال. لقد كان، في بداية حالة اللاوعي وفقدان الرشد لديه، يعبر عن حاجاته اليومية بعبارات لاتينية مقتضبة. وكانت تمرّ به ومضات صحو قصيرة عندما تجيئه أمارانتا بالطعام، فيتحدث عن آلامه وما يرزح تحته من عناء، ثم يستسلم بلطف وخضوع لكؤوس حجامتها وكمّاداتها الخردلية. ولكنه، في الفترة التي بدأت أورسولا تلوذ به لتنتحب لديه وتشكو حظهما، كان قد فقد كلّ صلة له بالواقع. فكانت تغسل له جسمه، عضواً عضواً، وهو جالس على مقعده الخشبي الصغير، وهي تقص عليه أخبار العائلة. فتقول له وهي تفرك ظهره بليفة مبلولة بماء الصابون: «ذهب أوريليانو إلى الحرب منذ أربعة أشهر، ونحن لا نعلم عنه، حتى الآن، شيئاً. وقد عاد إلينا خوزيه أركاديو، وهو الآن رجل كامل، أطول منك، وقد غطى الوشم جسمه كله فكأنه شغل الإبرة، ولكنه ما عاد إلاّ ليدنس بيتنا بالعار». وخيّل إليها أنّ زوجها كان يزداد حزناً عندما يسمع الأخبار السيئة. فقررت أن تكذب عليه. فجعلت تقول، وهي تلقي الرماد على برازه قبل أن تجرفه بعيداً: «لن تصدق ما سأقول لك. فقد شاء الله أن يتزوج خوزيه أركاديو وريبيكا، وهما الآن في غاية السعادة».

وكان عليها أن تكون مخلصة في خداعها، فإذا بأكاذيبها تغريها هي نفسها. فتابعت تقول: «صار أركاديو الآن رجلاً عاقلاً وجاداً، وشجاعاً جداً، وفتى جميلاً ببزته العسكرية وسيفه المصقول».

ولكنها كانت كمن يتحدث للموتى، فقد كان خوزيه أركاديو بوينديا أبعد من أن تدركه الهموم. ولكنها أصرت وثابرت على ذلك. ولكنه كان هادئاً جامداً، لا يبالي بشيء، فعزمت على إراحته مما كانت تبثه إياه. فلم يكن، حتى يبرح مقعده الخشبي الصغير، بل يظل في مكانه

عرضة للشمس والمطر، حتى لكأن الحبال لم تكن هي التي تشده إلى شجرة الكستناء، بل هي قوة خفية لا ترى. ولما اقترب شهر آب (أغسطس)، وتبدّى الشتاء كأنه لا يعرف انتهاء، كان بوسع أورسولا، أخيراً، أن تنقل إليه نبأ على شيء من الصحة، فقالت له :

«هل تصدق أن حسن الحظ لا يريد أن يتخلى عنّا. إنّ أمارانتا والشاب الإيطالي صاحب البيانو الآلي سوف يتزوجان».

والواقع أن أمارانتا وبيترو كريسبي قد عمّقا صداقتهما هذه المرة. تصونهما أورسولا، التي لم تعد تجد ضرورة لمراقبة مواعيدهما ولقاءاتهما. وقد كانت خطوبتهما في مثل لون الشفق. فقد كان الإيطالي يصل قبيل الغسق، وزهرة الجاردينيا في عروة سترته. فيترجم لأمارانتا قصائد غنائية من شعر بيتزارك. ويجلسان في الشرفة التي تعبق برائحة الدانتيلا ، غير عابئِين بالحرب وتقلباتها ومناوراتها وأخبارها ، حتى يكرههما الدانتيلا، غير عابئين بالحرب وتقلباتها ومناوراتها وأخبارها، حتى يكرهها البعوض على الدخول إلى الصالة. وشيئاً فشيئاً، نسجت حساسية أمارانتا ورقتها الصامتة الودودة الحانية ما يشبه بيت العنكبوت الخفي حول خطيبها. وكانا يظلان على تلك الحال من الجو المفعم بالعاطفة والحب حتى تأزف الساعة الثامنة صباحاً عندما يهصرها بذراعيه وأصابعه الرقيقة العارية من الخواتم، ويفارق البيت والحب يعمر كيانه. وقد ملأ حافظة(١) صور جميلة كاملة بالبطاقات البريدية التي كان بيترو كريسبي يتلقاها من إيطاليا. وكانت البطاقات صوراً لعشاق في متنزهات منعزلة، وعليها رسوم وأشكال لقلوب نفذت منها سهام، وأشرطة مذهبة تحملها حمائم بيض. وكان بيترو كريسبي يقلب تلك البطاقات، ويقول لأمارانتا : «لقد زرت هذا المتنزه ، فأنا أعرفه جيداً . ويكفي أن يمدّ الإنسان

(١) ألبوم Album .

يده كي تأتي الطيور فتحط عليها وتطعم منها». وكان إذا توقف أمام لوحة مائية لمدينة البندقية (فينيسيا) يستبد به الحنين، فيشم رائحة عطر الورد في وحلها وأصداف البحر المهترئة على أطراف الأقنية، قرب بحرها. وكانت أمارانتا تتنهد وتتأوه، وتضحك، وتحلم بوطن ثان، فيه رجال ظرفاء لطفاء أنيقون، ونساء جميلات يتحدثن بلغة كلغة الأطفال، وفيه مدن عريقة قديمة لم يبق من عظمتها الغابرة غير قطط تجوس بين خرائبها.

وأخيراً وجد بيترو كريسبي الحب، بعد أن عبر المحيط باحثاً عنه، وبعد أن اختلط عليه الأمر وضيعه هوى روبيكا الجامح بنزواتها العنيفة. وتوافقت السعادة عنده مع النجاح، فصار مخزنه يشغل واجهة بعرض مجموعة من البيوت، وبات مكاناً يقصده الناس للنزهة والمشاهدة والترويح عن النفس، يحلو لهم الوقوف أمامه، بما كان يشتمل عليه من نسخ مصغّرة لبرج الجرس في فلورانسا الذي كان يعلن عن الوقت بموسيقى جوقة رائعة، وصناديق سورنتو الموسيقية، وعلب المساحيق الصينية، التي تعزف خمسة أنغام عندما يرفع غطاؤها، وكل أنواع الآلات الموسيقية التي يمكن أن يتصورها الخيال، واللعب الآلية ذات النوابض التي يمكن أن يدركها الاختراع.

وكان أخو بيترو كريسبي الأصغر، واسمه برونو كريسبي، هو الذي يدير المخزن ويشرف عليه، لأن بيترو كريسبي لم يكن يجد من الوقت ما يزيد على انشغاله واهتمامه بمدرسة الموسيقى. ويعود له الفضل في أنّ شارع الأتراك، بما كان فيه من واجهات متلألئة بالدمى الرائعة، قد أصبح واحة تملؤها الأنغام الحلوة، حتى ينسى فيها المرء أفعال أركاديو الظالمة التعسفية وكابوس الحرب البعيد.

وعندما أمرت أورسولا باستئناف الصلوات الكنائسية يوم الأحد من

كل أسبوع، قدّم بيترو كريسبي للكنيسة، هديةً، آلة موسيقية ألمانية (أرغن)، ونظم جوقة من الأطفال الذين درّبهم وهيّأهم، وأعدّ أنغاماً جريجورية أضافت إلى طقوس الأب نيكانور الهادئة أبهة وعظمة. ولم يكن في البلدة أحد يشك في أنه سوف يجعل أمارانتا شريكة حياة سعيدة محظوظة.

وقد ترك الخطيبان قلبيهما على سجيتهما، دون أن يستحثا عواطفهما، حتى بلغا فترة وجدا فيها أنه لم يبق أمامهما إلا أن يحددا موعد الزواج. ولم يواجها في ذلك أية صعوبة. وكانت أورسولا تتهم نفسها، في أعماقها، بأنها هي التي أساءت إلى مستقبل روبيكا بتكرار تأجيل زواجها. ولكنها، الآن، لم تكن مستعدة للتفكير بتأنيب الضمير. وقد نشأ عن أحداث الحرب أن تراجع الحداد القاسي على ريميديوس إلى الدرجة الثانية، فبات شيئاً في خلفية الذهن. وقد سبّب ذلك، إضافة إلى شؤون الحرب، أموراً أخرى منها: غياب أوريليانو، ووحشية أركاديو، وإبعاد خوزيه أركاديو وروبيكا.

ولما اقترب موعد الزفاف، ألمح بيترو كريسبي إلى أنه يود اعتبار أوريليانو خوزيه ابنه البكر، لأنه يحبه حباً يكاد يكون أبوياً. وكان كل شيء ينبىء بأنَّ أمارانتا كانت مقبلة على سعادة وهناء، ولو أنها لم تكن تستعجل الأمور، كما كانت روبيكا، ولم تكن تبدي أي نوع من القلق. فقد انتظرت اليوم الذي يذعن فيه بيترو كريسبي لنداء قلبه، فلا يستطيع له مقاومة، في صبر وأناة، تماماً تفعل وهي تصبغ الأقمشة وتزينها بالألوان، وهي تخيط القطع الفنية الرائعة، وهي تطرز بإبرتها الطواويس الملكية المزخرفة.

وأخيراً، حلّ يومها متوافقاً مع أمطار تشرين الأول (أكتوبر) العاثرة السوداء. سحب بيترو كريسبي من يدها إطار التطريز، الذي كانت تركزه

على ركبتيها، وتناول يدها فضغط عليها بيديه، وقال لها:

«سوف نتزوج في الشهر القادم».

ولم تتأثر أمارانتا بلمس يديه الجليديتين، فسحبت يدها من بين يديه، كحيوان صغير خائف، وعاودت عملها، وقالت له مبتسمة:

«لا تكن بسيطاً، يا كريسبي. فلن أتزوج منك حتى ولو كنت ميتة».

وفقد بيترو كريسبي السيطرة على نفسه، وأخذ يبكي بذل، ودون خجل، حتى كاد يحطم أصابعه يأساً وقنوطاً، ولكنه لم يفلح في زحزحتها عن موقفها. ولم تجد أمارانتا سوى جملة وحيدة أخرى تضيفها، فقالت له:

«لا تضع وقتك. وإن كنت تحبني فعلاً إلى هذا الحدّ، فلا تطأ هذه الدار بعد اليوم أبداً».

وكادت أورسولا تفقد صوابها خجلاً. واستنفد بيترو كريسبي كل أساليب الرجاء والاستعطاف. وعانى أشكالاً لا تصدق من الإهانة والإذلال. فقد أمضى عصر أحد الأيام كله يبكي بين ذراعي أورسولا، وهي تودّ لو تقدم روحها ثمناً لمواساته والتسرية عنه.

كان يُرى في بعض الليالي الماطرة وهو يدور حول البيت، حاملاً مظلته، لعله يلمح بعض النور في غرفة نوم أمارانتا. ولم يرتد في حياته ثياباً أحسن من تلك التي كان يرتديها في تلك الفترة. وقد اكتسى وجهه، الشبيه بوجه أمبراطور معذّب، هيئة من العظمة العجيبة. ولطالما توسّل لصويحبات أمارانتا، اللواتي كنّ يذهبن للتطريز معها في الشرفة، لعلهنّ يحاولن إقناعها. وقد أهمل عمله، وراح يقضي اليوم بطوله جالساً في مؤخرة المخزن، وهو يكتب الأوراق والملاحظات غير المعقولة، يبعث بها إلى أمارانتا، وفي داخلها أوراق أزهار وفراشات جافة، ولكنها

كانت تعيدها إليه غير مفتوحة. كان ينزوي مغلقاً الباب على نفسه، ساعات طويلة، وهو يعزف على قيثارته. وقد غنّى ذات ليلة، كما لم يُسمع غناء من قبل، فاستفاقت ماكوندو كلها مذهولة مندهشة، وقد رفعتها إلى السماء السابعة قيثارة لا يليق بها أن تعزف في هذا العالم، وصوت يحمل من الحب ما لا يمكن أن يحمله صوت أو يوجد مثله على الأرض.

وعندها رأى بيترو كريسبي الأنوار كلها تضاء في كل نوافذ القرية ما عدا نافذة أمارانتا. . وفي الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر)، يوم جميع الأرواح، فتح أخوه المخزن فوجد كل القناديل مضاءة، وجميع صناديق الموسيقى مفتوحة، وقد توقفت الساعات جميعاً عند رقم ساعة معيّنة لا تبرحها. ثم وجد في وسط تلك الفوضى المرية بيترو كريسبي على مكتبه في آخر المخزن، وقد انقطع رسغاه بموسى وألقيت يداه في حوض من البخور.

وقد أمرت أورسولا بأن يكون السهر على الجثمان في بيتها. وقد اعترض الأب نيكانور على أن تقام مراسم دينية، وعلى دفنه في المقبرة المسيحية. ولكن أورسولا تصدّت له قائلة :

ـ «إن هذا الرجل قديس، ولكن من كان مثلك ومثلي لا يستطيع فهم ذلك. ولذلك، فإنني سأدفنه، على الرغم من إرادتك، إلى جانب ضريح ملكيادس».

وقد نفذت أورسولا إرادتها، فأقيمت له جنازة مهيبة عظيمة، بتأييد أهل البلدة كافة. ولكنّ أمارانتا لم تغادر غرفة نومها. فقد لزمت مكانها تستمع لانتحاب أمها ودمدمة الحشود الكبيرة، وعويل النساء الباكيات الحزينات وخطا الجماهير التي كانت تملأ الدار. ثم تلا ذلك كله صمت عميق، تعبق فيه رائحة الأزهار التي كانت تدوسها الأقدام. وظلت

أمارانتا، لأمد طويل، تشم رائحة الخزامى التي كانت تميز بيترو كريسبي وتسبق وصوله مع المساء إلى الدار. ولكنها كانت على قدر من القوة لم تستسلم معه للدوار.

وقد نبذتها أورسولا وتجاهلتها تماماً : حتى إنها لم ترفع عينيها لتنظر في وجهها مشفقة مواسية، يوم اندفعت أمارانتا، عصراً، إلى المطبخ، ودفعت يدها بين جمر الموقد، حيث أبقتها حتى بلغ الألم ذروته وزايلها الإحساس به، فلم تعد تشعر إلاّ بما تشمّه من رائحة لحمها المحترق. وقد كان ذلك منها دواء فاجعاً وغبياً لتأنيب الضمير. وبقيت بعد ذلك أياماً تدور في أنحاء البيت ويدها مغمورة في بياض البيض ولما شفيت الحروق بدا كأنّ بياض البيض قد خلّف، لا على يدها وحسب، بل على أوجاع قلبها أيضاً ندوباً باقية. ولم يبق من أثر خارجي لتلك المأساة سوى ضماد أسود كانت تربط به يدها التي احترقت، وظل يرافقها طوال حياتها.

وقد أبدى أركاديو كرماً نادراً حين أصدر أمراً بالحداد العام على بيترو كريسبي. وقد أوّلت أورسولا بادرته تلك بأنها عودة الحمل التائه إلى الحظيرة. ولكنها كانت مخطئة. فهي لم تفقد أركاديو يوم ارتدى البزة العسكرية، وإنما فقدته منذ البداية. فلقد كانت تعتقد أنها قد ربّته ابناً لها تماماً كما ربّت روبيكا دون امتياز أو تمييز. والواقع أن أركاديو قد كان خلال المدة المنصرمة، أيام وباء الأرق، وأيام الحمّى التي أصابت أورسولا، وأيام جنون خوزيه أركاديو بوينديا، وأيام انطواء أوزيليانو على نفسه واعتزاله الناس، وأيام العداء المستفحل بين أمارانتا وروبيكا، كان خلال ذلك كله طفلاً يعيش منعزلاً خائفاً في وحدته. فقد علمه أوريليانو القراءة والكتابة، وهو دائماً يفكر بأمور أخرى كان مشغولاً بها، تماماً كما لو كان يعلّم طفلاً غريباً. وكان يعطيه ملابسه عندما تضيق عليه، فتعدّلها فيزيتا سيون كي تناسبه بدلاً من أن ترمى. ولطالما كان يعاني من الحذاء

الكبير على قدميه، ومن بنطاله المرقّع، ومن قفاه الشبيه بردفي امرأة. ولم يكن يستطيع قط أن يبوح بما يعتمل في صدره إلاّ لفيزيتا سيون وكاتور بلغتهما.

كان ملكيادس هو الوحيد الذي يهتم به فعلاً، فيقرأ عليه نصوصاً غامضة لا تفهم، ويعلمه فنّ التصوير. ولا يعلم أحد كم بكى أركاديو في سره، وكم حاول جاهداً أن يبعثه من موته، وهو يقرأ بيأس الأوراق المبعثرة التي خلفها له.

ولكن المدرسة التي كان يعلم فيها الأولاد، وقد جلبت له اهتمام الآخرين واحترامهم، ثم ممارسة السلطة وإصدار المراسيم والأوامر الصارمة، من بعد، وبزة المجد العسكرية التي ارتداها، كلّ ذلك حرّره من مرارات الماضي وأثقال ذكرياته القاسية. ففي مساء أحد الأيام، تجرأ رجل في مخزن كاتارينو، وقال له :

ـ أنت لا تستحق الاسم الذي تحمله.

ولكن أركاديو لم يأمر بإعدامه، خلافاً لما كان ينتظر منه، بل أجاب :

ـ هذا من دواعي فخري، فلست من آل بوينديا.

وقد ظن من كانوا يعرفون سرّ ولادته، عندما سمعوا جوابه، أنه كان مطلعاً على السر. والواقع أنه كان في جهل تام من أمره. فهو عندما رأى أمه بيلار تيريزا، التي منحته الدم الذي يسري في عروقه، في مشغل التصوير، سحرته وملكت عليه لبه أكثر مما فعلت بأبيه خوزيه أركاديو وعمه أوريليانو من بعده. فقد كان يبحث عنها، على الرغم من أنها كانت قد فقدت الكثير من إغرائها ورواء ضحكتها، ثم يعثر عليها مهتدياً برائحة الدخان التي ترافقها.

وفي ظهيرة أحد الأيام، قبيل نشوب الحرب بفترة قصيرة، تأخرت قليلاً في المجيء لأخذ ولدها الصغير من المدرسة. وكان أركاديو ينتظرها

في الغرفة التي يقضي فيها قيلولته أحياناً. وهي الغرفة نفسها التي اتخذها سجناً فيما بعد. وبينما كان الطفل يلهو في باحة المدرسة في انتظار أمه، كان أركاديو يرتجف قلقاً وشوقاً في أرجوحته، مدركاً أن بيلار تيريزا سوف تمرّ من هناك.

ولما وصلت أمسك أركاديو بيدها وحاول أن يشدها إلى أرجوحته. فقاومته بيلار تيريزا خائفة، قائلة :

ـ لا أستطيع. لا أستطيع. آه لو تعرف كم أحبّ أن أجعلك سعيداً. ولكنّ الله يعلم أنني لا أستطيع.

وطوّق أركاديو خصرها بتلك القوة الخارقة التي ورثها من أبيه، وأحس كأن العالم كله يتبخر عندما لامس جسدها. ثم قال لها :

ـ لا تتظاهري بأنك قديسة. فالناس جميعاً يعلمون أنك عاهرة.

وكظمت بيلار تيريزا غيظها وألمها وحنقها على قدرها البائس. ثم تمتمت قائلة :

ـ سوف ينتبه الأولاد للأمر. ومن الأفضل ألاّ تقفل الباب بالعارضة هذه الليلة.

وانتظرها أركاديو في تلك الليلة، وهو يرتعد، في أرجوحته، من الحمّى التي يغلي بها جسده. وطال انتظاره دون أن يغمض له جفن ولو للحظة واحدة، بينما كان يصيخ السمع لأصوات الصراصير التي بدأت تنبىء بقرب بزوغ الفجر، ويستمع لوطء أقدام حرس الدوريات في الطرقات بين ساعة وأخرى، وهو يزداد قناعة، لحظة بعد أخرى، بأنه كان ضحية خدعة منها.

وفجأة، وفي اللحظة التي استحال فيها قلقه إلى غضب. انفتح الباب. وبعد شهور من تلك الليلة، وأمام فصيل الإعدام، عاودته تلك

اللحظة، بما كان فيها من جيئة وذهاب وسير على غير هدى في غرفة الصف، وتعثر بمقاعد الطلاب، وأخيراً بروز ذلك الجسم في ظلال الأشياء في الغرفة، والتقاء يديه بذلك الجسد في الظلام، وذلك النفس المضطرب الصادر من قلب، غير قلبه، كان سريع الخفقان. وفي الظلام مدّ يده فصادفت يداً أخرى، في إصبع من أصابعها خاتمان، وصاحبة اليد غارقة في سواد الظلام الحالك. فتقرّى[1] تعرّج عروقها وانسيابها، ونبضها اليائس، وتحسس راحة يدها الرطبة، تلك اليد التي هصرت فيها مخالب الموت خط الحياة عند أسفل الإبهام.

وعندما أدرك أركاديو أن تلك المرأة لم تكن بيلار تيريزا. لم تكن المرأة التي كان ينتظر. فهو لم يشم فيها رائحة الدخان المألوفة، بل رائحة عطر زهري. ولامس فيها ثديين ممتلئين ناتئين أعميين، لهما حلمتان شديدتان كأنهما حلمتا رجل، ولامس فيها هَناً(٢) رابي المجسّة مدوّراً كجوزة كبيرة، وحناناً ولطفاً عديم التجربة ولكنه ملتهب.

كانت عذراء، ولها اسم غريب: سانتا صوفيا(٣) التقية. وقد دفعت لها بيلار تيريزا خمسين بيزواً، وهو نصف ما اقتصدته في حياتها كلها، لكي تقوم بهذه المهمة. ولقد سبق لأركاديو أن رآها، من قبل، عدة مرات، وهي تدير دكان البقالة لذويها، ولكنه لم يركز اهتمامه عليها. فقد كانت فيها تلك الخلة النادرة، فهي لا تبين، بمعنى أنها لا تسترعي الانتباه، إلاّ في اللحظة المناسبة. ولكنها منذ ذلك اليوم أخذت تأتي إليه دائماً، تفيء كقط صغير إلى حرارة ذراعيه، فكانت تجيء إلى المدرسة، ساعة القيلولة، بموافقة أهلها، بعد أن قدمت لهم بيلار تيريزا النصف

---

(١) تحسس.
(٢) عضو الجنس في المرأة.
(٣) القديسة صوفيا.

الآخر مما اقتصدته في حياتها. وعندما أخرجه جنود الحكومة، فيما بعد، من المدرسة، حيث كانا يتبادلان الحب، أخذا يتبادلان الحب في الجزء الخلفي من المخزن بين علب الدسم وأكياس الذرة. وفي الفترة التي سمّي فيها أركاديو قائداً مدنياً وعسكرياً، تقريباً، رزق طفلة كانت ثمرة ذلك الحب.

ولم يدر بالأمر أحد من أفراد العائلة غير خوزيه أركاديو(١) وزوجته روبيكا. فقد كان أركاديو على علاقة حميمة معهما، مبنية على شعور بالمشاركة والمودّة أكثر منها على القربى.

وكانت قد دانت غطرسة خوزيه أركاديو لنير الزواج، بعد أن لطّفه طبع روبيكا الحازم وطاقة جسدها الهائلة، وطموحها غير المحدود، مما أمكن معه توجيه قدرة زوجها الخارقة إلى العمل. فتحوّل من رجل كسول وزير نساء إلى رجل عامل ليس له مثيل. وصار لهما بيت نظيف منظم، كانت روبيكا تشرع أبوابه ونوافذه منذ الفجر، فيدخل إليه الهواء المار بالمقابر من النوافذ، ويغادره من الأبواب المطلة على فناء الدار، فيصبغ طلاء الجدران الأبيض، وأثاث البيت بدبق فيه ملح الموتى. أما جوعها ونهمها لأكل التراب، وطقطقة عظام أبويها، ونفاد صبرها واشتعال دمها أمام عواطف بيترو كريسبي الباردة، فقد دفنت جميعاً في طيات النسيان والذكريات. فكانت تقضي نهارها وهي تحوك أمام النافذة، جاهلة أمور الحرب وويلاتها، حتى تغلي قدور السيراميك على النار، فتنهض لطهو الطعام، قبل أن تظهر كلاب الصيد النحيلة، وهي تتقدم العملاق، بأطقم رجليه ومهمازيه، وهو يحمل بندقيته ثنائية الطلقات، وعلى كتفه، أحياناً، غزال، وفي كل مرة تقريباً عدد من الأرانب والبط البريّ المشكوك بشريط يتدلى من كتفه كالقلادة.

---

(١) والد أركاديو.

وفي أصيل أحد الأيام، جاء إليهما أركاديو، وكان ذلك بعد أن تسلم السلطة، بقصد الزيارة دون موعد سابق. ولم يكن سبق لهما أن رأياه منذ غادرا الأسرة. ولكنه بدا لهما ودوداً، وأظهر لهما من المحبة ما أشعرهما بأنه ما زال يعتبرهما من أفراد العائلة، فدعياه إلى مشاركتهما الطعام.

وعندها، وبينما كانوا يحتسون القهوة أفصح لهما أركاديو عن سبب زيارته. فقد تلقى شكوى ضد خوزيه أركاديو. فقد نقل عنه أنه، بعد أن بدأ بزراعة أرضه الخاصة، قد هدم الحواجز والأسيجة بينه وبين جيرانه، وأزال بيوتهم بثيرانه، واستولى بالقوة على أفضل قطع الأرض المجاورة. وأما الفلاحون الذين أبقى على أرضهم، لأنه لم يكن مهتماً بها لأنها لم تعجبه، فقد فرض عليهم أتاوة (ضريبة) يجمعها منهم كل يوم سبت، حين يجيئهم بكلابه وبندقيته. ولم ينكر خوزيه أركاديو تلك التهمة، بل زعم أن ذلك حق له، لأن الأرض التي اغتصبها إنما كان قد وزّعها أبوه خوزيه أركاديو بوينديا على الناس، عند تأسيس القرية. وكان يعتقد أنه كان بوسعه، منذ ذلك الحين، أن يثبت أنّ أباه كان أحمق، لأنه تصرف بأملاك هي للعائلة كلها. ولكنّ دفاعه كان بلا معنى، لأنه كان مجرّد زعم لا ضرورة له. وما كان مجيء أركاديو لكي يقيم العدالة. فقد بيّن له أنه يريد إنشاء دائرة للتسجيل، يسجل فيها المالكون عقاراتهم، وبذلك يستطيع خوزيه أركاديو أن يسجل الأرض، فيجعل ما اغتصبه شرعياً، شريطة أن يتخلى للحكومة المحلية عن حق جمع الأتاوات والضرائب. وتمّ الاتفاق على ذلك. وبعد سنوات من تاريخ هذه الاتفاقية، وعندما راجع العقيد (الكولونيل) أوريليانو بوينديا سندات التمليك، اكتشف أنّ أخاه خوزيه أركاديو كان قد سجّل باسمه كل الأرض التي يمكن أن يدركها النظر، من المرتفع الذي كان يقع عليه بستانه، حتى آخر الأفق،

بما في ذلك المقبرة. واكتشف كذلك أن أركاديو قد ملأ جيوبه من عائدات الضرائب والأتاوات، وما كان يختلسه من المواطنين لقاء دفن موتاهم في المقبرة الواقعة في أرض خوزيه أركاديو.

ولم تدر أورسولا بهذا الأمر إلاّ بعد بضعة أشهر، بينما كان الخبر شائعاً بين الناس. وقد أخفى الناس عنها ذلك الأمر كي لا يزيدوا في معاناتها وآلامها. وقد خامرتها الشكوك في ذلك، فأسرّت إلى زوجها، وهي تحاول أن تدخل بين أسنانه ملعقة من العصير، قائلة له:

ـ إن أركاديو يبني بيتاً.

ولكن قولها ذاك لم يمنع تحسّرها، فمضت قائلة وهي تتنهّد:

ـ ولكنني لا أدري لماذا. فهو لا يعني لي شيئاً، بل كأنني أشمّ رائحة شيء غير مريح.

وأخيراً انقلبت ظنونها إلى يقين عندما تبيّنت أن أركاديو كان يختلس الأموال العامة، ولا سيما عندما عرفت أنه لم يفرغ من بناء البيت وحسب، بل طلب أيضاً أثاثاً للبيت من فيّنا. وذات يوم أحد، وبينما كانت خارجة من الكنيسة بعد الصلاة، شاهدته في بيته الجديد وهو يلعب الورق (ورق اللعب) مع ضباطه، فصاحت به قائلة:

ـ أنت عار لاسم عائلتنا.

ولكن أركاديو لم يكترث لها. وعندئذ فقط علمت أورسولا أن له طفلة عمرها ستة شهور، وأنه يعيش حياة غير شرعية مع سانتا صوفيا، وأنّ هذه حامل من جديد. فعزمت على أن تكتب لابنها العقيد أوريليانو حيثما كان، لتطلعه على ما آلت إليه الأوضاع. ولكن الأحداث تسارعت، حتى إنها لم تصرفها عن تنفيذ ما أرادت وحسب، بل إنها جعلتها كذلك تندم على مجرّد التفكير في ذلك. فقد كانت الحرب،

حتى ذلك الحين، مجرد فكرة غامضة بعيدة عن الناس، ولكنها ما لبثت، بعد ذلك، أن أصبحت واقعاً مأساوياً ملموساً.

ففي أواخر شباط (فبراير)، وصلت إلى ماكوندو امرأة عجوز غبراء شعثاء، تترنح على ظهر حمار محمّل بالمكانس. وكانت من العجز والضعف بحيث لم يأبه لأمرها الحرس القائمون عند مداخل البلدة. فمرّت كما يمرّ غيرها من الباعة الذين كانوا يفدون دائماً من قرى مستنقعات الماريجو. وقد ذهبت مباشرة إلى مركز القيادة. واستقبلها أركاديو في المكان الذي كان من قبل غرفة صف، ثم تحوّل مع ما يحيط به إلى نوع من المعسكر المحصّن، مليء بالأراجيح المطوية المعلقة بملحقاتها، والفرش المكدّسة في الزاوية، والبنادق والغدّارات وأسلحة الصيد المبعثرة على الأرض هنا وهناك. فاتخذت العجوز هيئة جدية، وأدّت التحية العسكرية، ثم أعلنت عن هويتها وعرّفت بنفسها:

«أنا العقيد (الكولونيل) جريجوريو ستيفنسون».

وكان العقيد يحمل أخباراً سيئة. فحسب أقواله، كانت آخر معاقل الأحرار على وشك السقوط. وقد طلب إليه العقيد أوريليانو بوينديا، الذي ظلّ وراءه يقاتل متقهقراً في منطقة جوار ريوهاشا، أن يزور أركاديو ويطلعه على الأمر. ثم بلغه أن عليه أن يستسلم وأن يسلم البلدة دون مقاومة، شريطة عدم المساس بحياة الأحرار وممتلكاتهم التي ينبغي أن تصان وتحترم. وراح أركاديو يتفحص ذلك الرسول الغريب الذي يشبه عجوزاً هاربة تستحق الشفقة. ثم قال له:

ـ «لا بدّ أنك تحمل لنا شيئاً مكتوباً.

فأجاب الرسول:

ـ طبعاً لا. فالحق أنني لا أحمل شيئاً من هذا. فمن السهل أن تدرك أننا في مثل هذه الظروف لا يمكن أن نحمل معنا ما يمكن أن يكشف

أمرنا.

وبينما كان يتحدث، أخرج من حزامه سمكة ذهبية صغيرة، وضعها على الطاولة، وقال:

ـ أظن أن هذه تكفي.

وأدرك أركاديو أنها فعلاً من تلك السمكات الصغيرة التي كان يصنعها العقيد أوريليانو بوينديا. ولكن، ألا يمكن أن يكون شخص ما قد اشتراها قبل الحرب، أو حتى سرقها. وعلى ذلك، فهي لا قيمة لها كإمارة أو علامة على كلمة سر. ولذلك، اضطر الرسول لعمل أقصى ما يستطيع، وهو إفشاء سرّ عسكري علهم يصدّقونه ويتيقنون من هويته، فكشف لهم أنه موكل بمهمة إلى كوراساو، حيث يأمل أن يجند المنفيين من كل أرجاء منطقة الكاريبي، وأن يحصل على السلاح والعتاد والمؤن الكافية لمحاولة القيام بإنزال قبيل آخر السنة. وإيماناً من العقيد أوريليانو بوينديا، وثقة منه، بهذه الخطة، فهو يفضل عدم تقديم أية تضحيات لا جدوى منها في الوقت الحاضر. ولكن أركاديو بوينديا لم يلن ولم يصدق الرسول، بل زجّ بالرسول في السجن، ريثما يتحقق من هويته، وقد عزم على الدفاع عن البلدة حتى الموت.

ولم ينتظر طويلاً، فما لبث أن وصلته الأنباء عن تقهقر الأحرار، ثم تواترت تلك الأنباء يوماً بعد يوم. وفي أواخر شهر آذار (مارس)، وقبيل بزوغ الفجر، بعد ليلة شهدت مطراً غزيراً، في غير حينه، تفجر الهدوء المتوتر الذي خيّم على البلدة طوال أسبوعين، وكان كالهدوء الذي يسبق العاصفة. وقد تمثل ذلك بأصوات أبواق رهيبة، تلتها قذيفة مدفع أطاحت ببرج الكنيسة. والواقع أن قرار أركاديو بالمقاومة كان ضرباً من الجنون. فلم يكن لديه سوى خمسين رجلاً مسلحين بأسلحة بسيطة، وهم سيئو التدريب قليلو الذخيرة، إذ لم يكن لدى الواحد منهم أكثر من

عشرين طلقة. ولكنهم، وهم قدامى طلابه الذين ألهب حماستهم بخطاباته النارية، قرروا أن يصمدوا مضحين بأنفسهم في معركة خاسرة.

وفي غمرة وقع أقدام الجند، المختلط بالأوامر المتضاربة، ودويّ المدافع الذي كانت ترتج له الأرض بما عليها، وأزيز الرصاص المنهمر جزافاً، وأصوات الأبواق التي لا تعني شيئاً، تمكن الرسول الذي سمّى نفسه العقيد ستيفنسون من مقابلة أركاديو ومخاطبته. فقال له :

ـ جنّبني عار الموت مقيداً وفي أسمال امرأة. فإذا كان لا بدّ لي من الموت، فلأمت وأنا أقاتل.

واقتنع أركاديو برأيه، وأمر جنوده بأن يعطوه سلاحاً وأن يسلموه عشرين طلقة، وكلفه، مع خمسة رجال آخرين، بالدفاع عن القيادة العامة، بينما ينتقل هو وأركان حربه إلى خطوط المقاومة الأولى.

ولكنه لم يتمكن من بلوغ طريق المستنقعات، فقد تحطمت الاستحكامات، وتراجع المدافعون إلى الوراء، في قتال مكشوف في الشوارع. وقد قاوموا فعلاً حتى نفدت ذخائرهم القليلة، فقاتلوا بمسدساتهم ضد البنادق، ثم كان الالتحام بالسلاح الأبيض والأيدي والأجساد. وعندما بدت الهزيمة واضحة للعيان، اندفعت النساء إلى المعركة، سلاحهن العصيّ وسكاكين المطابخ. وفي خضم هذا الأتون المضطرب، من الصراع والفوضى، وجد أركاديو نفسه وجهاً لوجه أمام أمارانتا، التي خرجت، في ثياب النوم، تبحث عنه كالمجنونة، وبيدها مسدسان قديمان كانا لأبيها خوزيه أركاديو بويندیا. فناول بندقيته إلى ضابط فقد بندقيته في المعركة، وانسلّ مع أمارانتا إلى شارع جانبي كي يوصلها إلى البيت. فوجد أورسولا في الباب تنتظر، وكأنها غير معنيّة بالرصاص المنهمر، ولا بالفجوة التي أحدثتها قنبلة في واجهة البيت المجاور. وتوقف المطر عن الهطول، ولكنّ الطرقات كانت ما تزال موحلة

رخوة كأنها صابون مذاب. ولم يكن من السهل تقدير المسافات ليلاً.

ترك أركاديو أمارانتا مع أورسولا، واندفع محاولاً التصدي لجنديين كانا يطلقان النار الغزيرة من زاوية الشارع، ولكن المسدسين اللذين كانا محفوظين لسنين طويلة في الخزانة لم يستجيبا. فاندفعت أورسولا تحمي أركاديو بجسدها، محاولة أن تجرّه نحو البيت. وصاحت به :

ـ تعال بحق الله. يكفيك جنوناً.

وصوّب الجنديان بندقيتيهما نحوهم، وصاح أحدهم قائلاً : دعي هذا الرجل يا سيدتي، وإلا فنحن غير مسؤولين . فدفع أركاديو أورسولا إلى داخل المنزل، واستسلم. وصمتت بعد ذلك بقليل أصوات المدافع والبنادق، ثم ارتفعت أصوات قرع الأجراس. فقد سحقت المقاومة في أقل من نصف ساعة. ولم يسلم واحد من رجال أركاديو، ولكنهم قبل أن يقضوا استطاعوا أن يقضوا على ثلاث مئة جندي. وكانت القيادة العامة آخر الحصون، إذ لم يستطع الجنود اقتحامها. فقد حرّر من سمّى نفسه العقيد جريجوريو ستيفنسون جميع السجناء قبيل الهجوم. وأمر رجاله بالخروج والقتال في الطرقات. وكانت قدرته الخارقة على الحركة، والتنقل من مكان إلى مكان، وكذلك الدقة التي كان يطلق بها طلقاته العشرين، سبباً في جعل المهاجمين يظنون أن القيادة كانت شديدة الحراسة. ولما أعياهم أمرها دمّروها بالمدافع تدميراً كاملاً. وقد ذهل النقيب الذي كان يقود عمليات الجيش حين لم يجد بين خرائب الدمار إلاّ رجلاً واحداً يرتدي سروالاً داخلياً، وما تزال في قبضته بندقيته الفارغة تماماً من الرصاص، وقد انفصلت قبضته مع ذراعه عن جسده، وما زالت البندقية ثابتة، وعلى رأسه شعر امرأة كثيف ملتف حول عنقه ومثبت بمشط، وحول عنقه سلسلة تدلّت منها سمكة ذهبية صغيرة. وعندما قلبه النقيب بمقدمة حذائه، وسلّط الضوء على وجهه، اندهش

واحتار، وصاح قائلاً :

ـ يا إلهي.

وتدافع الضباط الآخرون نحوه، فقال لهم :

ـ أنظروا أين ظهر هذا الإنسان. إنه جريجوريو ستيفنسون. عند الفجر، وإثر محاكمة عسكرية سريعة، أعدم أركاديو رمياً بالرصاص عند سور المقبرة. ولم يستطع أركاديو، خلال الساعتين الأخيرتين من حياته، أن يدرك لماذا تلاشى من نفسه الخوف الذي كان ينغص عليه حياته منذ طفولته المبكرة. استمع صامتاً هادئاً لنص الاتهامات الكثيرة، دون أن يبدر منه أي اهتمام بإظهار ما يعبر عن شجاعته التي عرفها الناس مؤخراً. وانصرف خياله وتفكيره إلى أورسولا التي لا بد أن تكون الآن تحت شجرة الكستناء، تشرب القهوة مع خوزيه أركاديو بوينديا، وفكر بابنته التي كانت في شهرها الثامن ولم تحمل بعد اسماً، وبابنه الذي سيولد في شهر آب (أغسطس) القادم. وفكر بسانتا صوفيا التقية، وقد تركها في الليلة الماضية تملّح غزالاً تعده لغداء اليوم التالي، وافتقد شعرها المسترسل فوق كتفيها، وحنّ إلى رموش عينيها التي تشبه الرموش الاصطناعية. وافتكر، بلا عواطف، بكل الذين كان يعرفهم من الناس، وكأنه يغلق حساباته مع الحياة. وبدأ يتبيّن كم كان فعلاً يحب الأشخاص الذين كان يكرههم أكثر من غيرهم. وبدأ رئيس المحكمة العسكرية بإلقاء خطابه الأخير، عندما أدرك أركاديو أنّ ساعتين من الزمن قد انقضتا على المحاكمة. ومضى الرئيس يقول :

ـ حتى لو أن التهم الموجهة إلى المدّعى عليه لا تدعمها الأدلة والبيّنات، فإن الجسارة والطيش الإجراميّ غير المسؤول، الذي دفع به المتهم رجاله إلى الموت عبثاً ودون نفع، يكفيان للحكم عليه بالموت.

وفي بناء المدرسة، التي صارت الآن أنقاضاً، حيث أحس للمرة

الأولى بالثقة التي تمنحها السلطة، وعلى بعد أمتار قليلة من الغرفة التي عرف فيها قلق العشق، اكتشف أركاديو سخافة تقاليد الموت. والواقع أن الموت لم يكن بالأمر الذي يهمه، فما كان يهمه هو الحياة. ولذلك، فعندما سمع النطق بالحكم، لم يشعر بأي خوف، وإنما راوده الحنين. ولم يتكلم حتى سألوه عن طلبه الأخير. فأجاب بصوت معبر قوي النبرات، قائلاً :

ـ أخبروا زوجتي أن تسمي الطفلة الصغيرة أورسولا. ثم صمت لحظة، وأعاد القول :

ـ أورسولا، مثل جدتها. وقولوا لها أن تسمي طفلها الذي سيولد، إذا كان ذكراً، خوزيه أركاديو، ذكرى لجدّه لا ذكرى لعمه.

وحاول الأب نيكانور أن يجعله يعترف ويتوب، قبل أن يأخذوه إلى سور الإعدام، فأجاب أركاديو قائلاً :

ـ ليس لديّ ما أتوب عنه.

ثم وضع نفسه في إمرة فصيل الإعدام بعد أن شرب فنجاناً من القهوة. ولم يكن اسم قائد الفصيل المختص بالإعدام السريع مجرد مصادفة : النقيب روكه كارنيسيرو، وهو يعني «الجزّار». وفي الطريق إلى سور المقبرة، رأى أركاديو، عبر الرذاذ المتساقط، أنّ يوم أربعاء مشعاً كان على وشك الإطلال من الأفق. وزال حنينه مع زوال الضباب، وحلت محله رغبة جامحة لاستطلاع ما حوله. ولم ير أركاديو روبيكا إلا في اللحظة التي أمروه فيها أن يقف وظهره إلى السور. كان شعرها مبتلاً، وكانت ترتدي ثوباً وردياً كثير الأزهار، وقد أخذت تشرّع أبواب بيتها. بذل جهده في محاولة منه كي تميزه. وألقت روبيكا فعلاً نظرة عابرة في اتجاه السور، فصعقتها الدهشة، ولم تستطع إلاّ بجهد أخير أن ترفع يدها وداعاً لأركاديو. ورفع أركاديو يده لها مودعاً بالطريقة نفسها. وفي تلك

اللحظة نفسها صوّبت إليه أشداق البنادق الفاغرة السوداء، فسمع تراتيل ملكيادس واضحة، حرفاً حرفاً، وسمع وقع الخطوات التائهة لسانتا صوفيا، وهي عذراء، في غرفة الصف في المدرسة، وأحسّ في أنفه صلابة الجليد التي استرعت انتباهه في فتحتي الأنف من جثة ريميديوس. وفجأة افتكر، وراح يناجي نفسه قائلاً :

ـ آه. اللعنة. فقد نسيت أن أقول : إن كان المولود الجديد بنتاً، فليسموها ريميديوس.

ثم أحس ثانية بذلك الرعب الذي كان يعذبه طوال حياته، يتجمع كله كما لو في ضربة مخلب حاد موجعة. وأمر النقيب بإطلاق النار، فلم يترك لأركاديو من الزمن إلا ما يرفع فيه رأسه وصدره، دون أن يدري من أين كان ذلك السائل الحار يتدفق فيحرق ساقيه. فصاح بأعلى صوته :

ـ أيها السفلة أولاد الزناة. . فليعش حزب الأحرار.

(٧)

انتهت الحرب في أيار (مايو). وكان العقيد أوريليانو بوينديا قد وقع في الأسر، قبل أن تصدر الحكومة، بأسبوعين، بياناً مدوّياً تهدّد فيه بأن عقاب مدبري التمرد وبادئيه سوف يكون بلا رحمة ولا شفقة. وقد كان أسر العقيد أوريليانو بوينديا قريباً من الحدود الغربية، وقد تنكّر بزيّ طبيب هندي ساحر. وكان قد سقط في ساح الوغى أربعة عشر رجلاً من الرجال الواحد والعشرين الذين لحقوا به، وجرح ستة آخرون، ولم يبق معه في لحظة الهزيمة النهائية سوى رجل هو العقيد جيرينيلدو ماركيز.

وأعلن نبأ القبض على العقيد أوريليانو في ماكوندو ببلاغ خاص. فأعلمت أورسولا زوجها بالخبر، قائلة :

ـ إنه حيّ. فلندعُ الله أن يرأف به أعداؤه.

وبعد ثلاثة أيام من البكاء المتواصل، وفي عصر أحد الأيام، وبينما كانت في المطبخ تخفق بعض الحليب لصنع الحلوى، سمعت صوت ابنها واضحاً قريباً من أذنها. فراحت تصيح وهي تعدو باتجاه شجرة الكستناء، لكي تنقل الخبر إلى زوجها، قائلة : «إنه أوريليانو». لا أعرف كيف حدثت المعجزة، ولكنه حيّ يرزق وسوف نراه قريباً. وكان إيمانها بذلك يقيناً لا يتزعزع، فغسلت أرض البيت ونظفتها. وبدلت مواضع الأثاث. وبعد أسبوع شاع خبر في البلدة، ولكنّ أحداً لم يدرك مغزاه المأساوي. وكان مفاد الخبر الشائعة أنه قد حكم على العقيد أوريليانو بالموت، وسوف ينفذ فيه حكم الإعدام في ماكوندو، كي يكون عبرة

للناس. وفي أحد أيام الإثنين، وفي الساعة العاشرة والنصف، سمعت أمارانتا، وهي تلبس أوريليانو خوزيه(١) ملابسه، من بعيد، صوت جلبة غامضاً لمسيرة قطعة عسكرية تتقدم نحو البلدة. ثم تلا الجلبة صوت بوق. وبعد ثانية اندفعت أورسولا وأمارانتا إلى الغرفة صائحتين: «ها هم قد جاؤوا به الآن».

كان الجنود يشقون طريقهم بصعوبة في خضم الجمهور الحاشد، ويضربون بأعقاب بنادقهم الناس الثائرين المتوافدين، كي يبعدوهم عنهم. وأسرعت أورسولا وأمارانتا، في وسط الزحام، تدفعان الناس بمناكبهما، كي تشقّا طريقهما. ثم شاهدتاه، كانت له هيئة فقير شحاذ في ثياب رثة مهترئة. كان أشعث شعر الرأس واللحية، يمشي حافياً، يطأ التراب الحارق وكأنه لا يشعر بشيء، وقد كبّلت يداه بحبل شدّ إلى خلف ظهره، وربط في مؤخرة سرج الحصان الذي يمتطيه ضابط. وإلى جانبه، وفي هيئة كهيئته، وثياب رثة كثيابه، وحالة مهزومة كحالته، كان العقيد جيرينيلدو ماركيز. ولم يكن يبدو عليهما أنهما حزينان لما هما فيه. وقد أذهلتهما ضخامة الجمهور الحاشد الذي يصيح ويهتف بسيل من الشتائم ضد الجنود.

وفي وسط صخب الزحام، صاحت أورسولا:

ـ ابني.

ثم صفعت الجندي الذي حاول أن يردّها صفعة شديدة على وجهه. فأجفل حصان الضابط وتراجع إلى الوراء. فتوقف العقيد أوريليانو بوينديا مرتجفاً، وتحاشى ذراعي أمه، وحدّق في عينيها بنظرة قاسية ثابتة، وقال لها:

ـ عودي إلى البيت يا أمي. واطلبي إذناً من السلطات، ثم تعالي كي

(١) ابن العقيد أوريليانو بوينديا من بيلار تيريزا.

تريني في السجن.

ثم نظر إلى أمارانتا التي وقفت على بعد خطوتين خلف أورسولا، وسألها باسماً: «ماذا حدث ليدك؟». فرفعت أمارانتا يدها بضمادها الأسود، وأجابت: «إنه حرق». وجرّت أورسولا بعيداً كي لا تدوسها الخيل. وعندها أحاط حرس خاص بالأسيرين وتحرّكت القطعة العسكرية، تعدو بخطوات منتظمة، وهي تنقلهما إلى السجن.

عند الغروب كانت أورسولا تزور العقيد أوريليانو بوينديا. وكانت قد حاولت الحصول على إذن من السلطات بوساطة الدون أبولينار موسكوت. ولكن هذا كان قد فقد سلطاته لدى وصول السلطة العسكرية العليا الطاغية. أما الأب نيكانور فكان طريح الفراش بسبب الحمى الكبدية التي أصابته. وقد حاول والدا العقيد جيرينيلدو ماركيز رؤيته، فردّهم العسكر بأعقاب البنادق، مع أنه لم يكن محكوماً بالإعدام. وبدا واضحاً لأورسولا أن الوساطات كانت كلها مستحيلة، وكانت شبه متيقنة بأن ابنها سوف يعدم عند الفجر. وهكذا جمعت كل ما كانت تريد أخذه له، ولفّته في صرة ومضت وحدها إلى السجن.

وعند وصولها، أعلنت قائلة:

ـ أنا أم العقيد أوريليانو بوينديا.

فاعترض الحرس طريقها، فصاحت محذرة إياهم:

ـ سوف أدخل مهما كانت الظروف. وإذا كانت لديكم أوامر بإطلاق النار. فهيّا أطلقوا النار عليّ منذ الآن.

ودفعت أحد الحراس بشدة، واندفعت متقدمة إلى داخل قاعة الصف القديمة، حيث كان جماعة من الجند، قد تعرّوا من بعض ثيابهم، وانهمكوا في تنظيف أسلحتهم وتزييتها. فتقدم ضابط أحمر الوجه يرتدي

بزة عسكرية، ويضع على عينيه نظارة سميكة، ويبالغ في التلطف بسلوكه، فأشار للحراس بالتراجع. وأعادت أورسولا القول :

ـ أنا أم العقيد أوريليانو بوينديا.

فصحح لها الضابط القول بابتسامة ودية، وقال :

ـ تعنين أنك أم «السيد» أوريليانو بوينديا.

وأدركت أورسولا في لهجته المصطنعة، على طريقة علية القوم، والتي تمط فيها الألفاظ، لهجة سكان المرتفعات أو المناطق الجبلية. فوافقته على قوله، مرددة :

ـ كما تقول يا «سيد» ما دمت أستطيع أن أراه.

كانت الأوامر العليا تقضي بمنع زيارة المحكومين بالإعدام، ولكن الضابط تحمّل المسؤولية على عاتقه، وسمح لها بمقابلة مدتها خمس عشرة دقيقة. وأرته أورسولا ما كانت تحمله في الصرة : الثياب الداخلية النظيفة، وحذاء ابنها القصير الساق الذي لبسه يوم عرسه، والحلوى المصنوعة من الحليب، التي احتفظت له بها منذ اليوم الذي شعرت فيه، حدساً، بعودته.

وجدت أورسولا العقيد أوريليانو بوينديا في إحدى الغرف التي باتت تتخذ زنزانة، وكان ممدداً على سرير عسكري، وقد باعد ما بين ذراعيه وسائر جسمه، لأنّ الدمامل والبثور كانت تملأ ما تحت إبطيه. وكانوا قد سمحوا له بأن يحلق لحيته، فبات شاربه الكثّ المعقوف من طرفيه يزيد من بروز وجنتيه، فبدا لأمه أكثر شحوباً واصفراراً، وأطول قليلاً مما كان يوم رحيله، وأنه أكثر إغراقاً في وحدته وانزوائه من أي وقت مضى.

كان يعرف كل أحداث البيت، حتى أدق التفاصيل : من انتحار بيترو كريسبي، إلى جبروت أركاديو وطغيانه ثم إعدامه، إلى تبلّد الإحساس الذي أصاب خوزيه أركاديو بوينديا ولزومه الحياة تحت شجرة الكستناء.

وكان يعرف أن أمارانتا قد كرّست ترمّلها العذري لتربية أوريليانو خوزيه، وأنّ هذا قد أخذت تظهر عليه علائم الذكاء المتوقد، وأنه قد تعلم القراءة والكتابة، في الوقت الذي تعلم الكلام. وقد شعرت أورسولا، منذ أن دخلت الغرفة، أنها قد هيمن عليها نضج ابنها والتفوق الذي يبدو كهالة عليه، والسلطة التي تشع منه، وقد اندهشت لمعرفته كل شيء عن أحداث البيت بالتفاصيل الدقيقة. فقال لها مازحاً :

ـ أظنك تعرفين أنني ساحر.

وأضاف بشيء من الجد :

ـ في هذا الصباح، عندما كانوا يجيئون بي، كنت أشعر كأنني عشت كل هذه الأمور.

والحقّ أنه بينما كان الجمهور الحاشد يهدر بالهتاف، لدى مروره، كان هو مستغرقاً في أفكاره، يعجب للبلدة كيف شاخت خلال عام واحد، وكيف تساقطت أوراق شجر اللوز وتهرّأت، وكيف طليت البيوت بلون أزرق، ثم لون أحمر، فآلت إلى خليط من الألوان غير قابل للتحديد.

فتنهدت أورسولا قائلة :

ـ ماذا كنت تنتظر؟ فالزمن يمضي.

فقال أوريليانو معبراً عن إقراره بهذه الحقيقة، في شيء من التمرد :

ـ هذا هو الواقع. . وهكذا تسير الأمور، ولكن ليس إلى هذا الحد.

وهكذا تحولت الزيارة، التي انتظرها كلاهما طويلاً، وأعدّ لها الأسئلة والأجوبة، إلى محادثة يومية عادية. وعندما أعلن الحارس انتهاء الزيارة، أخرج أوريليانو من فراش القش، الذي كان يستلقي عليه، رزمة من الأوراق قد بللها العرق. كانت كلها أشعاراً، فهي القصائد التي ألهمته إياها ريميديوس، وقد حملها معه يوم رحيله. وقد أضاف إليها ما كتبه،

من بعد، عندما كانت تسنح له الفرص في فترات تراخي الحرب والقتال.

ناول أمه الرزمة قائلاً :

ـ عديني بألاّ يقرأها أحد. أشعلي بها الموقد هذا المساء. فوعدته بذلك، ثم نهضت كي تقبله قبلة الوداع، وتمتمت في أذنه قائلة :

ـ جئتك بمسدس.

وتأكد العقيد أوريليانو بوينديا من أن الحارس بعيد لا يرى، فقال لأمه بصوت خفيض :

ـ لا فائدة لي منه : ولكن أعطينيه على كل حال، فقد يفتشونك عند الخروج.

فأخرجت المسدس من صدارها ودسته تحت فراش السرير العسكري المصنوع من القش. أما هو فخاطب أمه قائلاً بصوت هادىء خاشع :

ـ لا تقولي لي وداعاً. ولا تستعطفي أحداً . ولا تذلي نفسك لأحد. بل تظاهري كما لو أنهم أعدموني منذ زمن بعيد.

فعضت أورسولا على شفتها كي تقاوم البكاء. ولكنها قالت له :

ـ ضع حجارة حامية على الدمامل والبثور.

ودارت نصف دورة ثم غادرت الغرفة. وبقي العقيد أوريليانو بوينديا واقفاً يتأمل حتى أغلق الباب. وعندها عاد إلى اضطجاعه وذراعاه ممدودتان بعيداً عن جسمه. وتتالت الذكريات، فمنذ يفاعه وشبابه المبكر، وبداية إدراكه معالم المستقبل، كان يقول في نفسه : عندما يجيئني الموت لا بد من أن يعلن لي عن قدومه بدليل محدّد واضح لا لبس فيه ولا غموض. ولذلك، فهو الآن يعجب كيف لم يبق بينه وبين الموت سوى بضع ساعات دون أن يأتيه النذير.

ذات مرة جاءت لزيارته امرأة رائعة الجمال، وطلبت من الحراس إذناً بالدخول عليه في القيادة العامة في توكورينكا. فسمحوا لها بذلك، علماً منهم بالوطنية والحماسة التي كانت لدى بعض الأمهات اللاتي كنّ يدفعن ببناتهن إلى أسرّة المقاتلين المشهورين سعياً منهن لتحسين النسل والأعراق. وكان العقيد أوريليانو بوينديا. في تلك الليلة، ينهي قصيدته عن الإنسان التائه تحت المطر المنهمر، حينما فاجأته الفتاة في الغرفة، فأدار لها ظهره كي يضع الورقة في الدرج الذي يحفظ فيه أشعاره. وعندها نبهّه حدسه، فأمسك بمسدسه الذي في الدرج. ودون أن يدير لها وجهه، خاطبها قائلاً :

ـ لطفاً، لا تطلقي النار، أرجوك.

حتى إذا استدار إليها مصوباً مسدسه، كانت الفتاة قد أخفضت مسدسها، وهي لا تدري ما تفعل. وهكذا نجا بعد أن نجح في الكشف عن أربع محاولات لاغتياله من أصل إحدى عشرة محاولة. وفي حالة أخرى، استطاع رجل، لم يتمكن أحد من القبض عليه قط، أن يتسلل ذات ليلة إلى القيادة الثورية في مانور، وأن يقتل طعناً بالخنجر أعز أصدقائه، العقيد ماجنيفكو فيسبال، الذي كان أوريليانو قد تخلى له عن سريره لعله يشفى من الحمى، بينما كان هو يرقد في الغرفة ذاتها، في أرجوحته، على بعد أمتار، دون أن ينتبه لشيء مما حدث.

ولطالما بذل جهده كي ينظم نبوءاته، ولكن جهوده ذهبت هدراً. فلقد كانت النبوءات تهبط عليه دفعة واحدة، كأنما هي الومض أو اللمح المشع الخارق للطبيعة. كأنها لحظات يقين مطلق، ولكنها عابرة لا تدرك، ولو أنها كانت أحياناً تلم به طبيعية، فلا يدرك ساعتها أنها نبوءات، وكانت، في أحيان أخرى، تبدو نبرة صافية ولكنه لا يدركها إلا بعد أن تتحقق. وكثيراً ما كانت لا تعدو حالات من التطير والخرافة العادية.

ولكنه، عندما حكم عليه بالإعدام وطلب إليه أن يذكر رغبته الأخيرة، لم يجد أدنى حرج أو أية صعوبة في اكتشاف الحدس الذي ألهمه جوابه :

ـ أطلب أن ينفذ فيّ الحكم في ماكوندو.

وقد انزعج رئيس المحكمة العسكرية، وقال له :

ـ لا تتظاهر بالذكاء يا بوينديا. . فما هذه إلا حيلة لكسب بعض الوقت.

فأجابه العقيد :

ـ إذا لم تنفذ ذلك، فالشأن شأنك. . ولكنّ هذه هي رغبتي الأخيرة.

ومنذئذ تخلى عنه وحيه، وتوقفت نبوءاته. وانتهى به الأمر بعد طول تأمل وتفكير، عندما زارته أمه، إلى أنه بات يقدر أنه لن ينذر بموته هذه المرة، لأن ذلك غير خاضع للمصادفات، بل لحزم جلاديه. وأمضى الليل دون أن ينام، بسبب ألم دماملة وبثوره الذي كان يعذبه ويضنيه. وفي الهزيع الأخير من الليل سمع وطء أقدام في السرادق، فقال في نفسه :

ـ لقد جاؤوا.

ودونما سبب ظاهر، أخذ يفكر بخوزيه أركاديو بوينديا(١)، الذي كان في تلك اللحظة يفكر فيه أيضاً تحت شجرة الكستناء، في جو ذلك الفجر المخيف. ولم يكن هو خائفاً، ولم يكن يحس بأي حنين أو بأي شعور، غير أن غضباً عضوياً قد اجتاحه، فسبب له ألماً وهياجاً في أمعائه. ذلك أنه مقضيّ عليه أن يموت زوراً وبهتاناً، فلا يعرف ما تؤول إليه أشياء كثيرة بدأها ولم يفرغ منها بعد. وانفتح الباب، ودخل منه حارس يحمل طاس قهوة. وفي اليوم التالي. وفي تلك الساعة ذاتها، كان ما يزال عند النقطة نفسها، يتميز غضباً وألماً من الدمامل والبثور تحت إبطيه. ثم حدث له ما

(١) والده.

كان حدث في اليوم الأول. وفي يوم الخميس شارك حراسه أكل حلوى الحليب التي جلبتها له أمه، ولبس ثيابه النظيفة، وقد وجدها ضيقة عليه. ثم احتذى حذاءه الجلدي اللامع. وحلّ يوم الجمعة دون أن يكونوا قد أعدموه.

والواقع أنّ أحداً ما كان ليجرؤ على تنفيذ الحكم. فتمرد أهل البلدة وتململهم جعل العسكريين يعتقدون أن إعدام العقيد أوريليانو بوينديا سوف تكون له أبعاد وعواقب سياسية خطيرة لا في ماكوندو وحدها، وإنما في منطقة المستنقعات (الماريجو) كلها. ولذلك أرسلوا من يراجع في الأمر السلطات العليا في عاصمة الإقليم. وفي مساء يوم السبت، وكانوا ما يزالون ينتظرون الجواب، ذهب النقيب روكه كارنيسيرو (الجزار) إلى مكان كاتارينو برفقة بعض الضباط، فلم تجرؤ سوى امرأة واحدة، وبعد كل أصناف التهديد، على الدخول معهم إلى غرفتها. فقد قالت المرأة له بصراحة ووضوح :

ـ «إنّ النساء لا يردن معاشرة رجل يعرفن يقيناً أنه سوف يموت. ولا أحد يعرف كيف سيتمّ ذلك. ولكن الناس ما ينفكون يقولون، في حلهم وترحالهم، أن الضابط الذي سيأمر بإطلاق النار على العقيد أوريليانو سوف يقتل هو وجنود فصيلة الإعدام واحداً بعد الآخر، عاجلاً أم آجلاً، وبلا رحمة، حتى ولو اختبؤوا في أقصى أصقاع الأرض». ونقل النقيب روكه كارنيسيرو ما سمعه إلى سائر الضباط، الذين نقلوه بدورهم إلى رؤسائهم المباشرين. وفي يوم الأحد كانت البلدة كلها تعرف أن الضباط يريدون أن يتفادوا، بمختلف الأعذار، مسؤولية تنفيذ حكم الإعدام، على الرغم من أن أيّ عمل مسلح لم يعكر صفو الأمن والهدوء في البلدة في الأيام الأخيرة.

ثم وصل البريد يوم الإثنين، وفيه الأمر الرسميّ : يجب أن ينفذ حكم

الإعدام خلال الساعات الأربع والعشرين القادمة. في ذلك المساء، ألقى الضباط في إحدى قبعاتهم سبع وريقات كتبوا عليها أسماءهم، واقترعوا، فشاء قدر النقيب روكه كارنيسيرو (الجزار) أن تقع القرعة عليه. فقال في مرارة عميقة:

ـ إنّ سوء الحظ لا يخطىء أبداً. لقد ولدتُ ابن قحبة.. وسوف أموت ابن قحبة.

وفي الساعة الخامسة صباحاً، اختار فصيل الإعدام بالقرعة، وأمرهم بأن يصطفوا في الباحة، ثم أيقظ المحكوم عليه بعبارة تدل على نذير الشؤوم، فقال:

ـ هيا يا بويندا، فقد حانت ساعتنا.

فأجابه العقيد:

ـ هذا إذن ما كنت أحلم به. فقد رأيت في منامي أن الدمامل والبثور قد تفجّرت.

كانت روبيكا بويندا تستيقظ كل يوم في الساعة الثالثة صباحاً منذ أن علمت أن أوريليانو قد يعدم. وكانت تظل في غرفتها، الغارقة في الظلام، ترقب من نافذتها، نصف المفتوحة، سور المقبرة، فيما كان السرير، الذي كانت جالسة فيه، يهتز من غطيط خوزيه أركاديو. وقد أمضت الأسبوع بطوله تنتظر بنفس العناد الذي كانت تنتظر به، من قبل، رسائل بيترو كريسبي. وكان زوجها، خوزيه أركاديو، يقول لها:

ـ «لن يعدموه هنا.. سوف يطلقون عليه النار في الثكنة. فلا يعلم أحد من كان من الجنود في فصيل الإعدام. وأراهن أنهم سيدفنونه هناك». ولكن روبيكا واظبت على الانتظار، وكانت تجيب عن كل ذلك قائلة:

«إنهم أغبياء، سوف يعدمونه هنا».

كانت موقنة بذلك كل اليقين، حتى إنها تصورت الطريقة التي ستفتح بها الباب كي تلوّح له بيدها إشارة الوداع. وكان خوزيه أركاديو يصرّ على رأيه قائلاً:

ـ لن يحضروه عبر الشوارع والطرقات بصحبة ستة من الجنود الذين يرتعدون خوفاً وهلعاً، لعلمهم أن الناس مستعدون لعمل أي شيء.

ولم تقتنع روبيكا بتحليل زوجها وتعليله، فثابرت على مراقبتها عبر النافذة. وقد كانت تدأب على القول له:

ـ سوف ترى أنهم من الغباء بحيث يفعلون أي شيء».

في يوم الثلاثاء، وفي الساعة الخامسة صباحاً منه، وبعد أن شرب خوزيه أركاديو قهوته وأطلق كلابه، أغلقت روبيكا النافذة وتعلقت بأعلى السرير كي لا تسقط. وعندها تنهدت قائلة:

ـ ها هم قد جاؤوا به. إنه جميل وأنيق.

فنهض خوزيه أركاديو، ونظر عبر النافذة، فرآه يرتعش تحت ضياء الفجر. وكان يلبس بنطالاً كان له في أيام شبابه. وقد وقف وظهره إلى السور. ويداه على خاصرتيه، لأن البثور المحرقة تحت إبطيه كانت تحول دون إسبال يديه على جسده. وقد سمع العقيد أوريليانو يقول:

ـ اللعنة. هل يتمكنون منك بهذه الطريقة. أتصل الأمور إلى أن يصطف أمامك ستة قوّادين، فتهوي تحت رصاصهم دون أن تستطيع شيئاً!».

ثم راح يعيد هذه العبارات ويعيدها بغضب وهياج يكاد يكون وجداً وخشوعاً، حتى تأثر النقيب روكه كارنيسيرو (الجزّار) الذي ظنّ أن العقيد كان يصلي. ولما صوّب رجال فصيل الإعدام إليه بنادقهم، تحوّل الهياج والغضب إلى نوع من الشعور اللزج بالمذاق المر القاسي، مما خدّر لسانه

وأنامه وأكرهه على أن يغمض عينيه. وعندها انطفأ أمامه ضوء بزوغ الشمس، كما يخبو لمعان الألومينيوم. وراح يرى نفسه طفلاً صغيراً في بنطال قصير، يرتدي حول عنقه ربطة. ثم رأى أباه في أصيل يوم رائع يصحبه إلى خيمة السوق في معرض الغجر، حيث شاهد كتلة الجليد. وفجأة سمع صرخة، فخيّل إليه أنها الأمر للفصيل بفتح النار، ففتح عينيه وهو يرتعش مقدراً أن يواجه الرصاص المشتعل المنهمر على جسده. ولكنه فوجىء برؤية النقيب روكه كارنيسيرو رافعاً يديه، ورؤيه خوزيه أركاديو يعبر الطريق ببندقيته الرهيبة مصوّباً ومتأهباً لإطلاق النار.

صاح النقيب بخوزيه أركاديو :

ـ لا تطلق النار، فالعناية الإلهية هي التي أرسلتك.

وعندئذ بدأت حرب أخرى. فقد انطلق النقيب روكه كارنيسيرو ورجاله الستة، بصحبة العقيد أوريليانو بوينديا لكي يحرروا القائد العام الثوري فيكتوريو ميدينا، الذي كان قد حكم عليه بالموت في ريوهاشا. وقد ظنوا أنهم يختصرون الوقت إذا هم عبروا الجبال من نفس الطريق الذي سلكه خوزيه أركاديو بوينديا في طريقه لإنشاء ماكوندو. ولكنهم اقتنعوا، قبل انقضاء أسبوع على انطلاقهم، أن محاولتهم تلك كانت مستحيلة. فكان عليهم أن يسلكوا طريق الأعالي المحفوف بالمخاطر، ولم يكن في حوزتهم غير الذخيرة التي كانت مع فصيل الإعدام. كانوا يخيمون قريباً من القرى، التي يمرون بها، ثم يدخل أحدهم القرية في وضح النار متخفياً، ، وقد حمل بيده سمكة ذهبية صغيرة، فيتصل بالأحرار المتقاعدين، دون أن يلتحقوا بالثورة. فيحثهم على الذهاب للصيد في صباح الغد، كي لا يعودوا بعدها أبداً. ولما وصلوا إلى أحد منعرجات الجبال، حيث يطلون على مدينة ريوهاشا، كان القائد فيكتوريو ميدينا قد أعدم. وعندها اتفق رجال العقيد أوريليانو بوينديا

على إعلانه رئيساً للقوات الثورية في ساحل البحر الكاريبي، برتبة قائد عام. وقد استلم المنصب، وقبل المهمة، ولكنه رفض الرتبة، واتخذ موقفاً بألاّ يقبلها ما دام النظام المحافظ في السلطة.

وقد نجح الثوار، خلال ثلاثة أشهر، في تسليح ألف رجل. ولكنهم أبيدوا عن بكرة أبيهم. وانسحبت القلة الناجية منهم إلى الحدود الشرقية. ثم انقطعت أخبارهم، ولم يعد يسمع شيء عنهم، حتى علم أنهم هبطوا في كابو دي لافيلا، واصلين إليها من جزر الأنتيل الصغيرة. ثم صدر بيان حكومي رسمي، نقلته أسلاك التلغراف والبريد إلى كل أنحاء البلاد، على شكل خبر مفرح سعيد، يعلن نبأ موت العقيد أوريليانو بوينديا. وبعد يومين اثنين، صدرت برقية أخرى، ألغت البرقية السابقة، وكانت تخبر عن اندلاع الثورة في سهول الجنوب. وهكذا ولدت أسطورة العقيد أوريليانو بوينديا الموجود في كل مكان. ثم تتالت الأنباء المتناقضة المتلاحقة عنه. بعضها يروي أنه منتصر في فيلا نوفا، وآخر أنه هزم في جواكامايال، وثالث أن الهنود مزّقوه وافترسوه، ورابع أنه مات في قرية صغيرة من قرى الماريجو (إقليم المستنقعات). ثم أنه ثار من جديد في نواحي أوروميتا. وفي تلك الأثناء، صرح قادة الأحرار، الذين كانوا يفاوضون آنذاك لدخول مجلس النواب، أن العقيد شخص مغامر لا يمثل الحزب. واعتبرته الحكومة الوطنية واحداً من قطاع الطرق، ورصدت، للحصول على رأسه، مبلغ خمسة آلاف بيزو.

ثم خرج العقيد أوريليانو بوينديا، بعد ست عشرة هزيمة من منطقة جواجيرا، على رأس ألفي رجل من السكان الهنود الأصليين الجيدي التسليح، وفاجأوا حامية ريو هاشا، وهي نائمة، فأكرهوها على الانسحاب منها. وأقام العقيد هناك قيادته العامة، وأعلن الحرب، التي لا هوادة فيها، ضد النظام. وكان أول ما تلقاه برقية تهديد من الحكومة

تنذره بإعدام العقيد جيرينيلدو ماركيز، خلال ثمان وأربعين ساعة، إذا لم ينسحب بقواته إلى الحدود الشرقية. وقدم له البرقية العقيد روكه كارنيسيرو، الذي أصبح رئيس أركانه، وقد بدت عليه هيئة الخوف والقلق. ولكنه دهش عندما رآه يقرؤها راضياً خلافاً لما كان يتوقع. وقد عبر عن فرحه بهتافه قائلاً :

ـ ما أروع الخبر. فقد صار لدينا مركز للتلغراف في ماكوندو. وكان جوابه حاسماً، فقد كان ينتظر أن ينشىء قيادته العامة في ماكوندو خلال ثلاثة أشهر. فإذا لم يجد فيها العقيد جيرينيلدو ماركيز فإنه سيعدم، دون أية محاكمة، جميع الضباط الأسرى، بادئاً بالقادة من الضباط الكبار، كما إنه سوف يصدر أوامره إلى مساعديه بعمل الشيء ذاته حتى نهاية الحرب. وهكذا كان أول إنسان يعانقه، على طريق الماريجو (إقليم المستنقعات)، بعد ثلاثة أشهر، هو العقيد جيرينيلدو ماركيز.

كان البيت مليئاً بالأطفال. وكانت أورسولا قد جاءت بسانتا صوفيا (التقية) وابنتها البكر وتوأمين لها ولدا بعد خمسة أشهر من إعدام أبيهما أركاديو. وخلافاً لوصية أبيها أركاديو، عمّدت البنت باسم ريميديوس. وقد أعلنت أورسولا عن ذلك بقولها :

ـ أنا على يقين من أن هذا ما كان يريده أركاديو. لن ندعوها أورسولا، لأن من يحمل هذا الاسم سوف يعاني كثيراً. أما التوأمان فسمّيا خوزيه أركاديو الثاني وأوريليانو الثاني. وتولت أمارانتا أمر العناية بالجميع. فوضعت الكراسي الخشبية الصغيرة في غرفة الجلوس، وأنشأت لهم ولأبناء الأسر المجاورة حضانة أطفال.

ولما عاد العقيد أوريليانو بوينديا إلى ماكوندو وسط غابة من الأسهم النارية وخليط هائل من قرع الأجراس، رحبت به جوقة من الأطفال

بالنشيد عند مدخل داره.

أما أوريليانو خوزيه(١)، وكانت له قامة طويلة كقامة جده، فكان يرتدي بزة ضابط ثوري. وقد أدّى التحية العسكرية لأبيه العقيد أوريليانو بوينديا.

لم تكن الأخبار كلها جيدة.

فبعد سنة من فرار العقيد أوريليانو بوينديا من ماكوندو، انتقل خوزيه أركاديو وروبيكا من بيتهم إلى البيت الذي بناه أركاديو عندما كان حاكماً لماكوندو. ولم يدر أحد بالتدخل الذي قام به خوزيه أركاديو للحؤول دون إعدام أوريليانو. وقد حوّل وزوجته البيت الجديد إلى بيت من أفضل بيوت الضيافة وأكرمها. وكان موقع البيت في أفضل زاوية من الساحة، في ظل شجرة لوز باسقة تحمل ثلاثة أعشاش لطائر أبي الحناء. وكان للبيت باب واسع عال ونوافذ أربع كبيرة. وقد استأنفت صويحبات روبيكا القديمات، ومعهن أربع من بنات موسكوت بقين عازبات، جلسات التطريز التي كانت تنعقد في الشرفة ذات أزهار البيجونيا ثم انقطعت منذ سنين.

وتابع خوزيه أركاديو استغلال الأرض التي اغتصبها واعترفت بسندات ملكيتها حكومة المحافظين. وكان أهل البلدة يرونه، عصر كل يوم، عائداً من الجبال على حصانه، وأمامه ووراءه كلابه، وهو يحمل جفته (بندقية مزدوجة السبطانة) وطوقاً كبيراً من الأرانب يتدلّى على سرج مطيته.

وذات يوم من شهر أيلول (سبتمبر)، شعر خوزيه أركاديو باقتراب العاصفة، فعاد من رحلة صيده بعد الظهر مبكراً عن عادته. فحيّا روبيكا التي كانت جالسة في غرفة الطعام، وربط كلابه في الدار، وعلق

(١) ابن العقيد أوريليانو بوينديا من بيلار تيرنيرا.

الأرانب في المطبخ كي يملحها بعد قليل، ثم دخل إلى غرفته ليبدل ثيابه.

وقد روت روبيكا فيما بعد، أنها دخلت إلى الحمام كي تغتسل، بينما دخل زوجها إلى غرفة النوم، ولم تنتبه بعدئذ لأي شيء، ولم تسمع بأي شيء. وقد كانت تلك الرواية غير معقولة وبعيدة عن التصديق. ولكن أحداً لم يعرف رواية أخرى أقرب إلى التصور، ولم يدر بخلد أحد أن روبيكا يمكن أن تقتل الرجل الذي أسعدها. وربما يكون ذلك هو السر الوحيد الذي لم يستطع أحد من ماكوندو أن يكتشف كنهه. فحالما أغلق خوزيه أركاديو باب الغرفة على نفسه سمع في البيت صدى طلقة من مسدّس. وسال خيط من الدم تحت باب الغرفة، عابراً غرفة الجلوس إلى الطريق العام، سالكاً أقصر الطرق بين الأرصفة الكثيرة، هابطاً أدراج البيوت، والسطوح غير المستوية، صاعداً فوق الأفاريز، محاذياً شارع الأتراك، متعرجاً يمنة ويسرة، مشكلاً زاوية قائمة نحو بيت آل بوينديا، ماراً من تحت الباب المغلق، وعابراً صالة الجلوس بمحاذاة الجدران، محاذراً أن تتسخ البسط والسجاجيد، متابعاً طريقه إلى الغرفة الثانية، ثم راسماً خطاً منحنياً طويلاً، مبتعداً عن طاولة الطعام، نافذاً إلى ما تحت الشرفة ذات أزهار البيجونيا، ماراً بشكل غير مرئيّ تقريباً تحت كرسي أمارانتا وهي تشرح درساً في الحساب لأوريليانو خوزيه، داخلاً مستودع الحبوب، منهلاً في المطبخ حيث كانت أورسولا تستعد لفقس ست وثلاثين بيضة لإعداد الخبز.

صاحت أورسولا بأعلى صوتها:

ـ يا مريم العذراء.

واقتفت أثر الدم، تابعة خطه في عكس مساره، باحثة عن مصدره. فدخلت مستودع الحبوب، مارة بالشرفة ذات أزهار البيجونيا، حيث كان أوريليانو الصغير يردد غناءً: «ثلاثة وثلاثة تساوي ستة، ستة وثلاثة

تساوي تسعة». ثم عبرت غرفة الطعام وصالات الجلوس، وتابعت ـ في خط مستقيم ـ طريقها في الشارع، ثم راحت تنحرف يميناً ويساراً حتى شارع الأتراك، دون أن تدري أنها ما زالت تلبس صدارة المطبخ والحذاء البيتي. ووصلت إلى الساحة، ثم دخلت باب البيت الذي لم تطأه قدماها من قبل.

دفعت باب غرفة النوم، فكادت تخنقها رائحة البارود المحترق، ورأت خوزيه أركاديو منبطحاً، وجهه إلى الأرض فوق حذائه الطويل الذي خلعه لتوّه. وحدّقت فتبيّنت مصدر خط الدم الذي تدفق من أذنه اليمنى. وقد توقف الآن عن النزف. لم يكن في جسمه أي أثر لجرح، ولم يكن في المكان أثر للسلاح. ولم يكن ممكناً تخليص الجثمان من رائحة البارود المنتشرة. غسلوه أولاً ثلاث مرات بالليف والصابون، ثم فركوه بالخل والملح، ودهنوه بعد ذلك بالرماد والليمون. وبعد كل ذلك، غطسوه في برميل ملؤه بماء الغسيل طوال ست ساعات، ودلكوه فيه جيداً حتى حال لون الوشم الذي يغطيه. وبعد أن يئسوا قرروا أن يملحوه بالفلفل والكمون وأوراق الغار، وأن يسخنوه يوماً كاملاً على نار هادئة. وعندما تمّ ذلك، بدأ الجثمان يتفسّخ، فاضطروا لدفنه على عجل. فوضعوه في تابوت بحجمه، أحكموا إغلاقه، طوله سبع أقدام ونصف القدم، وعرضه أربع أقدام، مسلّح من الداخل بصفائح من حديد، وسمّروه بمسامير فولاذية ضخمة. ولكن ذلك كله لم يحل دون نفاذ رائحة البارود وانتشارها في الطرقات التي مرّت فيها الجنازة. وقد منحه الأب نيكانور بركته، وهو مريض يرقد في سريره، لأن كبده كانت قد انتفخت وصارت مثل طبل. وقد حاولوا في الشهور التالية، عبثاً، أن يقوّوا الضريح بجدران استنادية. بعضها خلف بعض، وعزلوا ما بينها بأكداس الرماد والنخالة ونشارة الخشب والكلس، ولكن رائحة البارود

ظلت تنفذ من القبر على مدى سنين عدة، حتى جاء مهندسو شركة الموز، فغطوا الضريح بطبقة من الإسمنت المسلّح. ومنذ أن أخرج الجثمان من البيت، أغلقت روبيكا الأبواب على نفسها، وعكفت على ذاتها، دافنة إياها في الحياة، يلفها صغار هائل وازدراء شديد، لم تفلح أية محاولة من الإغراء الأرضي في هذا العالم الدنيء أن تكسر حدته. فلم تغادر البيت إلى الطريق سوى مرة واحدة، عندما عجزت وصارت طاعنة في السن. وقد احتذت يومها حذاء بلون الفضة العتيقة، ووضعت على رأسها قبعة مصنوعة من أزهار صغيرة ناعمة. وكان ذلك خلال الفترة التي شهدت فيها البلدة مرور اليهودي التائه، الذي جلب معه الحرارة الشديدة التي ألهبت الجوّ، حتى كانت الطيور تحطم زجاج النوافذ، في اندفاعها إلى غرف البيوت لتموت فيها.

وقد رأى الناس روبيكا، وهي حية، مرة أخرى وأخيرة. وكان ذلك يوم قتلت، بطلقة صائبة من مسدسها، لصاً كان يحاول أن يخلع باب بيتها بالقوة. ولم يتصل بها، فيما عدا ذلك، أو يراها أحد عدا خادمتها وكاتمة أسرارها أرجينيدا. وقد علم، ذات مرة، أنها كانت تكتب رسائل إلى المطران، الذي كانت تعده ابن عمها، ولكن أحداً لم يذكر أنها تلقت أي جواب. ثم نسيتها البلدة.

لم يدع العقيد أوريليانو بوينديا المظاهر تستأثر باهتمامه، على الرغم من عودته المظفرة.

فقد كانت القطعات العسكرية الحكومية قد تخلت عن مواقعها دون مقاومة، مما كان يولد لدى صفوف الأحرار وهماً بالنصر، لم يكن من المناسب إحباطه. ولكن الثوريين كانوا يعرفون الحقيقة. وكان أكثرهم معرفة بذلك العقيد أوريليانو بوينديا. فعلى الرغم من أنه كان، حينذاك، يقود خمسة آلاف رجل، ويسيطر على مقاطعتين ساحليتين، إلاّ أنه كان

يشعر أنه محشور، وظهره إلى البحر، وأنه محاصر في وضع معقّد. حتى إنه، عندما أمر بترميم برج الكنيسة، الذي هدمته مدافع الجيش النظامي، جاءه تعليق الأب نيكانور، وهو على فراش المرض :

ـ إنه لمن سخرية القدر أن الذين يدافعون عن دين المسيح يهدمون الكنيسة، بينما يعيد تشييدها الماسونيون.

كان العقيد دائماً يبحث عن زاوية يخلو فيها إلى نفسه. فيفرّ إلى مكتب التلغراف، حيث يقضي الساعات الطوال، يبحث الأحوال مع قادة المواقع والبلدان الأخرى. ولكنه كان في كل مرة يزداد شعوراً بأن الحرب آخذة بالتعقد والركود. وكان كلما بلغه خبر عن انتصار جديد للأحرار، صيغ إعلانه بلهجة مفعمة بالجذل والفرح، لاذ بخرائطه يقيس عليها حقيقة تقدم قطعاته، فيجد أنها ما فتئت تغوص في الغابات، حيث يتعين عليها أن تدافع عن نفسها ضد الملاريا والبعوض، فكأنها تتقدم في اتجاه معاكس للواقع. ولطالما كان يشكو لضباطه قائلاً :

ـ إننا نضيع الوقت، ما دام أوباش الحزب يستجدون المقاعد في مجلس النواب.

كان، في ليالي القلق الشديد، يستلقي على ظهره في أرجوحته التي علقها في الغرفة ذاتها التي كان ينتظر فيها الإعدام، فيتخيل صور أولئك المحامين، بأزيائهم السوداء، وقد غادروا القصر الرئاسي مع الفجر المتجلد، وقد رفعوا ياقات معاطفهم حتى آذانهم، يفركون أيديهم، ويهمس بعضهم لبعض، وقد لاذوا ببعض المقاهي والمطاعم الصغيرة الخافتة الأضواء، التي تفتح أبوابها مع الفجر، لكي يناقشوا ما كان يعنيه الرئيس عندما قال «نعم». وما أراده عندما قال «لا». ثم ينشئون افتراضات لما يمكن أن يكون قد فكر فيه الرئيس، أو يتخيلون ما كان يفكر

فيه عندما قال شيئاً مخالفاً تماماً. كل ذلك، وهو يطارد البعوض في حرارة تبلغ خمساً وتسعين درجة(١)، ويحس باقتراب الفجر المخيف، عندما قد يكون عليه أن يأمر رجاله بأن يلقوا بأنفسهم في البحر.

وفي إحدى ليالي القلق الشديد، وبينما كانت بيلار تيرنيزا تغني مع الجنود في الساحة العامة، أرسل في طلبها كي تقرأ له مستقبله بورق اللعب. فوزعت بيلار تيرنيزا ورقها ثم جمعته مرات ثلاثاً، وكان كل ما قالته له :

ـ احترس من فمك.

وبعد يومين من ذلك، قدّم شخص ما طاساً من القهوة إلى وصيف (خادم)، فأعطاه هذا بدوره إلى وصيف آخر، ثم إلى ثالث. وهكذا انتقل الطاس من يد إلى يد حتى وصل إلى مكتب العقيد أوريليانو بوينديا، ولم يكن قد طلب القهوة. ولكنه شربها لمجرد أنها قدمت إليه. وكان الطاس يحوي كمية من جوز القيء تكفي لقتل حصان. فنقلوه إلى البيت، وكان جسمه متصلباً ومقوّساً، وقد عضّ بحدة على لسانه.

جعلت أورسولا تصارع الموت فيه، محاولة أن تنتزعه من براثنه، فغسلت له معدته بالمقيئات، ثم غطته بأغطيه حارّة، وواظبت على تبليعه بياض البيض على مدى يومين، حتى استعاد جسمه المسمّم حرارته الطبيعية. وفي اليوم الرابع. زال الخطر عنه، ولكنه أرغم على التزام سريره أسبوعاً آخر، خاضعاً لرجاء أورسولا وضغطها، وتوسّلات ضباطه.

وعندها فقط علم أن أشعاره لم تحترق. قالت أورسولا :

ـ لم أكن على عجلة من أمري، في تلك الليلة، لإشعال الموقد.

---

(١) ٩٥ درجة فهرنهايتية، وهي تساوي ٣٥ درجة مئوية.

فقلت في نفسي : يفضل أن أنتظر حتى يحضروا الجثة.

وأعاد العقيد أوريليانو بوينديا قراءة أشعاره، بينما كان يشفى من مرضه، ويعود رويداً رويداً من جوه الضبابي، وحوله دمى ريميديوس المغمورة بالغبار. فاستعادت ذاكرته كل لحظات حياته الحاسمة. وعاد إلى الكتابة، وتفجرت أوزان قوافيه، تسيل شعراً، على مدى ساعات طويلة تمر في ثنايا انتفاضات حرب لا مستقبل لها، تظل الحياة فيها، دائماً وأبداً، على شواطىء الموت. وأصبحت أفكاره على أوضح ما تكون، فاستطاع أن يقلبها متفحصاً كل نواحيها. وذات يوم، سأل صديقه العقيد جيرينيلدو ماركيز :

ـ هلاّ أخبرتني أيها الصديق الأصيل. . قل لي : لماذا تحارب أنت؟

فأجاب العقيد جيرينيلدو ماركيز قائلاً :

ـ وهل يكون هناك سبب آخر؟ أحارب من أجل حزب الأحرار العظيم.

فقال :

ـ هنيئاً لك لأنك تعرف السبب. أما أنا فقد اكتشفت، الآن فقط، أني إنما أقاتل مدفوعاً بالكبرياء والغرور. فعلّق العقيد جيرينيلدو ماركيز :

ـ هذا أمر سيء.

وأضحكته سرعة استجابة العقيد جيرينيلدو ماركيز، فقال العقيد أوريليانو بوينديا :

ـ طبعاً. ولكنه، على كل حال، أمر أفضل من عدم معرفة الإنسان لماذا يحارب.

ثم حدّق في عيني صديقه، وأضاف مبتسماً :

ـ أو أفضل من أن تحارب من أجل أمر لا معنى له لدى أيّ إنسان،

كما هي الحال معك.

وقد حالت كبرياؤه دون أن ينشىء علاقات مع المجموعات المسلحة في المناطق الداخلية من البلاد، حتى تراجع قادة الأحرار وأعلنوا على الملأ الرجوع عن قرارهم الذي أعلنوا فيه أن العقيد أوريليانو بوينديا لم يكن سوى واحد من قطاع الطرق. ولقد كان يشعر، على كل حال، أنه حالما يتخلص من تلك الهواجس، فسوف يستطيع كسر حلقة الحرب السيئة المفرغة. وقد منحته فترة النقاهة فرصة للتفكير والتأمل في ذلك كله. وتمكن من إقناع أورسولا بأن تعطيه بقية الميراث المدفون تحت الأرض وكل ما كانت قد ادّخرته حتى الآن. ثم عيّن العقيد جيرينيلدو ماركيز حاكماً مدنياً وعسكرياً لبلدة ماكوندو، ثم غادر البلدة لكي يقيم الصلة مع العناصر الثائرة والمجموعات المسلحة في داخل البلاد.

ولم يكن العقيد جيرينيلدو ماركيز أكثر إنسان يثق به العقيد أوريليانو بوينديا وأقرب الناس إليه وحسب، وإنما كانت أورسولا تستقبله في بيت العائلة كواحد من أفراد الأسرة. كان نحيلاً وخجولاً، وذا أخلاق طبيعية وتربية حسنة، ولكنه كان رجل حرب أكثر منه رجل إدارة. فكان من السهل على مستشاريه السياسيين أن يضللوه في متاهاتهم النظرية. ولكنه، على الرغم من كل ذلك، نجح في توطيد جو ريفي هادىء يسود ماكوندو، تماماً كما كان يحلم العقيد أوريليانو بوينديا، حتى بات بوسعه أن يفارق هذه الدنيا مطمئناً، بعد أن يقضي شيخوخته في صنع السمكات الذهبية الصغيرة.

كان، على الرغم من إقامته عند ذويه، يتناول طعام الغداء مرتين أو ثلاثاً، في الأسبوع، في بيت الأسرة عند أورسولا. فعلم أوريليانو خوزيه استعمال الأسلحة النارية، وثقفه ثقافة عسكرية مبكرة، وكثيراً ما اصطحبه إلى الثكنة العسكرية، بموافقة جدته أورسولا، كي يعيش فيها

بضعة أشهر لعله يصبح رجلاً.

وكان جيرينيلدو ماركيز قبل سنوات طويلة من هذا التاريخ، وكان ما يزال بعد طفلاً، قد أعلن عن حبه لأمارانتا، في الفترة التي كانت لا ترى في الدنيا سوى عشق بيترو كريسبي الذي كان يسيطر على كل أحلامها. وقد ضحكت منه آنذاك، ولكنه ظلّ ينتظر. وقد أرسل لها جيرينيلدو ماركيز من سجنه، ذات يوم، رسالة يرجوها فيها أن تطرز له دزينة مناديل من الكتان، تحمل الحروف الأولى من اسم أبيه، وبعث لها بالتكاليف مع الرسالة. وبعد أسبوع واحد من ذلك، زارته أمارانتا في السجن، وأعطته المناديل المطرزة، وأرجعت له الدراهم التي أرسلها. وقد أمضيا، عندئذ، ساعات طويلة يسترجعان ذكريات الماضي. وقال لها جيرينيلدو ماركيز عندما همّت بالانصراف :

ـ عندما أغادر السجن سوف أتزوج منك.

وابتسمت أمارانتا، ولم تكف من بعد هذا عن التفكير فيه، بينما كانت تعلم الأطفال القراءة. ولكم تمنت لو أنها تستطيع أن تعيش، مرة ثانية، ذلك العشق الطفولي الذي كانت تكنه لبيترو كريسبي. وكانت، في أيام السبت، أيام زيارة السجناء، تمر بأهل جيرينيلدو ماركيز، كي تصحبهم إلى السجن. وقد عجبت لها أورسولا، في أحد تلك الأيام، عندما وجدتها في المطبخ تنتظر أن تخرج من الفرن أفضل أقراص البسكوت ، ثم تضعها في منديل طرزته لهذه الغاية .

فقالت لها :

ـ تزوجي منه. ليس من السهل أن تجدي رجلاً مثله

وتظاهرت أمارانتا بالاستياء، وأجابت :

ـ لست مضطرة للسعي وراء الرجال. وأنا آخذ هذه الأقراص

لجيرينيلدو ماركيز، لأنهم سوف يعدمونه عاجلاً أو آجلاً، مما يبعث على الشفقة والحزن.

قالت ما قالته دون تفكير كثير. ولكن ذلك صادف الفترة التي أعلنت فيها الحكومة تهديدها بإعدام العقيد جيرينيلدو ماركيز، ما لم تتخلّ قوات الثوار عن مدينة ريو هاشا. وعندها منعت عنه الزيارة. وقد حبست أمارانتا نفسها في غرفتها، كي تغرق في البكاء، يرهقها شعور بالذنب شبيه بذلك الذي عذبها بعد موت ريميديوس، كما لو كانت الكلمات التي قالتها عفواً تسبب للمرة الثانية موت إنسان. وقد طيبت أمها خاطرها، وطمأنتها إلى أن أخاها العقيد أوريليانو بوينديا سوف يفعل شيئاً ما لمنع إعدامه. ووعدتها بأن تقوم هي نفسها باجتذاب جيرينيلدو ماركيز بعد أن تنتهي الحرب. وقد نفذت وعدها قبل الموعد المنتظر.

ولما عاد جيرينيلدو ماركيز إلى البيت، بعد أن عيّن قائداً مدنياً وعسكرياً، استقبلته كواحد من أبنائها. ولم تضنّ عليه بأحسن المديح علها تمسك به. وكثيراً ما صلت بحرارة لعله يذكر مشروع زواجه من أمارانتا. ويبدو أن صلواتها قد أثمرت: فقد جعل العقيد جيرينيلدو ماركيز، كلما جاء للغداء في البيت، ينتظر بعد الظهر في الشرفة ذات أزهار البيجونيا كي يلعب مع أمارانتا جولات وجولات من الدامة. وكانت أورسولا تجلب لهما الشاي والحليب والبسكوت، وتعتني بالأطفال خشية أن يزعجوهما. وجهدت أورسولا كي تشعل في قلب أمارانتا، من جديد، رماد عواطفها الطفولية المنسية. وراحت أمارانتا تنتظر، بضيق صدر، الأيام التي كان يأتي فيها إلى البيت لتناول الغداء ولعب الدامة بعد الظهر، وترقب السويعات القصيرة التي كانت تقضيها بصحبة ذلك المحارب، الذي كان في اسمه حنين، وفي أصابعه رجفة خفيفة ترافق مسّه حجارة الطاولة. ولكنها في اليوم الذي صرح لها

العقيد جيرينيلدو ماركيز فيه برغبته في الزواج منها، رفضته قائلة :

ـ لن أتزوج من أحد، ومنك أنت بصورة خاصة. فأنت تحب أوريليانو إلى الدرجة التي تدفعك للزواج مني، لأنك لا تستطيع الزواج منه.

كان العقيد جيرينيلدو ماركيز رجلاً صبوراً، فقال لها :

ـ سوف تجدين مني إصراراً. وسوف أقنعك إن عاجلاً أو آجلاً.

وواظب على المجيء إلى البيت. أما هي فكانت تسجن نفسها، فتعكف على ذاتها تجترّ دموعها، وتسدّ أذنيها كي لا تسمع صوت ذلك الرجل الطامح إلى الزواج منها، وهو يروي لأورسولا آخر أنباء الحرب، على الرغم من أنها كانت تتلهف شوقاً لرؤيته. وقد استطاعت أن ترغم نفسها، فلم تخرج قط للقائه.

كان العقيد أوريليانو بوينديا قد بدأ يجد من وقته ما يمكنه من إرسال تقرير مفصل إلى ماكوندو مرة كل أسبوعين. ولكنه لم يكتب لأورسولا سوى مرة واحدة بعد ثمانية شهور من مغادرة البلدة. وقد حمل كتابه إليها رسول خاص، وصل البيت ومعه مغلّف مختوم يحتوي على ورقة تحمل خط العقيد الجميل. وجاء في الرسالة :

ـ «اعتنوا جيداً بأبي لأنه سوف يموت».

فذعرت أورسولا، ولكنها قالت :

ـ ما دام أوريليانو هو القائل فهو يعرف ما يقول.

ثم طلبت من الآخرين مساعدتها على نقل خوزيه أركاديو بوينديا إلى غرفة نومه. كان وزنه أثقل من ذي قبل. فقد اكتسب، خلال بقائه الطويل تحت شجرة الكستناء، القدرة على أن يزيد وزنه حسب مشيئته، حتى إن سبعة من الرجال لم يستطيعوا حمله، فجروه إلى سريره جراً. وامتلأ هواء الغرفة برائحة فطر طريّة،* وأزهار أشجار برية طفيلية، ناشئة

عن تنفس ذلك العجوز العملاق الذي صهرته الشمس والمطر وطوّره تعاقب الحر والبرد.

في صباح اليوم التالي لم يكن الرجل في سريره. ولم يعثر عليه في أي من غرف البيت. فقد عاد إلى شجرة الكستناء. ولم يكن خوزيه أركاديو بوينديا في حال يقاوم معها، ولو أن قوته ما زالت على ما كانت عليه دائماً. ولم يشعر بأي فرق بين ما كان فيه وما نقلوه إليه. فلم يرجع إلى شجرة الكستناء لأنه أراد ذلك، ولكن بفعل ما تعوّد عليه جسمه. وكانت أورسولا تعتني به، فتأتيه بالطعام، وتروي له أخبار أوريليانو.

والواقع أن الشخص الوحيد الذي كان يستطيع أن يقيم معه علاقة ما، ومنذ عهد بعيد، هو برودينسيو أجويلار، فقد كان برودينسيو أجويلار، وإن يكن الموت قد أحاله إلى تراب، يجيئه مرتين كل يوم ليثرثر معه. وكانا يتحادثان عن ديكة القتال، ويتواعدان على أن يتعهدا تربية حيوانات جميلة، ليس من أجل الاستمتاع بالنصر، فلم يعودا بحاجة إليه، بل من أجل أن يحتفظا بما يسرّيان به عن نفسيهما إزاء الضجر الذي تجلبه لهما أيام آحاد الموت. وكان برودينسيو أجويلار هو الذي يغسل له جسمه، وهو الذي يطعمه، وهو الذي يروي له الأخبار الرائعة عن شخص مجهول يدعى أوريليانو الذي كان عقيداً في الحرب.

كان خوزيه أركاديو بوينديا، عندما يكون وحيداً، يسلي نفسه بأن يحلم بغرف تتتالى حتى اللانهاية. كان يحلم بأنه ينهض من سريره، فيفتح الباب ليدخل غرفة مشابهة تماماً فيها السرير ذو الطرف الحديدي وإلى جانبه مقعده الهزاز، وعلى جدار الغرفة الخلفي صورة صغيرة للعذراء سيدة النجدة. ومن تلك الغرفة، ينتقل إلى غرفة أخرى مشابهة تماماً كأنها الغرفة الأولى ذاتها، ويؤدي باب الغرفة الثانية إلى غرفة أخرى

مشابهة، فأخرى، وهكذا حتى اللانهاية. فقد كان يحب التنقل من حجرة إلى أخرى، كأنه في رواق نصبت على جانبيه مرايا متوازية. ويظل على تلك الحال حتى يصل برودينسيو أجويلار، فيلمس كتفه.. وعندها يعود من حجرة إلى حجرة، سائراً بخط عكسيّ، عائداً على أثره، ويستيقظ شيئاً فشيئاً، بقدر ما يرجع إلى الوراء، حتى يجد أمامه برودينسيو أجويلار في غرفة الحقيقة. ولكنه ذات ليلة، وبالتحديد بعد أسبوعين من نقله إلى السرير في غرفة نومه، لمس برودينسيوأجويلار كتفه، في غرفة متوسطة، فبقي فيها إلى الأبد، وهو يظن أنها غرفة الحقيقة.

وفي صباح اليوم التالي، رأت أورسولا، وهي تحمل له طعام الفطور، رجلاً يقترب من الممر. كان قصيراً ضخم الجثة، يرتدي بزة من قماش أسود، ويلبس قبعة كبيرة ذات لون أسود أيضاً، وقد أنزلها فوق عينيه. ففكرت أورسولا في نفسها وهمست:

ـ يا إلهي، أكاد أقسم أنه ملكيادس.

ولكنه كان كاتور، أخا فيزيتا سيون الذي رحل عن البيت فاراً من طاعون الأرق، وانقطعت أخباره منذ ذلك الزمن. فسألته فيزيتا سيون عن سبب عودته، فأجابها قائلاً:

ـ جئت كي أحضر دفن الملك.

دخل الجميع إلى غرفة خوزيه أركاديو بوينديا، وهزّوه بكل قواهم، وصاحوا في أذنه، ووضعوا مرآة أمام منخريه، فما استطاعوا أن يوقظوه. وبعد قليل، وعندما حضر النجار كي يأخذ القياس لصنع النعش رأوا، عبر النافذة، رذاذاً من الأزهار الصغيرة الصفراء. كانت الأزهار تهمي طوال الليل، في وابل خفيف على البلدة الساجية، حتى غطت السفوح

والسطوح، وتراكمت عند أسفل الأبواب، وخنقت الحيوانات النائمة في العراء. وقد تساقط من السماء من الأزهار ما كان كافياً لكي يغطي في الصباح شوارع البلدة ببساط سميك، فاضطر الناس لجرف الأزهار بالمجارف، لكي يتمكن موكب الجنازة من المرور.

(٨)

كانت أمارانتا تجلس في مقعدها المتحرك، وقد وضعت في حضنها قطعة قماش التطريز التي هجرتها منذ زمن، وأخذت ترقب خوزيه أوريليانو، بذقنه المغطاة برغوة الصابون، وقد أمسك بالموسى يشحذها على سير الجلد كي يحلق ذقنه للمرة الأولى. وقد أسال الدم من بثور وجهه الصغيرة، من حب الشباب، وجرح شفته العليا، وهو يحاول تنظيم شاربيه بإزالة بعض الزغب الأشقر من حولهما. ولما انتهى من ذلك لم يطرأ على وجهه تغير يذكر. ولكن هذا العمل، وما بذله فيه من جهد ولّد لدى أمارانتا شعوراً بأنها قد بدأت تشيخ. فقالت له:

ـ إنك تشبه أوريليانو عندما كان في سنك. لقد صرت الآن رجلاً.

والحق أنه صار رجلاً منذ عهد بعيد، منذ ذلك اليوم القصيّ الذي ظنت فيه أمارانتا أنه كان ما يزال طفلاً، فتعرّت أمامه في الحمام على عادتها، وكما كانت تفعل منذ سلمتها إياه أمه بيلار تيريزا فتعهدت تربيته، وكان الشيء الوحيد الذي أثار انتباهه، للمرة الأولى التي رآها فيها عارية، هو انخفاض ما بين نهديها. وكان بريئاً إلى الحد الذي جعله يسألها عما أصابها. فأجابته أمارانتا، وهي تتظاهر بأنها تحك صدرها برؤوس أصابعها:

ـ لقد أحدثوا فيّ جروحاً هائلة.

وبعد ذلك بحين، وبعد أن برئت مما رافق انتحار بيترو كريسبي، وعادت إلى الاغتسال مع أوريليانو خوزيه من جديد، لم يعد هذا ليهتم بذلك الانخفاض بين نهديها، ولكنه كان يحس بقشعريرة غريبة عندما كان يرى نهديها الرائعين وحلمتيها البنفسجيتين. ولكنه ظل يتفحصها، ويكتشف الانحناء بعد الآخر من تعرجات جسدها المدهش وتثنياته، وهو يحس أن جسده يتقشعر لدى هذا التأمل، كما يقشعر جسدها أول ما يلامس الماء. وقد تعوّد منذ طفولته المبكرة أن يغادر أرجوحته ليجد نفسه في الصباح في سرير أمارانتا، لأن ملمس جسدها كان يبعد عنه الخوف من الظلام. ولكنه منذ اليوم الذي وعى فيه على عريه ذاته، لم يعد الخوف من الظلام هو الذي يدفعه إلى سرير أمارانتا وتحت الكلة التي ترد عنها البعوض. بل كان يدفعه إلى ذلك شمّ تنفسها الطري عند طلوع الشمس.

وذات صباح، من الفترة التي ردّت فيها عرض العقيد جيرينيلدو ماركيز، استفاق أوريليانو خوزيه وهو يحس بضيق في التنفس. وشعر بأصابع أمارانتا، كأنها حشرات صغيرة دافئة وقلقة، تعبر منطقة معدته وبطنه. فغير وضع نومه، وهو يتظاهر بالنوم، كي يسهل حركة يدها. فإذا يد أمارانتا، بلا ضمادها الأسود، تطوفه وتغوص، كسمكة محار عمياء، بين شعيرات عانته حيث يكمن قلقه وانتظاره. ومنذ تلك الليلة، وعلى الرغم من تظاهرهما بأنهما يجهلان ما يعلم كل منهما وما يعرف كلاهما أن الآخر يعلمه، ظلا متحدين في كتمان لا تنفصم عراه.

كان أوريليانو خوزيه لا يستطيع النوم إلا حين يسمع الساعة في غرفة الجلوس تعزف الموسيقى منتصف الليل، ولا تعرف تلك العذراء الناضجة، التي كان جسدها قد بدأ يسمر ويذبل حزناً، لحظة راحة، إلا إذا أحست بالسائر في نومه، ذلك الذي رعته وربّته، يندس في سريرها

تحت كلتها. وما كانت لتدري أن يوماً سيأتي فيصبح فيه الدواء المسكن لوحدتها. ومنذئذ لم يكفًا عن النوم معاً عاريين يتبادلان عناقاً لا يروي، بل أخذا يلاحق أحدهما الآخر في كل أنحاء الدار وزوايا البيت، فيغلقان عليهما أبواب الغرف، وهما في حالة هيجان دائمة. وكادت تفاجئهما أورسولا، ذات عصر، حين دخلت مستودع الحبوب، بينما كانا يتبادلان القبل. فسألت أوريليانو خوزيه ببراءة :

هل تحب عمتك كثيراً؟

فأجابها موافقاً، وأضافت هي قائلة :

ـ هذا أمر جيد.

ثم تابعت كيل الطحين اللازم لصنع الخبز، وعادت إلى المطبخ. وقد أثرت تلك الحادثة في أمارانتا، فأخرجتها من دوامتها، عندما اكتشفت أنها قد تمادت، وأن الزمن الذي كانت تعبث فيه بالقبل مع طفل قد ولّى وانقضى، وأنها إنما كانت تنزلق في هوى خريفي خطير لا مستقبل له. فوضعت حداً لتلك العلاقة مرة واحدة. وصحا أوريليانو خوزيه أيضاً على واقع ما كان فيه، وكان على وشك الانتهاء من تدريبه العسكري، فجعل ينام في الثكنة. وكان يرافق العسكريين كل يوم سبت إلى مخزن كاتارينو، حيث كان يعزي نفسه ويسرّي عنها، في وحدته القاسية وبلوغه المبكر، بنساء لهن رائحة الأزهار الميتة، فيتخيل لهن في الظلام صوراً مثالية رائعة يتقمصن فيها شخصية أمارانتا، ولطالما كان يسرف في هذا ويكد خياله.

وبعد فترة قصيرة، من هذا التاريخ، بدأت تتوارد عن الحرب أنباء متناقضة. ففي الحين الذي كانت تعترف فيه الحكومة بتقدم الثورة، علم الضباط، عن طريق بعض التقارير السرية، عن قرب نجاح مفاوضات الصلح. وفي أوائل نيسان (أبريل)، وصل رسول خاص إلى العقيد

جيرينيلدو ماركيز، فأكد له أن زعماء الحزب قد اتصلوا بقادة الثورة في الداخل، وأنهم باتوا على أهبة توقيع الهدنة لقاء ثلاثة مقاعد وزارية تعطى للأحرار، وتمثيل نيابي يشكلون فيه الأقلية، ويمنحون العفو العام عن الثوار جميعاً شريطة أن يلقوا السلاح. وكان الرسول يحمل كتاباً في غاية السرية من العقيد أورليانو بوينديا الذي كان يرفض شروط الهدنة. وقد طلب من العقيد جيرينيلدو ماركيز أن يختار خمسة من أفضل رجاله وأخلصهم، ويستعد ليغادر بهم البلاد.

وقد نفذ الأمر في منتهى الكتمان. فقبل أسبوع من إعلان الاتفاق، ووسط عاصفة من الشائعات المتناقضة، وصل إلى ماكوندو سراً، وبعد منتصف الليل، العقيد أورليانو بوينديا، مع عشرة من ضباطه الموثوقين، بينهم العقيد روكه كارنيسيرو. فسرّحوا الحامية، ودفنوا السلاح في الأرض، وأحرقوا الملفات وأوراق المحفوظات. ثم غادروا البلدة عند الفجر، ومعهم العقيد جيرينيلدو ماركيز وخمسة من ضباطه. وقد نفذت العملية سراً وبسرعة، حتى إن أورسولا لم تعلم عنها شيئاً إلاّ في الدقيقة الأخيرة، عندما طرق رجل نافذة غرفة نومها طرقات خفيفة، وهمس قائلاً:

- إذا كنت تريدين رؤية العقيد أورليانو بوينديا، فاخرجي الآن إلى الباب، والقي عليه نظرة.

فقفزت أورسولا من سريرها، وسارعت إلى عتبة البيت، وهي بعد في قميص النوم، فما استطاعت إلاّ بصعوبة رؤية جماعة من الخيّالة، وهي تغادر البلدة خبباً، تظللها سحابة غبار صامتة. ولم تدر إلاّ في صباح الغد أنّ أورليانو خوزيه قد رحل مع أبيه.

وبعد عشرة أيام من صدور البيان المشترك باسم الحكومة والمعارضة، وصلت الأنباء الأولى عن انتفاضة مسلحة يقودها العقيد أورليانو بوينديا

على الحدود الغربية. ولكن قواته القليلة العدد والسيئة التسليح لم تصمد أكثر من أسبوع. وعلى الرغم من ذلك، استطاع العقيد أورليانو بوينديا، خلال تلك السنة نفسها، أن يشعل الثورة في سبعة مواقع جديدة، بينما كان الأحرار والمحافظون يحاولون معاً إقناع البلاد بالاتفاق والمصالحة. وذات ليلة أطلقت مدافعه النار على ريوهاشا من مركب صغير، فخرج جنود الحامية من أسرّتهم فزعين وأعدموا انتقاماً أربعة عشر من وجوه الأحرار في المدينة. وقد احتل مركز جمارك على الحدود، لمدة خمسة عشر يوماً، وقد أذاع منه للأمة نداء دعاها فيه إلى الحرب الشاملة. وقد استمرت إحدى حملاته عبر الأدغال شهوراً طويلة، في محاولة جنونية لقطع مسافة تزيد على ألف ميل من أرض عذراء لم تطأها قدم من قبل، مستهدفاً إعلان الثورة في ضواحي العاصمة. وفي إحدى المرات وجد نفسه على بعد خمسة عشر ميلاً من ماكوندو، ولكن الدوريات الحكومية أجبرته على التقهقر إلى الجبال الغربية من المنطقة المسحورة التي وجد فيها أبوه، منذ عهد بعيد، درعاً إسبانياً متحجراً.

في تلك الفترة، ماتت فيزيتا سيون، وكان موتها طبيعياً. وهي التي عافت عرشاً خوفاً من مرض الأرق. وكان آخر ما أوصت به أن ينبش من الأرض تحت سريرها ما ادّخرته من أجرها ما يزيد على عشرين سنة، كي يرسل إلى العقيد أورليانو بوينديا لعله يستطيع الاستمرار في الحرب. ولكن أورسولا لم تكلف نفسها عناء نبش الأرض لاستخراج المال، لأن الأنباء التي وصلت كانت تزعم أن العقيد أورليانو بوينديا قد قتل عندما نزل بعاصمة الإقليم.

وكان مصدر الخبر الإعلان الرسمي - وهو رابع إعلان من نوعه خلال السنتين الأخيرتين - ولكن الناس صدقوه هذه المرة على مدى ستة أشهر، لأن أحداً لم يسمع عنه شيئاً خلال تلك الفترة. وبعد أن ارتدت أورسولا

وأمارانتا ثياب الحداد ـ كما كانتا تفعلان في كل مرة يصلهما نبأ موته ـ سمعتا فجأة خبراً جديداً. فقد كان العقيد أوريليانو بوينديا حياً، ولكن يبدو أنه قد كفّ عن إزعاج سلطات بلاده، وتحالف مع الفيدراليين المنتصرين في جمهوريات أخرى من بلاد البحر الكاريبي. وكان يظهر بأسماء مختلفة كلما شط به المزار عن أرض وطنه. واتضحت أخيراً الفكرة التي كان يعيش لها، وهي توحيد القوى الفيدرالية في أميركا الوسطى، وزوال الأنظمة المحافظة من ألاسكا إلى باتاغونيا. وكان أول ما وصل منه مباشرة إلى أمه أورسولا، بعد عدة سنوات من مغادرته البلدة، رسالة ذابلة مجعّدة وشبه مهترئة، قد أنّحت بعض حروفها، بسبب انتقالها من يد ليد، ابتداء من سانتياغو في كوبا.

وقد صاحت أورسولا لدى قراءة الرسالة :

ـ لقد فقدناه إلى الأبد. وإذا تابع ما هو فيه فسوف يقضي عيد الميلاد بعيداً في أقصى أطراف الأرض. وكان محدثها الذي ذكرت له قولها ذاك، هو أوّل من اطلع على الرسالة. وهو القائد العام (اللواء) المحافظ خوزيه راكيل مونكادا، محافظ بلدة ماكوندو منذ نهاية الحرب. وقد علّق على الرسالة بقوله :

ـ من المؤسف ألاّ يكون هذا الأوريليانو من المحافظين. ولقد كان معجباً به فعلاً. وكان اللواء خوزيه راكيل مونكادا من أولئك المدنيين المحافظين الذين خاضوا الحرب دفاعاً عن حزبهم. وقد ترقى إلى رتبة لواء في ساحة المعركة، مع أنه لم يكن يميل إطلاقاً للحياة العسكرية. ولكنه كان، على العكس من ذلك، ككثير من رفاقه في الحزب، ضد الروح العسكرية. كان يعد العسكريين بلا نفع ولا إيمان ولا شريعة. فهم في نظره مناورون طموحون، وليس شأنهم سوى معاندة المدنيين كي ينشروا الفوضى. وكان ذكياً ولطيفاً، أشقر الوجه ميالاً للحمرة، وذا مزاج يحب

الأكل الطيب، ومن أشد الناس حماسة لقتال الديكة. وقد كان في وقت من الأوقات من أشد خصوم العقيد أوريليانو بوينديا. وقد نجح في فرض سيطرته وسلطته على العسكريين المحترفين في قطاع واسع على الساحل. وفي يوم من أيام القتال، وقد اضطرته ضرورات الحرب الاستراتيجية للتخلي عن أحد مواقعه لقوات العقيد أوريليانو بوينديا، ترك له رسالتين. كانت الأولى طويلة دعاه فيها للتعاون معه في قيادة حملة غايتها جعل المعارك والحرب أكثر إنسانية. أما الرسالة الثانية فكانت موجهة إلى زوجته، التي كانت تعيش في منطقة تحت سيطرة الأحرار. وقد تركها بعد أن خط عليها رجاء بإيصالها إليها.

ومنذئذ، وفي أحلك فترات القتال ضراوة، جرى القائدان على اتفاق ينظمان به هدنات يتم فيها تبادل الأسرى. وكان جو من الاحتفال يسيطر على تلك الفترات، فيمتد توقف القتال، ويستغله اللواء مونكادا في تعليم العقيد أوريليانو بوينديا لعبة الشطرنج. وقد نشأت بينهما علاقة طيبة جعلت منهما صديقين حميمين. وقد توصلا إلى التفكير بإمكان جمع العناصر الشعبية في كلا الحزبين، كي يتخلصا من هيمنة العسكريين ومحترفي السياسة، ويقيما نظاماً إنسانياً يستفيد من أفضل ما في مبادىء الحزبين.

وحينما انتهت الحرب، توارى العقيد أوريليانو بوينديا عن الأنظار، في شعاب الأدغال، متابعاً خط الثورة الدائمة الضيقة الإطار، بينما عيّن اللواء مونكادا حاكماً لبلدة ماكوندو. فارتدى البزة المدنية، وعيّن رجال شرطة بلا سلاح ليحلوا محل العسكريين، واحترم قوانين العفو العام، فساعد عائلات الأحرار الذين قضوا في الحرب. وحصل على مرسوم حكومي يجعل ماكوندو بلدية، فكان أول محافظ لها، وأشاع فيها جواً من الثقة، حتى إن أحداً لم يعد يذكر الحرب أو يفكر فيها إلاّ بصفتها

كابوساً من عبث الماضي.

وعيّن الأب كورونيل (الملقب بالشبل) مكان الأب نيكانور الذي أنهكته حمى الكبد. وهو رائد مخضرم من رواد الحرب الفيدرالية الأولى.

وتزوج برونو كريسبي من أمبارو موسكوت، وازدهر أكثر وأكثر مخزنه للألعاب والآلات الموسيقية. ثم بنى مسرحاً وضعته الفرق الاسبانية ضمن برنامج جولاتها. وقد كان واسعاً، أقيم في الهواء الطلق، ووضعت فيه مقاعد من خشب لها مساند، وجعلت له ستارة من المخمل تزينها أقنعة يونانية، وأنشئت على مداخله ثلاث نوافذ للتذاكر على شكل رؤوس الأسود، تباع التذاكر في أشداقها المفتوحة.

وفي تلك الفترة أيضاً رممت الأبنية المدرسية، وتولى إدارة المدرسة الدون ملكور إسكالونا، وهو معلم عجوز جاء من منطقة الماريجو (المستنقعات). وكان يعاقب الطلاب بجعلهم يسيرون على ركبهم في باحة المدرسة الملأى بالرمل، ويطعم الثرثارين منهم الفلفل الحار. وكان كل ذلك يتم بموافقة أولياء الأمور. وكان أول من جلس في قاعة الصف توأما سانتا صوفيا (التقية)(١) : أوريليانو الثاني، وخوزيه أركاديو الثاني، ومعهما لوحاهما الحجريان وقلماهما الحجريان، وإبريقاهما المصنوعان من الألومنيوم وقد نقش عليهما اسماهما.

وبدأت ريميديوس، وارثة جمال أمها النقي الباهر، تعرف باسم ريميديوس الجميلة.

وكانت أورسولا تقاوم العجز والشيخوخة، على الرغم من الأحزان المتتالية، وارتداء ثياب الحداد المرة تلو الأخرى. فعادت إلى تجارة الحلوى، بمساعدة سانتا صوفيا (القديسة التقية)، فاستعادت، خلال

(١) زوجة اركاديو، الذي طغى في غياب اوريليانو بوينديا.

سنوات قليلة، الثروة التي بذرها ابنها في الحرب، وزادت عليها بأن ملأت القرعات المطمورة في الأرض في غرفتها، من جديد، ذهباً خالصاً. وكانت تقول دائماً :

ـ لن ينقص المال من بيت المجانين هذا مهما مدّ الله في عمري.

تلك كانت الأحوال عندما هجر أوريليانو خوزيه(١) القوات الفيدرالية، وانضم إلى البحارة في مركب تجارة ألماني، ثم ظهر فجأة في مطبخ البيت، قوياً كالحصان، أسمر غزير الشعر طويله كالهندي. وقد قرّر في سره أن يتزوج من أمارانتا.

وعندما رأته أمارانتا داخلاً، أدركت لتوّها سبب رجوعه دون أن يقول شيئاً. وكان أحدهما لا يجرؤ على النظر إلى الآخر، إذا جلسا إلى مائدة الطعام. وبعد أسبوعين من تاريخ رجوعه، وبحضور جدته أورسولا، حدّق في عيني أمارانتا، وقال لها :

ـ كنت دائم التفكير فيك.

وتجنبت أمارانتا النظر إليه، وكانت تفرّ منه وتتفادى احتمال أي لقاء طارىء به وحدهما. فتعمدت ألا تبتعد عن ريميديوس الجميلة. وسألها ابن أخيها، ذات يوم، إلى متى ستظل تربط يدها بالضماد الأسود. ففهمت من سؤاله أنه يلمح إلى بكارتها، وأثارته الحمرة التي ضرّجت وجنتيها . ومنذ وصوله إلى البيت دأبت على أن تقفل باب غرفتها ليلاً بالمزلاج. وانقضت ليال كثيرة وهي تسمع غطيطه الهادىء في الغرفة المجاورة، حتى أقلعت عن حذرها وعن احتياطاتها. وفي صباح أحد الأيام، وكان قد انقضى شهران على إيابه، أحست به يدخل غرفتها. وبدلاً من أن تفرّ منه، وبدلاً من أن تصيح كما عزمت أن تفعل، أسلمت نفسها لإحساس ناعم بالراحة. وشعرت به يدخل تحت كلتها، وينزلق

(١) ابن العقيد أوريليانو الذي ربته أمارانتا.

في سريرها، كما كان يفعل عندما كان طفلاً. ولم تستطع أن تدفع عنها العرق البارد الذي بلل جسمها، ولا اصطكاك أسنانها عندما رأته عارياً تماماً. فتمتمت قائلة له :

ـ أخرج من هنا.

قالت ذلك وهي خائفة من أن تتعرف إلى النهاية التي تختنق منها فزعاً. وأعادت القول :

ـ أخرج، وإلاّ فسأصرخ.

ولكن أوريليانو خوزيه كان يعرف جيداً ما الذي بقي عليه أن يفعله. فهو لم يعد الطفل الذي يخاف الظلام. صار كأنه وحش أفلت من قفص كان فيه مأسوراً. وأستأنفا، منذ تلك الليلة، المعارك الصامتة الصماء الطائشة التي كانت تمتد حتى الصباح، وكانت أمارانتا تتمتم وهي مجهدة :

ـ أنا عمتك. . فكأنني أمك. . لا من حيث السنّ وحسب، ولكن لأنني ربيتك أيضاً.

كان أوريليانو خوزيه يغادرها فاراً مع الفجر، ليعود إلى البيت في صباح اليوم التالي. فيزداد هياجه عندما يلاحظ أنها لم تقفل الباب بالمزلاج.

لم يسبق أن فترت رغبته فيها لحظة واحدة. فكان يراها في الغرف المظلمة في القرى المغلوبة الواقعة تحت الاحتلال، ولا سيما الغرف الزرية، ويتصور وجودها في رائحة الدم المتجمد على ضمادات الجرحى، وفي الخوف المخيم من خطر الموت في كل ساعة وفي كل مكان. فقد هرب منها، وحاول جاهداً أن يمحو ذكراها، لا في الابتعاد عنها وحسب، ولكن بضروب الشجاعة الباسلة المتوحشة أحياناً، التي كان يبديها في الحرب، والتي كان رفاقه في السلاح يسمونها تهوراً. ولكنه

كان كلما طوى صورتها وحاول وأدها في مزبلة الحرب، كانت الحرب تصبح شبيهة بأمارانتا. فقد احتمل البعد والنفي، وهو يبحث عن فرصة يقتل فيها صورتها بموته هو، حتى جاء اليوم الذي سمع فيه قصة قديمة عن رجل تزوج عمته. وكانت، إضافة إلى ذلك، ابنة عمه، وخلّفت ولداً فإذا هو جدّه.

وقد تساءل بذهول :

ـ هل يمكن للمرء أن يتزوج عمته؟.

فأجابه أحد الجنود قائلاً :

ـ بل يستطيع ذلك وأكثر. فنحن إنما نخوض هذه الحرب ضد الكهنة ورجال الدين، حتى يستطيع الإنسان أن يتزوج من أمه نفسها.

وبعد أسبوعين من ذلك، فرّ أوريليانو خوزيه من الجيش. فوجد أمارانتا وقد ازدادت ذبولاً عما كانت في ذاكرته . وقد ازدادت كآبة وحزناً وخجلاً. وقد كانت فعلاً تطوي آخر أشرعة نضجها. ولكنها، في ظلام غرفتها . كانت أشد التهاباً مما كانت عليه قط ، وأكثر إثارة وتحدياً مما كانت عليه قط في شراسة مقاومتها . فكانت تقول له ، وقد همّ بها يهصرها بسعارة وشبقه الناريّ غير المحدود :

ـ أنت وحش. فأنت لا تستطيع فعل ذلك مع عمة مسكينة ما لم تحصل على موافقة وعفو خاص من البابا.

وكان أوريليانو خوزيه يعدها بأن يذهب إلى روما. كان يعدها بأن يقطع أوروبا زاحفاً على ركبتيه، وأن يقبل خف الحبر الأعظم، لعلها تسمح له بأن يطأها.

وكانت أمارانتا تجيب :

ـ ليس الأمر هكذا وحسب. فسيولد الأطفال بهذه الطريقة ولهم

أذناب خنازير.

ولكن أوريليانو خوزيه كان يصم أذنيه عن كل تلك الحجج. ويتوسل إليها قائلاً:

ـ لا يهمني حتى ولو ولدوا كالقنافذ.

وفي صباح أحد الأيام، ذهب إلى مخزن كاتارينو، وقد قهرته الآلام الناشئة عن كبت فحولته التي كانت لا تطاق. وهناك وجد امرأة رخوة الثديين، لعوباً رخيصة، استطاعت أن تهدىء ثورة جسده حتى حين.

وحاول بعدها أن يعامل أمارانتا بازدراء. فكان يراها في الشرفة تعمل بآلة خياطة ذات يد، تعلمت استعمالها بمهارة فائقة، فلا يبادرها بكلمة واحدة. وأحست أمارانتا بأنها قد تحررت من عبء ثقيل. ولم تدرك كيف بدأت تفكر من جديد بالعقيد جيرينيلدو ماركيز. ولم تدرك كيف بدأت تذكر، بحنين شديد، أصائل الأيام التي كانت تمضيها معه في لعب الدامة، وكيف صارت تشتهيه شريكاً في مخدعها.

وفي إحدى الليالي، لم يعد أوريليانو خوزيه يطيق هزلية الانصراف عن أمارانتا واللامبالاة في التعامل معها، فعاد إلى غرفتها. فردّته رافضة إياه بصورة لا مرونة فيها، وبشكل حازم لا يقبل التأويل والخطأ. ثم أقفلت باب غرفتها بالمزلاج نهائياً وإلى الأبد.

بعد بضعة أشهر من عودة أوريليانو خوزيه، وصلت إلى البيت امرأة صاخبة الحركة كثيرة البهجة أغدقت على نفسها فيضاً من عطر الياسمين. وكان بصحبتها طفل يبلغ من العمر خمس سنين. وقد أفادت أنه ابن العقيد أوريليانو بوينديا، وأنها جاءت به إلى جدته أورسولا كي تعمده. ولم يشك أحد بنسب الطفل الذي كان ما يزال بلا اسم. فقد كان تامّ الشبه بملامح العقيد أوريليانو في العهد الذي اصطحبه فيه أبوه لمشاهدة الجليد. وحدثتهم المرأة كيف ولد الطفل وعيناه مفتوحتان،

وكيف كان ينظر في وجوه الناس نظرات رجل راشد كأنه يتفحصهم، وأنها خافت من طريقة تحديقه في الأشياء دون أن يطرف له جفن. وقد علقت أورسولا قائلة:

ـ إنه مثله تماماً. ولا ينقصه سوى شيء واحد، وهو أن يجعل الكراسي تهتز وتتحرك بمجرد النظر إليها.

وقد عمّدوه باسم أوريليانو وكنية أمه، لأن القانون لم يكن يسمح بأن يحمل الطفل كنية أبيه ما لم يعترف به. أما عرابه فكان اللواء مونكادا. وقد ألحت أمارانتا على الأم أن تتركه لها كي تربيه وتعتني به، ولكنها رفضت ذلك.

وكانت أورسولا تجهل، في ذلك الوقت، عادة إرسال البنات العذارى إلى غرف نوم المحاربين كما ترسل الدجاجات إلى الديكة الأصيلة. ولكنها وجدت في ذلك العام متسعاً من الوقت لتتعرف فيه على ذلك التقليد. فقد وصل إليها في البيت تسعة آخرون من أبناء العقيد أوريليانو بوينديا، من أجل التعميد. وكان أكبرهم سناً، وقد تجاوز العاشرة من عمره، غريب الشكل أسمر البشرة، ذا عينين خضراوين، لا يشبه عرق الأب، إذ لم يكن فيه ما يشبهه. وجيء بالأولاد من كل الأعمار والألوان. وكانوا جميعاً ذكوراً، يغلب عليهم طابع الوحدة، مما يدفع أي شك بنسبة قرابتهم، وكان اثنان منهم يختلفان عن البقية. إذ كان أحدهما يبدو أكبر من عمره بكثير. وقد حطم آنية الأزهار وعدداً من صحون الطعام، لأن يديه كانتا تكسران كل ما يقع تحتهما. وكان الآخر ذا عينين زرقاوين كعيني أمه، وقد أرخى شعره الأجعد ليتدلى على كتفيه كشعر بنت. وقد دخل البيت وكأنه يألفه ويعرفه تماماً، بل كأنه قد ولد فيه وتربى ونشأ في أكنافه. واتجه مباشرة إلى الصندوق الكبير في غرفة أورسولا، وخاطبها قائلاً:

- أريد الراقصة الآلية ذات النابض.

فصعقت أورسولا، وفتحت الصندوق، وفتشت فيه بين الأشياء القديمة التي يغطيها الغبار، والتي كانت ترقد هناك منذ عهد ملكيادس. فوجدت الراقصة الآلية ذات النابض ملفوفة بزوج من الجوارب. وهي اللعبة التي كان أحضرها إلى البيت بيترو كريسبي، ولكن الجميع قد نسوا أمرها.

وفي أقل من اثنتي عشرة سنة عمِّد الأطفال جميعاً، كل باسم أوريليانو وكنية أمه، فشكلوا بذلك فريقاً من الأبناء الذين زرعهم العقيد في ميادين الحرب، في طول البلاد وعرضها. وكان عددهم سبعة عشر طفلاً. كانت أورسولا، في البدء، تملأ جيوبهم بالدراهم. وكانت أمارانتا تحاول أن تستبقيهم. ولكنّ الأمر انتهى بهما إلى تقديم الهدايا لهم في المناسبات، وإلى أن تكونا عرابتين لهم. وكانت أورسولا ما تفتأ تقول:

- لقد قمنا بواجبنا بتعميدهم.

بينما تسجل في سجل خاص اسم أم كل واحد منهم وعنوانها وتاريخ ولادة كل واحد منهم ومكان ولادته أيضاً، وتتابع في نفسها قائلة:

- سوف يحتاج أوريليانو إلى سجلات بمعلومات دقيقة، لكي يستطيع اتخاذ القرارات المناسبة، بشأن الأمور المختلفة، عندما يعود.

وكانت تتحدث، ذات يوم، مع اللواء مونكادا، على مائدة الغداء، حول موضوع هذا النسل العجيب، فأسرّت برغبتها في أن ترى العقيد أوريليانو بوينديا، وقد عاد ذات يوم يجمع شمل أبنائه كلهم في بيت واحد. فأجابها اللواء بلهجة غامضة:

- لا تقلقي أيتها الصديقة. فسوف يعود بأسرع مما تظنين.

فقد كان اللواء مونكادا يعلم، دون أن يشاء الإفصاح عن ذلك على مائدة الغداء، أن العقيد أوريليانو بوينديا كان على وشك أن يقود أطول

ثورة، وأكثر الثورات التي قادها، حتى الآن، دموية وجديّة.

وتوترت الأحوال، تماماً كما حدث في الأشهر التي سبقت الحرب الأولى. وتوقفت معارك الديكة التي كان يشرف عليها رئيس البلدية نفسه. وتسلم السلطة البلدية النقيب أكويليس ريكاردو، قائد الحامية. وقد اعتبره الأحرار مثيراً للفتنة. وأسرت أورسولا لأوريليانو خوزيه:

- سوف يحدث شيء رهيب. فإياك أن تخرج من البيت إلى الطريق العام بعد الساعة السادسة مساء. ولم يثمر رجاؤها، فقد انقلب أوريليانو خوزيه إلى ما كان عليه أركاديو من قبل، وكأنه لا تربطه بها أية علاقة. فكأن عودته إلى البيت، وكأن إمكان وجوده دون أن يهتم بضرورات الحياة اليومية؛ كأن كل ذلك قد أيقظ فيه ميله إلى ذاته، والكسل والخمول، تماماً كما كان أمر عمه خوزيه أركاديو. وانطفأ هواه لأمارانتا دون أن يترك في نفسه أثراً. فكان يدع نفسه على هواها، فلا يأوي إلى البيت إلاّ لتغيير ثيابه، ويقضي وقته باللهو والعبث، ويخفف عناء وحدته بالمجون مع النساء العابرات. وكان يدأب على البحث والتفتيش في المخابىء المنسية، عله يجد ما خبأته أورسولا من دراهم. فتقول المسكينة عندما تكتشف شيئاً من ذلك، نادبة حظها:

- إنهم جميعاً سواء. تربيتهم سهلة في البداية، فهم مطيعون وجادون، لا يبدو على الواحد منهم أنه قادر على قتل ذبابة. ولكن ما إن تظهر في ذقونهم أولى الشعرات حتى يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة.

وكان أوريليانو خوزيه يختلف عن أركاديو في أنّ الأخير لم يعرف أمه. أما هو فقد عرف أنه ابن بيلار تيرنيزا(١)، التي علقت له في بيتها أرجوحة، كي يقضي عندها وقت القيلولة. فكانا أكثر من أم وابنها. كانا شريكين في شعورهما بالوحدة. وكانت بيلار تيرنيزا قد فقدت كل أمل،

(١) هي أم الاثنين.

فاتسمت ضحكتها الصاخبة بنغمة أرغن، وتهدل نهداها تحت وطأة ما شهداه من عبث. وتثنى بطنها، وارتخى ردفاها، نتيجة لقدرها المحتوم في أن تكون امرأة داعرة. ولكن قلبها كان يشيخ بلا مرارة. كانت سمينة، وكانت نمّامة، وفيها الكثير من غرور قوّادة فاشلة. وقد تخلت عن أوهامها الفارغة في أوراق اللعب، ووجدت عزاءها ومواطن سلواها في محبة الناس. وكانت فتيات الجوار، في الحيّ، يلتقين ـ تحت السقف الذي يقيل تحته أوريليانو خوزيه ـ بعشاقهن العابرين. وكان يسمعهن أحياناً يقلن لبيلار ببساطة، بعد أن يكنّ قد دخلن الغرفة فعلاً :

ـ هل تعيرينني غرفتك يا بيلار؟.

وكانت بيلار تجيب ببساطة أيضاً :

ـ طبعاً.

وإذا صادف أن كان عندها أحد الحاضرين، تشرح له قائلة :

ـ يسعدني أن أعرف أن الآخرين يسعدون في سريري. ولم تقبل قط ثمناً لهذه الخدمة، ولم ترفض قط تقديمها لمن يريد، تماماً كما لم ترفض قط العدد الذي لا يحصى من الرجال الذين كانوا يريدونها هي لأنوثتها، حتى بعد أن بدأ تألقها بالأفول، دون أن يمنحوها مالاً أو حباً، ولكنهم يمنحونها اللذة أحياناً. وقد ضاعت بناتها الخمس، اللاتي ورثن عنها بذرتها الحارة، وهن مراهقات، في شعاب الحياة الوعرة. أما ابناها اللذان استطاعت تربيتهما فقد قتل أحدهما في الحرب، وهو يقاتل في جيش العقيد أوريليانو بوينديا، وجرح الآخر واعتقل، وهو في الرابعة عشرة من عمره، بينما كان يحاول سرقة زريبة دواجن كبيرة في إحدى قرى الماريجو (منطقة المستنقعات).

وكان ابنها، أوريليانو خوزيه، شاباً طويلاً أسمر شبيهاً، على نحو ما،

بذلك الرجل الذي أنبأها عنه ملك الكبّة(١) منذ نصف قرن. وكان، ككل الكائنات التي يظهرها ورق اللعب، قد وصل إلى شغاف قلبها عندما شارفته دلائل الموت. ولقد قرأت كل ذلك في ورق اللعب. فقالت له :

ـ لا تخرج الليلة. ابق هنا ونم في غرفتك. فكارميليتا مونتيل لم تعد تطيق الصبر، وهي ما تفتأ تتوسل إليّ أن أدعها في غرفتك.

ولم يدرك أوريليانو خوزيه معنى رجائها، ولا المشاعر التي كانت تكمن خلف هذا العرض، فأجاب :

ـ أخبريها أن تنتظرني عند منتصف الليل.

ثم مضى إلى المسرح، حيث كانت فرقة إسبانية تمثل مسرحية «مخلب الثعلب» التي لم تكن سوى مسرحية زوريا «خنجر الغودو». ولكن النقيب أكويليس ريكاردو أمر بتغيير اسمها، لأن الأحرار كانوا يسمون المحافظين (الغودو) سخرية. ولم ير أوريليانو خوزيه النقيب أكويليس ريكاردو إلاّ ساعة كان يقدم تذكرته عند باب المسرح. وكان مع النقيب جنديان مسلحان ببندقيتين يفتشان الجمهور. فأنذره أوريليانو خوزيه قائلاً :

ـ انتبه أيها النقيب، فلم يولد بعد الرجل الذي يضع يده عليّ.

وحاول النقيب أن يفتشه بالقوة، ولكن أوريليانو خوزيه، الذي لم يكن مسلحاً، قد راح يعدو. ولم يطع الجنديان الأمر بإطلاق النار، وقال أحدهما :

ـ إنه من آل بوينديا.

وثارت ثائرة النقيب، الذي أعماه غضبه، فانتزع البندقية من يد

---

(١) آس الكبة في ورق اللعب.

الجنديّ، ووقف في منتصف الشارع مصوباً سلاحه وهو يصيح بأعلى صوته :

ـ أيها الجبناء. لكم كنت أرجو لو كنت العقيد أوريليانو بويندیا.

كانت كارميليتا مونتيل، العذراء ذات العشرين ربيعاً، خارجة من الحمام، بعد أن استحمت بماء زهر البرتقال، وقد بدأت تنثر أوراق الزهور على سرير بيلار تيريزا، عندما دوّت طلقة الرصاص. لقد كان مقدّراً لأوريليانو خوزيه أن يعرف معها طعم السعادة، التي حرمته إياها أمارانتا، وأن يكون له منها سبعة أطفال، وأن يموت بين ذراعيها شيخاً طاعناً في السن. ولكن الرصاصة التي اخترقت ظهره، فمزّقت صدره، قد ساقها إليه تأويل خاطىء لورق اللعب. أما النقيب أكويليس ريكارد، الذي كان مقدراً له هو أن يموت في تلك الليلة، فقد مات فعلاً، قبل أن يموت أوريليانو خوزيه بأربع ساعات. فما إن سمعت طلقة بندقيته حتى هوى بطلقتين دوّتا معاً، ولم يعرف أحد قط مصدرهما. ثم تلت ذلك صيحة جماعية هزّت الليل :

ـ عاش حزب الأحرار ! عاش العقيد أوريليانو بويندیا. ولما انتصف الليل، ونزف أوريليانو خوزيه دمه حتى الموت، كانت كارميليتا مونتيل ترى أن أوراق اللعب التي تبين لها مستقبلها لا تظهر لها سوى فراغ. وقد مرّ أمام المسرح أكثر من أربعمئة رجل، فأفرغوا مسدساتهم في جثة النقيب أكويليس ريكاردو المهجورة. وقد استخدم رجال الدورية عربة لنقل جثته التي ثقل وزنها بالرصاص، وتشققت كرغيف خبز مبلول.

وأثار هياج الجيش النظامي ومغالاته اللواء راكيل مونكادا، الذي ما كان منه إلاّ أن حشد تأثيره وطاقاته السياسية وارتدى بزته العسكرية من جديد، واستلم القيادتين المدنية والعسكرية في ماكوندو، ولو أنه لم يكن ينتظر أن يكون موقفه التصالحي الحكيم قادراً على ردّ الأمر المحتوم. فقد

حلّ شهر أيلول (سبتمبر) مثقلاً بالأنباء المتناقضة. وصلت أخبار سرية للأحرار تفيد بحدوث انتفاضات مسلحة في المناطق الداخلية، في الوقت الذي كانت الحكومة تعلن فيه أنها قد أحكمت سيطرتها على البلاد كلها. ولم يكن النظام ليعترف بأن البلاد في حالة حرب، حتى اليوم الذي أعلن فيه عن إنشاء محكمة عسكرية حكمت على العقيد أوريليانو بويندیا غيابياً بالإعدام. وأعطيت الأوامر بتنفيذ الحكم فيه إلى أية حامية تلقي القبض عليه. ولما سمعت أورسولا بالنبأ، قالت للواء مونكادا سعيدة فرحة :

ـ هذا يعني أنه عاد.

ولكن اللواء مونكادا لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك.

والواقع أن العقيد أوريليانو بويندیا قد كان في المنطقة منذ أكثر من شهر. ولقد سبقته إشاعات متناقضة عن مكان وجوده. فروت أنباء أنه في مكان ما من أقاصي الشمال. وذكرت أنباء أخرى أنه في أقصى الجنوب. ولم يصدق اللواء مونكادا أياً من تلك الأنباء، حتى وصل خبر رسمي يفيد بأنه قد سيطر على مقاطعتين في الساحل. فقال اللواء مونكادا لأورسولا، وهو يريها البرقية :

ـ تهانيّ، أيتها العرابة. فسوف ترينه بعد قليل هنا.

فسألته أورسولا، وهي قلقة بعض الشيء :

ـ وأنت، ماذا ستفعل أيها العرّاب؟.

وكان اللواء مونكادا قد ألقى هذا السؤال على نفسه مرات ومرات. فأجابها قائلاً :

ـ سأفعل ما يفعله هو، أيتها الصديقة. سوف أقوم بواجبي.

في فجر اليوم الأول من تشرين الأول (أكتوبر)، هاجم العقيد

أوريليانو بوينديا بلدة ماكوندو بألف رجل كاملي العتاد والسلاح. وتلقت حامية البلدة الأمر بالدفاع حتى النهاية. وعند الظهر من أحد الأيام، وبينما كان اللواء مونكادا يتناول طعام الغداء عند أورسولا، دوّت قنبلة مدفع للثوار في كل البلدة، وحطمت واجهة دائرة المالية فيها. فتنهد اللواء مونكادا قائلاً :

ـ إن سلاحهم يضاهي سلاحنا، ولكنهم فوق ذلك يحبون القتال أكثر منا.

وفي الساعة الثانية من بعد الظهر، وبينما كانت الأرض تهتز تحت وابل القذائف التي تطلقها المدافع من هنا وهناك، وقف اللواء مونكادا مودعاً أورسولا وهو موقن أنه يحارب في معركة خاسرة. فقال لها :

ـ أرجو الله ألاّ يأتي إليك أوريليانو اليوم في البيت. أما إذا أتى فعانقيه وقبّليه عني، لأنني لا أتوقع أن أراه بعد اليوم أبداً.

وقد أُلقي القبض على اللواء مونكادا، وهو يحاول الفرار من ماكوندو، بعد أن كتب رسالة مطوّلة للعقيد أوريليانو بوينديا، يذكره فيها بمشاريعه المشتركة لجعل الحرب أكثر إنسانية، ويرجو له أن يحرز النصر النهائي على فساد العسكريين المتهورين وفساد الساسة الحزبيين المتعصبين. وفي اليوم التالي، كان العقيد أوريليانو بوينديا يتناول معه طعام الغداء على مائدة أورسولا، وقد ظل في البيت محبوساً حتى قرّر مجلس الحرب الثوري مصيره. كان الاجتماع عائلياً، ولكن أورسولا كانت تشعر، بينما كان العدوان يستعيدان ذكريات الماضي، وقد تناسيا الحرب وشؤونها، أنّ ابنها كان يبدو كالدخيل على البيت. والواقع أنها شعرت بذلك منذ رأته يدخل عليها بحماية قوة عسكرية صاخبة، قلبت كل ما في الغرف من أثاث، رأساً على عقب، كي تطمئن من عدم وجود خطر على حياته. ولم يكتف العقيد أوريليانو بوينديا بذلك، بل

إنه أصدر أوامره الصارمة، وبمنتهى الحزم والقسوة، بألاّ يقترب أحد منه أكثر من ثلاثة أمتار، بمن في ذلك أمه، أورسولا نفسها، حتى ينتهي حراسه من وضع الحراسة حول المنزل كله. وكان يرتدي بزة عمل من القنب العادي، ولا يحمل أية رتبة أو شارة عسكرية، وينتعل حذاء عالي الساق، اتّسخ جانباه وجفّ عليه الوحل والدم. وكان يحمل في حزامه مسدساً آليّاً في قراب مفتوح، ويده على أخمصه دائماً، مما يدلّ على توتره المقيم، واستعداده وعزمه الجليّ في نظراته. ويستطيع المدقق أن يرى الآن في هيئة رأسه تراجعاً في صدغيه الخاليين من الشعر، وكأنه شوي على نار خفيفة. وقد اكتسب وجهه، بعد أن دبغه ملح منطقة الكاريب، قسوة بلون المعادن. وقد حصنته ضد الشيخوخة الوشيكة حيوية ناشئة، نوعاً ما، عن هدوء وبرودة في أعماقه. كان يبدو أطول مما كان عليه في اليوم الذي رحل فيه، وأشد شحوباً واصفراراً، وقد نتأت بعض عظامه، فبدت عليه بوادر مقاومة الحنين. وقد عبرت أورسولا عن قلقها قائلة :

ـ يا إلهي، إن هيئته تنبىء الآن بأنه قادر على فعل أي شيء.

وقد كان كذلك فعلاً. وما الشال الأزتيكي الذي أهداه لأمارانتا، والذكريات التي استعادها عند الغداء، والقصص المسلية التي رواها إلاّ من بقايا خفة ظله السالفة. وحالما جرى تنفيذ أمره بدفن القتلى في حفرة جماعية، أوكل إلى العقيد روكه كارنيسيرو مهمة الإسراع بمحاكمات المجلس الحربي، واحتفظ لنفسه بالمهمة الشاقة التي كان يحبها، وهي فرض الإصلاحات الجذرية، التي لا تبقي ولا تذر شيئاً من هيكلية النظام المحافظ البالي. كان يقول لمعاونيه :

ـ يجب أن نكون أسبق من محترفي السياسة في الحزب. فعندما يفتحون عيونهم على ما تمّ يجدون أنفسهم أمام الأمر الواقع.

فقرّر أن يراجع سندات ملكية الأرض حتى مئة عام خلت، وكشف

سرقات أخيه خوزيه أركاديو التي كان قد ثبّتها قانونياً. فألغى بجرّة قلم كل السجلات. وقام بآخر بادرة لياقة، فتخلى عن مشاغله ساعة من الزمن، زار فيها روبيكا كي يبلغها بقراراته الجديدة.

ولم تكن روبيكا، التي تعيش حياة الوحدة في ظلال بيتها الكبير شبه المهجور، والتي كانت فيما مضى الأمينة على قصص عشقه وحبه المكتوم، والذي أنقذ عنادها وإصرارها حياته، يوماً من الأيام ؛ لم تكن سوى طيف من الماضي. كانت تكتسي بالسواد حتى قبضتي يديها، وكان قلبها بقايا من رماد، ولم تكن تسمع من أنباء الحرب إلا القليل القليل. وأحس العقيد أوريليانو بويندیا أنه يستشف لمعان عظامها الفوسفوري، وهو يخترق جلدها، وأنها تمور في جوّ من الشرار اللامع، جوّ نتن يعبق برائحة البارود الخفية. فراح ينصحها بالتخفيف من مظاهر الحداد وقسوته، وبأن تفتح نوافذ البيت للتهوية، وأن تغفر للعالم ذنبه في موت خوزيه أركاديو. ولكن روبيكا كانت أصلاً أبعد من الغرور. فقد بحثت عنه عبثاً في تذوق طعم التراب، وفي رسائل بيترو كريسبي المعطرة، وفي سرير زوجها العاصف، ولكنها وجدت السلام والطمأنينة أخيراً، في هذا البيت، الذي غدت فيه الذكريات، من طول ما ألحت في استعادتها، صوراً تتلاشى وتتكوّن من جديد بين الغرف على هيئة كائنات بشرية.

كانت روبيكا جالسة في كرسي الخيزران المتحرك، وقد انكفأت إلى الخلف، تنظر إلى العقيد أوريليانو بويندیا، وكأنه طيف من الماضي. ولم يزعجها نبأ أن الأراضي التي كان قد اغتصبها زوجها، وأخوه، خوزيه أركاديو، سوف تعود إلى مالكيها الشرعيين، فقالت متنهدة :

ـ سيكون ما تشاء يا أوريليانو. فقد كنت أظن دائماً ـ وها أنت تثبت ذلك الآن ـ أنك لست سوى جاحد.

وقد تمت مراجعة سندات الملكية في الوقت نفسه الذي صدرت فيه الأحكام العسكرية السريعة، برئاسة العقيد جيرينيلدو ماركيز، وقضت بإعدام كل ضباط الجيش النظامي الذين أسرهم الثوريون. وكان آخر مجلس حربي هو الذي مثل أمامه اللواء خوزيه راكيل مونكادا. فتدخلت أورسولا، وقالت للعقيد أوريليانو بويندیا :

ـ كانت حكومته أفضل حكومة عرفناها في ماكوندو. ولن أضيف شيئاً عن طيب قلبه، ولا عن حبه لنا، فأنت خير من يعرف ذلك عنه.

ولكن العقيد أوريليانو بويندیا نظر إليها نظرة عدم الموافقة، وقال :

ـ لا أستطيع أن أمارس السلطة على العدالة . فإذا كان لديك ما تقولينه ، فقوليه للمحكمة العسكرية. ولم تتردد أورسولا في القيام بذلك، ولم تكتف به، بل جاءت معها بكل أمهات الضباط الثوريين المقيمات في ماكوندو كي يؤدين الشهادة. ووصلت العجائز من رائدات ماكوندو، وبينهن بعض من خاطرن بعبور الجبال، فأدلين الواحدة تلو الأخرى بشهادات تفيض مديحاً بفضائل اللواء مونكادا. وكانت آخر الشاهدات أورسولا، التي استطاعت بوقارها الحزين، وبوزن اسمها، وشدة أسر بيانها وحجتها، أن تخلخل توازن العدالة فترة من الوقت. ومما قالته لأعضاء المحكمة :

ـ لقد أديتم لعبتكم الرهيبة أداءً حسناً، وقمتم بواجبكم خير قيام. ولكن إياكم أن تتناسوا، أن الله مهما مدّ في آجالنا فلن نغير من طبيعتنا. فسوف نبقى أمهات، وسيبقى لنا الحق، مهما بلغت درجة ثوريتكم، بأن لا تخلّوا بواجبات احترامكم لنا.

وانسحب أعضاء المحكمة للتداول وتبادل الرأي، بينما كانت آخر كلماتها تدوّي في آذانهم وفي باحة المدرسة التي تحولت إلى ثكنة. وعند منتصف الليل، صدر الحكم بالإعدام على اللواء خوزيه راكيل مونكادا.

وقد رفض العقيد أوريليانو بوينديا إلغاء الحكم، على الرغم من الكلام القاسي الذي وجهته له أورسولا. ولكنه ذهب لزيارة اللواء مونكادا المحكوم بالإعدام، في زنزانة السجناء قبل الفجر بقليل. وهناك قال له :

ـ تذكّر، أيها الصديق القديم، أنني لست أنا الذي أعدمك، بل هي الثورة.

ولم يكن اللواء مونكادا قد نهض من سريره العسكري، الذي كان يرقد فيه، عندما رأى العقيد أوريليانو بوينديا داخلاً عليه، فأجابه بقوله :

ـ لتذهب إلى الجحيم، أيها الصديق.

حتى تلك اللحظة، ومنذ إيابه، لم يتح العقيد أوريليانو بوينديا لنفسه فرصة النظر إليه بعين القلب. وقد أذهله مشهده، عندما تبيّن ما فعلته الشيخوخة به، ومدى ارتجاف يديه، والرضا النفسي الذي كان ينتظر به الموت وكأنه أمر عاديّ. وشعر بالاحتقار الشديد لنفسه، ممتزجاً ببدايات من الرأفة والشفقة. فقال له :

ـ أنت تعرف، خيراً مني، أن المحاكم العسكرية ليست سوى مهازل، وأنك الآن تدفع ثمن جرائم الآخرين، لأننا قد عزمنا، هذه المرة، أن نربح الحرب ولو بأي ثمن. وأنت لو كنت في مكاني، أما كنت تفعل الشيء نفسه؟.

فاعتدل اللواء مونكادا في جلسته، وجعل ينظف نظارته، ذات الإطار العريض، بطرف قميصه. وأجاب :

ـ ربما، ولكن ما يقلقني ليس إعدامي. ففي آخر المطاف، يجد من كان مثلنا من الرجال أن هذه الميتة ميتة طبيعية. ثم وضع نظارته على جانب سريره، وانتزع ساعته من سلسلتها، وتابع قوله :

ـ إن الذي يقلقني أنك، لشدة ما كرهت العسكريين، ولطول ما قاتلتهم، وما فكرت فيهم، انتهى بك الأمر إلى أن صرت تشبههم في

كل شيء. ولا أجد في الحياة مثالاً أصدق من هذا يدعو للازدراء.

وانتزع من إصبعه خاتم زواجه، وإيقونة مريم العذراء، ووضعهما قرب النظارة والساعة، وخلص إلى القول :

ـ إذا تابعت سيرك على هذا المنوال، فإنك لن تغدو أشد الديكتاتوريين ظلماً وأكثرهم دموية في تاريخنا كله وحسب، بل إنك سوف تقتل صديقتي العزيزة أمك، أورسولا، لكي تريح ضميرك.

فتسمّر العقيد أوريليانو بوينديا في مكانه مذهولاً كتمثال بلا حياة، بينما سلمه اللواء مونكادا نظارته وساعته، والإيقونة والخاتم، وخاطبه بلهجة أخرى :

ـ ولكني لم أطلب إليك المجيء كي أعنّفك، بل لأطلب منك إسداء معروف، وهو أن ترسل هذه الأشياء إلى زوجتي.

فتناولها العقيد أوريليانو بوينديا، ودسّها في جيوبه، وسأله :

ـ أما زالت في مانور؟.

فأجاب اللواء مونكادا بالإيجاب :

ـ نعم، ما زالت في مانور، وفي البيت نفسه، وراء الكنيسة، حيث أرسلت إليها في الماضي الرسالة.

فقال العقيد أوريليانو بوينديا :

ـ سوف أنفذ ذلك بكل سرور، يا خوزيه راكيل.

ولما خرج العقيد إلى الهواء الطلق المصاحب للضباب، تبلّل وجهه، كما حدث له ذات يوم من أيام الماضي، عند الفجر. وعندئذ فقط أدرك لماذا قرّر أن يكون تنفيذ حكم الإعدام في الباحة، لا عند سور المقبرة. فقد كان فصيل الإعدام مصطفاً مقابل الباب. فأدى له الجنود تحية رئيس دولة. فأصدر الأمر قائلاً :

ـ بوسعهم أن يخرجوه الآن.

(٩)

لقد كان العقيد جيرينيلدو ماركيز أول من أدرك فراغ الحرب وعبثها. فقد كان، بصفته حاكماً عسكرياً ومدنياً لبلدة ماكوندو، يتحدث تليغرافياً مع العقيد أوريليانو بوينديا مرتين في الأسبوع. وكانت تلك المحادثة، في البدء، تتناول تطورات الحرب على حقيقتها، وبتفاصيلها، وتحديدات ملامحها على الأيام. وكانت تلك المكالمات تتيح لهم، في كل لحظة، معرفة الوضع الدقيق للحرب، والتنبؤ بمسيرتها في المستقبل. وكان العقيد أوريليانو بوينديا يحرص دائماً على الحفاظ على لهجته الودية، مما يمكن سامعه من تبين صوته ومعرفته على الطرف الآخر للخط، ولو أنه لم يكن يسمح قط بأن تصل الأمور إلى رفع الكلفة بينه وبين أصدقائه المقربين. وكثيراً ما كان يطيل تلك المكالمات، متجاوزاً الوقت المحدّد لها، فيتحدث في أمور ذات طبيعة عائلية. ولكن صورته كانت قد بدأت تذبل وتغرق في عالم اللاواقع، بقدر ما كانت الحرب تشتد ويتسع مداها. فجعلت خصائص حديثه، ونبرات صوته، تغمض شيئاً فشيئاً، وتبتعد عن اليقين، فتختلط كلماته، بعضها ببعض، حتى تصبح بلا حس ولا معنى. وكان العقيد جيرينيلدو ماركيز يكتفي، في مثل تلك الحالات، بالإصغاء البحت، بينما يزداد شعوره بأنه يتحادث مع مجهول من عالم آخر. فكان ينهي مثل تلك المحادثات، بإدارة مفتاح الجهاز مغلقاً إياه، وهو يقول:

ـ فهمت يا أوريليانو. عاش حزب الأحرار.

وانتهى أمره إلى أن فقد كل صلة له بالحرب، وفقد ما كان لديه، في الزمن الغابر، من فعالية حقيقية، وعاطفة شباب لا تقاوم، فلم يبق له من كل ذلك إلاّ أثر يدخل في باب الذكريات البعيدة، يحيط به الغموض. وكان ملاذه الوحيد غرفة أمارانتا المخصصة للخياطة. فكان يذهب لزيارتها كل يوم عصراً، فيرقبها وهي تعالج طيات الموسلين على آلة الخياطة ذات اليد، التي كانت تديرها ريميديوس الجميلة. وكانا يمضيان الساعات الطوال دون أن يكلم أحدهما الآخر، وكأنهما قد عزما على أن يحافظ الواحد منهما على رفقة صاحبه ليس إلاّ. وفيما كانت أمارانتا تسعد، في قرارة نفسها بإذكاء نار وفائه واستمرار إخلاصه، كان هو يجهل أية خطة خفية تمور في قلبها الذي لا يسبر غوره. فعندما انتشر خبر إيابه، كادت أمارانتا تختنق شوقاً لرؤيته. ولكنها، عندما شاهدته يدخل البيت بصحبة أخيها العقيد أوريليانو بوينديا وحرسه بضجيجهم وصخبهم، رأت فيه رجلاً قد أضنته حياة المنفى بقسوتها، وأشاخه العمر وأتعبه النسيان، وغمره العرق المختلط بالغبار، حتى لتشم فيه رائحة القطيع. وزاد في بشاعته أن يده اليسرى كانت مربوطة إلى عنقه. فانقشعت عنها غمامة الوهم، وشعرت كأنها يكاد يغمى عليها، وقالت في نفسها:

ـ يا إلهي. ليس هذا هو الرجل الذي كنت أنتظر.

ولكنه عاد إلى البيت، في اليوم التالي، نظيفاً، وقد حلق لحيته وعطّر شاربه بماء الخزامى، ونزع عن عنقه رباط يده الملطخ بالدم. وكان يحمل إليها كتاب صلوات هدية، له غلاف جلدي مرصع بالصدف. فقالت، دون وعي لما تقول:

ـ ما أغرب الرجال! يقضون أعمارهم في محاربة رجال الدين، بينما

يقدمون كتب الصلوات هدايا.

ومنذ ذلك الحين، حتى في أحلك أيام الحرب، كان يزورها كل يوم عصراً. وكان في كثير من الأحيان، وعندما تغيب ريميديوس الجميلة، يدير، بدلاً منها، عجلة آلة الخياطة. وكانت أمارانتا تشعر بالاضطراب والدهشة أمام ذلك الصبر والإخلاص والخضوع من رجل يتمتع بكل تلك السلطات. وكان يخلع سلاحه في صالة الجلوس، ويدخل إلى غرفة خياطتها دون سلاح. ولم يكف، طوال أربع سنين، عن التصريح لها بحبه، لكنها كانت دائماً تجد طريقة لصده دون أن تجرحه. ذلك أنها، وإن لم تتوصل إلى حبه، إلا أنها لم تكن تستطيع العيش دونه. ولم تكن ريميديوس الجميلة، التي كان يبدو عليها عدم الاهتمام بأي شيء، والتي كان يُظن أنها كانت متخلفة عقلياً، غير شاعرة بذلك الإخلاص والحب. فآثرت التدخل لصالح العقيد جيرينيلدو ماركيز. ثم اكتشفت أمارانتا فجأة أن تلك الطفلة، التي كانت تربيها، والتي لم تكد تتفتح بعد أو تدرك سن الرشد، هي أجمل مخلوق رآه البشر في ماكوندو. وأحسّت بشيء من الحقد يولد في قلبها، شبيهاً بذلك الذي أحست به يوماً إزاء روبيكا. فراحت تصلي لله لكي لا تنزلق في حقدها إلى الدرجة التي تشتهي فيها موت ريميديوس. فأبعدتها عن مشغل الخياطة.

وصادف ذلك الوقت الذي كان العقيد جيرينيلدو ماركيز قد بدأ فيه يشعر بالضيق والتبرم من الحرب. فجمع كل طاقته، وقدرته على الإقناع، وكل حنانه الذي كان يخفيه في داخله حتى الآن، وأعلن استعداده للتخلي، من أجل أمارانتا، عن كل أمجاده التي كلفته أفضل سني عمره. ولكنه لم يفلح في إقناعها.

وفي عصر يوم من أيام شهر آب (أغسطس)، حبست أمارانتا نفسها في غرفة نومها، تحت وطأة عنادها الذي لا يطاق، وعزمت على أن

تندب حظها وتبكي وحدتها حتى الموت، بعد أن أعلنت لخاطبها الصبور الدؤوب رأيها الأخير، قائلة:

ـ لينس واحدنا الآخر إلى الأبد. فقد كبرنا عن مثل هذه الأمور.

بعد ظهر ذلك اليوم، اتصل العقيد أوريليانو بوينديا بالعقيد جيرينيلدو ماركيز. وكانت المكالمة محادثة عادية، لا تقدم ولا تؤخر في تطورات الحرب الراكدة. وقبيل انتهاء الحديث، وكان العقيد جيرينيلدو ماركيز يتأمل الطرقات المقفرة في البلدة، وقطرات الماء المتلألئة على فروع أشجار اللوز. وقد بدأ يحس بالضياع في وحدته، فقال لمحادثه وهو يدير الآلة حزيناً:

ـ أوريليانو، إن المطر يهطل في ماكوندو.

وأعقب ذلك صمت طويل. ثم اهتز الجهاز فجأة لكي ينقل عبارات العقيد أوريليانو بوينديا الجافة التي لا ترحم:

ـ لا تكن غبياً، يا جيرينيلدو. فطبيعي أن تمطر السماء في شهر آب (أغسطس).

وكان الرجلان لم يلتقيا منذ زمن طويل، فانزعج العقيد جيرينيلدو ماركيز من قسوة ردة الفعل. ولكن انزعاجه وقلقه انقلبا إلى دهشة وتعجب، عندما عاد العقيد أوريليانو بوينديا، بعد شهرين، إلى ماكوندو. فأورسولا نفسها استغربت التبدل الذي كان قد طرأ عليه. لقد وصل دون ضجة ولا حرس. وقد لفّ جسمه بدثار رغم الحرارة الشديدة، وكان بصحبته ثلاث عشيقات أسكنهن في غرفة واحدة، كان يقضي فيها معظم وقته راقداً في أرجوحته. وكان يكاد لا يقرأ حتى البرقيات التي تنقل إليه أنباء عمليات الحرب الرتيبة. وذات يوم، جاءه العقيد جيرينيلدو ماركيز، ليسأله رأيه في إخلاء نقطة حدودية، حيث كان الخطر بأن تنقلب الحرب بسببها إلى صراع دولي. فأمره قائلاً:

- لا تزعجني بهذه الصغائر. أطلب النصح من العناية الإلهية.

كانت تلك أكثر مراحل الحرب حرجاً. فقد أخذ الملاكون الأحرار، الذين أيدوا الثورة في البدء، يعقدون اتفاقات مع الملاكين المحافظين، للحيلولة دون إعادة النظر في سندات الملكية. أما السياسيون، الذين كانوا يسهرون في الحرب على مصالحهم وهم في المنفى، فقد أعلنوا معارضتهم لقرارات العقيد أوريليانو بوينديا الحازمة. ولكنه لم يعر اعتراضاتهم أدنى اهتمام. وأهمل قراءة أشعاره التي كانت تملأ خمسة دواوين، وكانت مهجورة في قعر صندوق خاص بها. وعند المساء، أو في وقت القيلولة، كان يدعو إحدى نسائه لقضاء بعض الوقت معه، فيتلذذ بها لذة عارضة، ثم ينام نوماً عميقاً لا يؤرقه فيه اهتمام بأي شيء. كان هو وحده الذي يعلم أن قلبه قد أفعم بالدوار، وقد قضي عليه بعدم اليقين إلى الأبد.

في البداية، أسكرته نشوة العودة، والانتصارات المذهلة، فترك نفسه على هواها مشدوهة بهوّة العظمة. كان يسعده أن رفيقه ويده اليمنى هو الدوق مارلبورو، أستاذه في فن الحرب، والذي كانت بزته الفاخرة، المصنوعة من الفرو ومخالب النمر، تبعث في الكبار مشاعر الاحترام، وتثير في الصغار مشاعر الرهبة.

وعندها قرّر ألاّ يقترب منه أي إنسان، حتى أمه أورسولا، إلى ما دون ثلاثة أمتار. حتى إذا حضر إلى أي مكان، سارع أعوانه إلى رسم دائرة حوله، بطبشور الحوار، لا يتخطاها أحد سواه، حيث يقف ليقرر، مصير العالم، بأوامر مقتضبة لا رجعة فيها ولا اعتراض عليها. ولما ذهب إلى مانور، للمرة الأولى، بعد إعدام اللواء مونكادا، سارع إلى تلبية الرغبة الأخيرة لضحيته. فأخذت الأرملة النظارة والوسام والساعة والخاتم، ولكنها لم تسمح له بأن يطأ عتبة بيتها. فقالت له :

- لا تستطيع الدخول، أيها العقيد. فقد تكون قائداً في حربك، ولكنني قائدة بيتي.

ولم يبد العقيد أوريليانو بوينديا أية إمارة للغضب، ولكن روحه لم تعرف الهدوء إلاّ عندما نهب حرسه الخاص بيت الأرملة وحوّلوه إلى رماد.

كان العقيد جيرينيلدو ماركيز يقول له آنئذ :

- انتبه لقلبك، يا أوريليانو. فأنت تتعفّن وأنت حيّ.

وفي تلك الفترة، دعا قادة الثوار الرئيسيين إلى مؤتمر ثان. فوجد بينهم كل أشكال البشر وأنماطهم المختلفة : المثاليين، والطموحين، والمغامرين، والمنبوذين الحاقدين، والمجرمين العاديين. بل لقد كان بينهم موظف محافظ سابق لجأ إلى الثورة تخلصاً من حكم صدر بحقه لسرقته أموال الدولة. ولم يكن الكثيرون منهم يعرفون لماذا يقاتلون. وسط ذلك الاجتماع المتعدد الألوان، والذي كادت دوافعه المتعارضة تؤدي إلى انفجار داخلي، برزت شخصية ذات سلطة غامضة : اللواء تيوفيلو فارغاس. كان هندياً قحاً بكل عروق دمه، متوحشاً غير مدجّن، أمياً، موهوباً ببصيرة وإيمان ومهنة طبيعية، كانت تثير حماسة رجاله الهوجاء.

كان هدف العقيد أوريليانو بوينديا، من ذلك المؤتمر، توحيد قيادات الثوار ضد مناورات السياسيين. فتجاوز اللواء تيوفيلوفارغاس مقاصده. وفي ساعات من وقت المؤتمر استطاع أن يفكّك التحالفات القائمة بين أفضل القادة المؤهلين، وأن يقيم بدلاً منها تحالفات أخرى تولى قيادتها العليا بنفسه. وقد قال العقيد أوريليانو بوينديا لضباطه، تعليقاً على ما كان يلحظه :

- إنه وحش شرس، ويجب مراقبته والحذر منه. فهذا الرجل أخطر علينا من وزير الحربية. وعندها رفع أحد النقباء الشباب، وكان يتميز

دائماً بخجله ؛ رفع إصبعه بتأنٍّ وتردد، واقترح قائلاً :

ـ الأمر بسيط، أيها العقيد. يجب قتله.

ولم يضطرب العقيد أوريليانو بوينديا نتيجة للؤم هذه الفكرة وبرودتها، وإنما من الطريقة التي جاءت بها. فقد سبقت، بجزء من الثانية، أفكاره هو. فقال :

ـ لا تتوقعوا مني أن أصدر أمراً بذلك.

والواقع أنه لم يصدر بذلك أمراً، ولكن اللواء تيوفيلو فارغاس وجد بعد خمسة عشر يوماً وقد قطع إرباً. فقد قطعته ضربات من فأس إثر كمين نصب له. فتسلم العقيد أوريليانو بوينديا القيادة العليا. وفي الليلة التي اعترف فيها قادة الثوار بسلطته، استفاق راجفاً وهو يصيح طالباً دثاراً. فقد اجتاحه برد داخلي حتى العظم، يعذبه والشمس طالعة. الأمر الذي كان يحول دون نومه شهوراً بطولها، حتى تكيف لوضعه هذا وتعوّد عليه. وهكذا أخذت الأحداث المرة تفسد عليه نشوة السلطة. فبحث عن دواء للبرد. فلم يجد إلاّ إعدام الضابط الشاب الذي سبق له أن اقترح قتل اللواء تيوفيلوفارغاس. وكانت أوامره تنفذ قبل أن يصدرها، بل أحياناً حتى قبل أن يتصورها، وتشتط أكثر مما كان يجرؤ عليه هو نفسه . وظل بانفراده في خضم سلطات هائلة ، فبدأ يفقد توازنه.

كان أحياناً يغضب من سكان القرى المجاورة الذين كانوا يحيونه : فقد كانوا عنده نفس الذين يحيون العدو. وكان أنّى حلّ يلتقي بفتيان ينظرون إليه بعينيه ويتكلمون بصوته، ويسلّمون عليه بنفس الحذر الذي كان يرد به على سلامهم، ويزعمون أنهم أبناؤه. فأحسّ بأنه موزّع يكرّر نفسه ويجترها، وبأنه كان وحيداً أكثر من أي وقت مضى. وتولدت لديه قناعة بأنّ ضباطه الخاصين يكذبون عليه. واختصم مع الدوق مارلبورو، وصار

يردد :

ـ إن خير الأصدقاء من مات أخيراً.

وأتعبته ظنونه، وحلقة الحرب المفرغة الدائمة، التي كان يواجهها دائماً في هذا المكان أو ذاك. حتى الأمكنة نفسها كانت تبدو وقد شاخت أكثر فأكثر كلما عاد إليها، بل تبدو أكثر خراباً، وأشد جهلاً. فلماذا؟ وكيف؟ وإلى متى؟ فلقد كان هناك دائماً شخص آخر خارج الدائرة المرسومة بطبشور الحوار، شخص ما بحاجة للمال، شخص كان له ابن مصاب بالسعال الديكي، أو شخص ما كان يريد أن يذهب بلا رجعة لينام نومة أبدية، لأنه لم يعد يطيق طعم الحرب النتن في فمه، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يجمع آخر قواه لكي يؤدي التحية العسكرية، ويقول :

ـ كل شيء عادي، سيدي العقيد. لا شيء جديد.

ولم يكن هناك أفظع من تلك الرتابة «الأشياء عادية» و «كل شيء على حاله» و «لا شيء جديد»، وأشد منها إثارة للمخاوف في تلك الحرب التي لا تعرف نهاية. . فمعنى ذلك أن تتوقف عربة الزمن، فلا تحدث أية أشياء.

وهكذا كان وحيداً، وقد تخلت عنه النبوءات، يحاول الفرار من البرد الذي لم يفارقه حتى موته. ولذلك عاد إلى ماكوندو، يبحث عن ملاذ أخير حيث يعيش في حرارة ذكرياته القديمة. وقد بلغ من عضال مرضه وشدته ، أنه لما أخبروه بقدوم لجنة مفوّضية الحزب ، جاءت لتناقش معه الاتجاهات التي ينبغي أن تأخذها الحرب بعد جمودها، تململ في أرجوحته دون أن يستيقظ تماماً، وقال :

ـ خذوهم إلى بيت البغايا.

كانوا ستة محامين، يلبسون المعاطف الفاخرة والقبعات العالية.

ويحتملون بذلك حرارة شمس تشرين الثاني (نوفمبر) بصبر وتأمل رواقيّ. فاستضافتهم أورسولا في بيتها، وكانوا يقضون معظم نهارهم، داخل غرفة مغلقة، في مناقشات سرية. حتى إذا جنّ الليل طلبوا حرساً ومجموعة من الأكورديونات، وذهبوا إلى مخزن كاتارينو. وقد أمر العقيد أوريليانو بويندیا قائلاً:

ـ دعوهم وحدهم. فأنا أعرف، في النهاية، ماذا يريدون.

وفي أوائل كانون الأول (ديسمبر)، تمّ اللقاء الذي طال انتظاره، ولم يستغرق أكثر من ساعة، مع أن الكثيرين كانوا يتخيلون أنه سيتمخض عن مناقشات ومجادلات لا تعرف النهاية.

رفض العقيد أوريليانو بويندیا، هذه المرة، أن يجلس وسط دائرة الطبشور الحواري التي رسمها له مساعدوه في صالة الجلوس الدافئة، قريباً من بقايا البيانو الآلي. وقد اتخذ له مقعداً بين مستشاريه السياسيين، وزمّل نفسه بدثار من الصوف، وأصغى صامتاً إلى مقترحات المندوبين الموجزة.

كانوا يطلبون، أولاً، إعادة النظر في صكوك الملكية لكي يحصلوا على تأييد الملاكين الأحرار، ويطلبون، ثانياً، التخلي عن الكفاح ضد سلطة رجال الدين، علهم يحصلون على تأييد الجماهير الكاثوليكية. ويريدون، أخيراً، الحفاظ على سلامة الأسرة، والتراجع عن القول بالمساواة بين الأولاد الطبيعيين والأولاد الشرعيين.

وكان تعليق العقيد أوريليانو بويندیا، بعد أن انتهت قراءة المقترحات، أن ابتسم، وقال:

ـ هذا يعني أننا لا نقاتل إلاّ من أجل السلطة. فأجاب أحد المبعوثين:

ـ هذه تغييرات تكتيكية وإصلاحات مرحلية. فالهدف الرئيس حالياً هو توسيع القاعدة الشعبية للحرب، وبعدها ستكون لنا نظرة ومراجعة

أخرى.

فسارع أحد مستشاري العقيد أوريليانو بويندیا السياسيين ليقول:

ـ هذا تناقض. فإذا كانت هذه التغييرات جيدة، فذلك يعني أن النظام المحافظ جيد. وإذا كنا بفضلها سنتوصل إلى توسيع القاعدة الشعبية للحرب، فكأنكم تقولون ما يعني أن النظام المحافظ يستند إلى قاعدة شعبية واسعة. وكل هذا، بالتالي، لا يعني إلاّ أننا قد كافحنا وقاتلنا طوال عشرين عاماً تقريباً ضد عواطف الأمة.

وأراد أن يتابع، ولكن العقيد أوريليانو بويندیا أوقف حديثه بإشارة منه، وقال:

ـ لا تضيع وقتك يا دكتور. فالمهم أننا، منذ هذه اللحظة، لن نقاتل إلاّ من أجل السلطة.

ثم تناول الوثائق والأوراق التي قدمها له المبعوثون، دون أن يكف عن الابتسام، واستعدّ للتوقيع. ثم خلص إلى القول:

ـ فما دامت الأمور على ما هي عليه، فلا مانع لدينا من القبول.

فتبادل رجاله النظرات، بعضهم إلى بعض، مستغربين. وقال العقيد جيرينيلدو ماركيز بلطف وهدوء:

ـ معذرة، سيادة العقيد. ولكن هذه خيانة.

فتوقفت الريشة المغموسة بالحبر في يد العقيد أوريليانو بويندیا، وجمع العقيد كل ثقل سلطته، وأصدر إليه أمره قائلاً:

ـ سلم سلاحك.

وقام العقيد جيرينيلدو ماركيز، فوضع سلاحه على الطاولة، بينما تابع العقيد أوريليانو بويندیا قوله له:

ـ إذهب إلى الثكنة، وضع نفسك ثم وقّع البيـان، وناول الأوراق

للمبعوثين، قائلاً لهم :

ـ تلك هي أوراقكم أيها السادة. فأرجو أن تحصلوا منها على بعض الفائدة.

وبعد يومين مما حدث، حكم على العقيد جيرينيلدو ماركيز بالإعدام بتهمة الخيانة العظمى. ورفض العقيد أوريليانو بوينديا، وهو متهالك في أرجوحته، الرجاء المقدم إليه من كل من جاؤوا يسألونه الحلم والرأفة. وعشية تنفيذ الحكم، خرقت أورسولا أوامر العقيد بألا يزعجه أحد. فدخلت عليه غرفته، وقد زادتها ثياب الحداد التي ارتدتها جلالاً وهيبة نادرة . وظلت واقفة خلال المقابلة التي دامت دقائق ثلاثاً . وقالت له بهدوء وصفاء :

ـ أعرف أنك سوف تعدم جيرينيلدو، وأني لا أستطيع عمل شيء لردّك عن ذلك. ولكنني جئت لكي أحذرك وأنذرك : فأقسم لك برفات أبي وأمي، وبذكرى خوزيه أركاديو بوينديا، وأمام الله، أنني ما إن أرى جثته حتى أخرجك من وكرك أنّى اختبأت، وأقتلك بيديّ الاثنتين.

وقبل أن تغادر الغرفة، ودون أن تنتظر أي جواب، أضافت قائلة :

ـ وهذا ما كنت سأفعله لو أنك ولدت بذنب خنزير.

وفي تلك الليلة التي طالت، حتى كادت لا تعرف نهاية، وبينما كان العقيد جيرينيلدو ماركيز يستعيد آصال تلك الأيام الخوالي، والتي كان يمضيها مع أمارانتا في مشغل الخياطة، كان العقيد أوريليانو بوينديا يقضي الساعات الطوال، وهو يحفر بأظافيره قشرة وحدته القاسية، بينما يحدوه الأمل بأن يستطيع فصم عراها. وكانت لحظات السعادة القليلة عنده، منذ أصيل ذلك اليوم البعيد الذي اصطحبه فيه أبوه كي يشاهد الجليد، هي اللحظات التي كان يقضيها في مشغله لصياغة الفضة، حيث كان يمضي وقته، وهو يصوغ السمكات الصغيرة، ولقد أشعل اثنتين وثلاثين

حرباً، ونكث بكل عهوده مع الموت، وتمرّغ كالخنزير على مزابل المجد، فعل كل ذلك لكي يكتشف متأخراً، وبعد ما يقرب من أربعين عاماً، فضائل البساطة.

وعند الفجر، وبعد أن حطّمه العذاب في تلك الليلة المؤرقة، ظهر في الزنزانة، قبل ساعة واحدة من موعد تنفيذ الإعدام فقال للعقيد جيرينيلدو ماركيز :

ـ لقد انتهت المهزلة، أيها الصديق العزيز القديم. فدعنا نرحل قبل أن يقتلك البعوض هنا.

ولم يستطع العقيد جيرينيلدو ماركيز أن يخفي الازدراء الذي أوحى له به ذلك الموقف. فأجاب :

ـ لا أوريليانو. أفضل الموت على أن أراك قد استحلت إلى طاغية جزار.

فقال العقيد أوريليانو بوينديا :

ـ لن تراني كذلك. هيا البس حذاءك، وساعدني على وضع حد لهذه الحرب القذرة.

ولم يكن يخطر له أن إشعال الحرب أسهل بكثير من إنهائها. فقد اضطر لأن يتخذ مظهر الدموي الشرس الذي لا يعرف اللين طوال عام بكامله، لكي يكره الحكومة على عرض شروط ملائمة للثوار. كما قضى عاماً آخر كي يتمكن من إقناع أنصاره ومحاربيه بأن المصلحة تقضي بقبول تلك الشروط. وقد بلغت القسوة عنده حدوداً لا يمكن أن يتخيلها المرء، عندما عزم على القضاء على ثورة ضباطه الخاصين الخلّص، الذين ثاروا عليه يعارضون المساومة على النصر. وانتهى به الأمر إلى الاستعانة بقوات العدو كي يقضي عليهم.

ولم يتميز عمره كمحارب كما تميز خلال تلك الفترة. فقد أشعل نار حماسته إيمانه بأنه إنما يقاتل من أجل تحرير ذاته، لا من أجل مثل عليا مطلقة، ولا من أجل شعارات السياسيين، الذين يحولونها كيفما طاب لهم: حتى درجة تبني ما يناقضها، حسب المناسبة. وكثيراً ما كان يعيب عليه تهوره اللا مجدي صديقه العقيد جيرينيلدو ماركيز، الذي كان يناضل من أجل الهزيمة بالإيمان نفسه الذي كان يقاتل به من أجل النصر. ولكنه كان يجيبه وهو يبتسم قائلاً:

ـ لا تقلق. فالموت أصعب مما يمكن أن يتصوره الإنسان. وقد كان ذلك صحيحاً في حالته. فلقد منحه إيمانه الاعتقاد بأن نهايته لا تحين إلا في ساعة محتومة، نتيجة لحصانة غير مرئية، وخلود مقدّر بأجل. فبات لا تضر به أخطار المعارك التي يخوضها. وأخيراً تمكن من الفوز بهزيمة كانت أكثر صعوبة، وأشد دموية، وأعظم ثمناً مما كلفه النصر إياه.

وقد كان العقيد أوريليانو بوينديا يعود إلى البيت، من حين لآخر، عشرين عاماً من الحرب. ولكن السرعة التي كان يصل بها دائماً، ومظاهر القوة التي كانت تحيط به، حيثما حلّ، والهالة الأسطورية التي كانت تعظم شأن وجوده، فتتأثر بها أمه أورسولا نفسها؛ كل ذلك كان يجعل منه غريباً في داره.

أما في المرة الأخيرة التي وصل فيها إلى ماكوندو، وأقام في بيت آخر، مع محظياته الثلاث، فلم يزر بيت الأسرة سوى مرتين أو ثلاث، كان يفرغ فيها نفسه ويقبل الدعوة للغداء. وما كانت تعرفه ريميديوس الجميلة، ولا التوأمان(١) اللذان ولدا في الحرب إلا معرفة سطحية. حتى أمارانتا لم تكن قادرة على المواءمة فيه، بين صورة الأخ الذي قضى فتوته

(١) الثلاثة هم أبناء أركاديو، الذي هو ابن أخيه خوزيه أركاديو، والذي حكم ماكوندو في غيابه.

في مشغله يصنع سمكات ذهبية صغيرة، وبين الأخ المحارب الخرافي، الذي وضع بينه وبين سائر الإنسانية مسافة عشر أقدام (ثلاثة أمتار).

ولما شاع أن الهدنة قد أصبحت قريبة، وعندما تخيل أهله أنه سيعود إلى سابق سيرته الإنسانية، وسيرجع إلى حب أهله، استيقظت العواطف العائلية، التي كانت قد غفت طويلاً، وظهرت من جديد وبأقوى مما كانت عليه في يوم من الأيام. فقالت أورسولا:

ـ وأخيراً، سوف يكون لنا رجل في البيت من جديد.

وكانت أخته أمارانتا أول من ذهب بها الظن إلى أنهم قد فقدوه إلى الأبد، وألاّ حيلة لهم فيه. كان ذلك عند إيابه ودخوله البيت، قبل موعد الهدنة بأسبوع، دون أن يصحبه حرس، بل يتقدمه خادمان حافيان، وضعا عند عتبة البيت سرجاً أنزلوه عن ظهر البغل، كما أنزلوا الصندوق الذي كان يحتوي على أشعاره. وكان ذلك آخر ما تبقى له من أمتعته الامبريالية. ورأته أمارانتا يمر قرب باب مشغل الخياطة، فنادته. فبدا على العقيد أوريليانو بوينديا أنه يجد صعوبة في معرفتها وتذكرها. فقالت له مداعبة وفرحة سعيدة برجوعه:

ـ أنا أمارانتا.

ثم أرته اليد المربوطة بالعصابة السوداء، قائلة:

ـ انظر.

فابتسم لها العقيد أوريليانو بوينديا نفس ابتسامة ذلك اليوم الذي رأى فيه العصابة لأول مرة، وكان ذلك في صباح اليوم الذي رجع فيه إلى ماكوندو محكوماً عليه بالإعدام. وهتف قائلاً:

ـ يا للهول! كيف يمرّ هذا الزمن!

كان على قطعات من الجيش النظامي أن تحرس بيته. فقد سخر منه

الناس، وبصقوا حيث كان يمرّ. فقد اتهموه بأنه إنما أثار الحرب وهو لا يستهدف منها إلاّ القضاء عليها بأيّ ثمن. كان يرتعش برداً وحمى، وقد امتلأ إبطاه، من جديد، بالدمامل والبثور.

ولما سمعت أورسولا، قبل ستة أشهر خلت بقرب الهدنة، فتحت غرفة عرسه ونظفتها، وأحرقت في زواياها نبات المر، ظناً منها أنه عائد كي يقضي شيخوخته بهدوء، بين ألعاب ريميديوس(١) القديمة. والحق أنه، في السنتين الأخيرتين، قدّم للحياة، كل ديونه المستحقة، ومنها ديون الشيخوخة. ولما مرّ أمام مشغل الصياغة، وكانت أورسولا قد رتبته بعناية خاصة، لم يلحظ أن مفاتيحه كانت ما تزال في أقفالها. ولم ير كذلك آثار الزمن الحزينة الصغيرة التي خلفها وراءه، والتي يمكن أن تبدو، بعد ذلك الغياب الطويل، كارثة فادحة لمن ظلت الذكريات حيّة في نفسه. ولم يتألم لتساقط الطلاء عن الجدران، ولا لخيوط العنكبوت المتعفنة في الزوايا، ولا للغبار المتراكم على أزهار البيجونيا، ولا للشقوق والحفر التي أحدثتها الحشرات والديدان في خشب عوارض السقف، ولا للأشن الذي نبت في رزز الأبواب. ولم يؤثر فيه أي مكمن للحنين كان يترصده. فجلس في الشرفة متلفعاً بدثاره، دون أن ينزع حذاءه الطويل الساق، كأنما هو ينتظر بادرة صحو تدعوه للنهوض. وأمضى ما بعد الظهر كله يرقب المطر المتساقط من السماء على أزهار البيجونيا. وأدركت أورسولا أنها لن تحتفظ به في البيت طويلاً. وفكرت في نفسها قائلة :

ـ إن لم تأخذه الحرب فسوف يأخذه الموت. وبدا لها أن تفكيرها صاف ومقنع حتى عدّته نبوءة.

في ذلك المساء، وعلى مائدة العشاء، قطع أحد التوأمين، الذي أسموه أوريليانو الثاني، خبزه بيده اليمنى، بينما احتسى الشوربا بيده

(١) زوجته التي لم تعمر طويلا.

اليسرى. وقطع أخوه، الذي أسموه أركاديو الثاني، خبزه بيده اليسرى، واحتسى الشوربا بيده اليمنى. وكانت حركاتهما متناسقة بدقة، حتى ليظن من يراهما أنهما ليسا أخوين جلس أحدهما قبالة الآخر، بل لعبة تجلس أمام مرآة. وقد اخترع التوأمان ذلك المشهد منذ أن أدركا تشابههما التام، ومثّلاه على شرف القادم الجديد. ولكن العقيد أوريليانو بوينديا لم ينتبه لذلك. كان يبدو غريباً وبعيداً عن كل شيء، حتى إنه لم يلاحظ ريميديوس الجميلة عندما مرّت عارية إلى غرفتها. ولم يجرؤ أحد، على تعكير استغراقه وتأمله في أفكاره، سوى أورسولا. فقد قالت له في منتصف العشاء :

ـ إذا كنت تريد أن ترحل مرة أخرى، فحاول على الأقل، أن تذكر كيف كنا هذا المساء.

وعندها أدرك العقيد أوريليانو بوينديا، دون اندهاش ولا مفاجأة، أن أورسولا كانت الإنسان الوحيد الذي استطاع أن يسبر غور بؤسه. وتجرأ، للمرة الأولى منذ سنوات طويلة، أن ينظر إليها وجهاً لوجه. كان كل جسمها غضوناً وتجاعيد، وكانت أسنانها منخورة، وقد حال شعرها فبات لا لون له، وانطفأ البريق الذي كان في نظراتها. فقارنها بأقدم صورة لها في ذاكرته. فعاد إلى عصر ذلك اليوم، حين شعر أن قدر المرق يكاد يسقط عن الطاولة. وما كان تذكره هذا إلا ليرى صورتها مِزقاً. وفي مثل لمح البصر، تبيّن ما خلفته فيها معيشة نصف قرن من الزمن، من خدوش وجراح وآثار بارزة وقروح وندوب، وتبيّن أن منظر هذا التهدم والانحطام لم يوقظ في نفسه أيّ إحساس بالشفقة.

وبذل أقصى جهده وهو يبحث في قلبه عن المكان الذي تعفن فيه حبه واهترأ، ولكنه لم يجد لذلك سبيلاً. فقد كان في الماضي يخالجه شعور معقد بالخجل، عندما يكتشف في جلده رائحة أورسولا. ولقد أحسّ،

أحياناً كثيرة، بأفكارها تلتقي بأفكاره. ولكن الحرب قد طوت كل ذلك. حتى ريميديوس، زوجته نفسها، لم تعد الآن سوى صورة مهزوزة لمخلوقة كان يمكن أن تكون ابنته. وأما النساء اللواتي عرفهن في صحراء الحب، وبعثرن بذوره على طول الشاطىء، فلم يخلفن أي أثر في قلبه. فقد كان أكثرهن يدخلن غرفته في حالك الظلام ويغادرنها قبل الفجر، فلا يبقى منهن غير بعض القرف والاشمئزاز في ذاكرة الجسد. أما العاطفة الوحيدة التي قاومت الزمن والحرب، فقد كانت تلك التي كان يحملها لأخيه خوزيه أركاديو عندما كانا طفلين. ولم تكن تلك العاطفة مبنية على الحب، بل على التفاهم والوفاق.

فعلق على مطلب أورسولا معتذراً بقوله :

ـ آسف، وأستميحك العذر. فالواقع أن الحرب قد أودت بكل شيء.

أمضى الأيام التي تلت، وهو يعمل على محو كل أثر لمروره في هذا العالم. فجرّد مشغل الصياغة الفضية من كل أثر شخصي، وأعطى ملابسه لخادميه، ودفن سلاحه في فناء الدار، بنفس الشعور من الندم الذي دفن فيه أبوه، ذات يوم، الرمح الذي قتل به بروديسنيو أجويلار(١). ولم يبق إلا على مسدّس واحد وطلقة واحدة فيه. ولم تتدخل أورسولا. فالمرة الوحيدة التي حاولت فيها أن تثنيه عن فعلٍ ما كانت حين أراد أن يحطم صورة زوجته ريميديوس. التي كانت ما تزال في صالة الجلوس يضيء أمامها مصباح خارجي. عندها قالت له :

ـ لم تعد هذه الصورة ملكاً لك. منذ زمن طويل. إنها أثر من آثار العائلة.

وعشية الهدنة، وحين لم يبق في البيت ما يذكر به، ذهب إلى المطبخ، وهو يحمل صندوق أشعاره، في الوقت الذي كانت فيه سانتا

(١) كان ذلك إثر جولة من صراع الديكة.

صوفيا (التقية) تستعدّ لإشعال الموقد. فقال لها، وهو يناولها أول لفافة من الأوراق المصفرّة :

ـ أشعليه بهذه. فهذه أشياء قديمة أفضل اشتعالاً من سواها.

وشعرت سانتا صوفيا، وهي اللطيفة الصامتة أبداً، والتي لم تتعوّد أن تعارض أحداً حتى ابنيها الصغيرين، أنه يطلب منها أمراً غريباً لا يسمح به، فقالت له :

ـ هذه أوراق هامة.

فأجابها العقيد :

ـ لا، ليست هامة. فهي أشياء يكتبها المرء لنفسه. فقالت له :

ـ إذن، فأحرقها أنت أيها العقيد.

ولم يحرقها وحسب، بل حطم الصندوق بالقدوم، ورمى بقطعه إلى النار. وكانت، قبل ذلك بساعات، قد جاءت بيلار تيريزا لزيارته. فعجب لها العقيد أوريليانو بوينديا، فهو لم يرها منذ سنين طويلة. فكانت قد شاخت وسمنت، وفقدت ضحكتها المجلجلة الرائعة. ولكن الذي أدهشه كذلك هو مدى العمق الذي بلغته في قراءة ورق اللعب. فقالت له :

ـ حذار فمك.

وقد تساءل عما إذا كانت المرة الأخيرة، عندما قالت له ذلك وهو في ذروة مجده وعظمته، نوعاً من الرؤيا الإلهامية المفاجئة بقدره. وبعد قليل وصل طبيبه الخاص كي يكمل له عملية استئصال الدمامل والبثور من تحت إبطيه. فسأله سؤالاً عفوياً، كأنما لا يعلق عليه أية أهمية، عن الموضع الدقيق لقلبه. ففحصه الطبيب ثم رسم له دائرة بصبغة اليود على صدره.

أطل يوم الثلاثاء، يوم إعلان الهدنة، رطباً ماطراً. ودخل العقيد أوريليانو بوينديا إلى المطبخ في الساعة الخامسة صباحاً، فشرب قهوته حسب عادته. فقالت له أورسولا :

ـ لقد جئت إلى الدنيا في يوم كهذا. وقد أخفت الناس جميعاً بعينيك المفتوحتين.

فلم يدرك شيئاً مما قالته، فقد كان اهتمامه منصبّا على استعدادات الجيش، وأصوات أبواق النفير، وإصدار الأوامر، التي كانت جميعاً تعكر صفاء الجو عند الفجر. وكان الطبيعي أن تبدو له تلك الجلبة شيئاً عادياً، بعد كل السنين التي قضاها في الحرب، ولكنه شعر بركبتيه تصطكان وتضعفان، وبأمواج متتابعة من القشعريرة تجتاح جلده، وهو الشعور نفسه الذي أحس به، ذات يوم، بحضور امرأة عارية. وأخيراً وقع في مصيدة من مصائد الحنين، الذي يكاد لا يبين، عندما راح يفكر في ما لو أنه تزوج من تلك المرأة. أما كان يمكن له أن يغدو إنساناً سعيداً لا يعرف المجد والحرب، مجرد حرفيّ بلا اسم، مجرّد حيوان سعيد. ومنحت هذه الهزة المتأخرة طعام فطوره طعماً مراً، ما كان ينتظر قط أن تصيبه.

وعندما حضر العقيد جيرينيلدو ماركيز، في الساعة السادسة صباحاً. مع جماعة من الضباط، كي يصحبوه، ألفاه أكثر صمتاً، وأشد استغراقاً في أفكاره، وأكثر شعوراً بالوحدة من أي وقت مضى. وحاولت أورسولا أن تضع على كتفيه دثاراً جديداً، قائلة له :

ـ ترى ماذا سيظن رجال الحكومة. قد يظنون أنك إنما استسلمت لأنك لا تملك ثمن دثار تشتريه.

ولكنه لم يقبل. وعند عتبة الباب، رأى المطر ما يزال يهطل، فوضع على رأسه قبعة قديمة من المخمل، كانت يوماً لأبيه خوزيه أركاديو بوينديا. وعندها قالت له أورسولا :

ـ عدني بأنك، إذا صادفت وقتاً عصيباً سيئاً هناك، سوف تفكر بأمك.

فابتسم لها من بعيد، ورفع يده ملوّحاً بأصابعه المتباعدة، ودون أن ينبس ببنت شفة، غادر البيت، لكي يواجه صياح الناس، وصرخات الشتيمة والسب، وصب اللعنة، التي كانت تلاحقه حتى غادر البلدة.

أسقطت أورسولا عارضة الحديد خلف الباب، وهي عازمة على ألا ترفعها ما دامت على قيد الحياة. وقالت في نفسها :

ـ لنتعفن ونهترىء هنا في الداخل. فسوف نتحول إلى رماد في هذا البيت دون رجال. ولكننا لن نمنح هذه البلدة البائسة سعادة أن ترانا نبكي وننتحب.

وأمضت صباح اليوم بطوله تبحث عن ذكرى لابنها في أكثر الزوايا إيغالاً في البعد والنسيان، ولكنها لم تقع على شيء.

جرى الاحتفال على بعد خمسة عشر ميلاً من ماكوندو، في ظل شجرة كابوك ضخمة ، بنيت حولها ، فيما بعد ، بلدة نيرلانديا ، فاجتمع مندوبو الحزب والحكومة، ولجنة الثوار الذين كانوا يلقون أسلحتهم. وقام على خدمتهم جماعة من الراهبات المبتدئات النشيطات الصاخبات، بثيابهن البيضاء، كأنهن رفّ من الحمام أجفله المطر ووصل العقيد أوريليانو بوينديا على ظهر بغل يغطيه الوحل، دون أن يحلق ذقنه. فقد كان يعذبه، أكثر من بثور إبطيه، انهيار أحلامه. فقد بلغ الحدّ الذي لم يعد بعده أمل ، بلغ ما وراء المجد والحنين إلى المجد . وقد أذعنوا لأوامره بألاّ تعزف الموسيقى، وألا تطلق الأسهم النارية، وألاّ تقرع أجراس الفرح، وألاّ يصدر أي هتاف من أحد. فكان لا يريد أي شيء من شأنه أن يخدش جلال حزن الهدنة. حتى أجبر المصور الجوال الوحيد على إتلاف كل لوحاته السلبية لأنه التقط له صورة، كانت هي الوحيدة، التي كان

يمكن أن تبقى من بعده .

لم يستغرق الاحتفال سوى الوقت اللازم لتوقيع الوثائق. فقد وضعت طاولة مستديرة صدئة وسط خيمة السيرك المنصوبة لهذه الغاية، وقد جلس حولها المندوبون، وبينهم آخر الضباط الذين ظلوا على وفائهم للعقيد أوريليانو بويندیا. وقبل التوقيع حاول الممثل الخاص لرئيس الجمهورية أن يقرأ وثيقة التسليم بصوت عال، فعارضه العقيد أوريليانو بويندیا قائلاً :

ـ لا لزوم لإضاعة الوقت في الشكليات.

بينما استعدّ لتوقيع الأوراق دون قراءتها. ولكن أحد ضباطه قطع الصمت المهيمن على جو الخيمة كله، قائلاً :

ـ أيها العقيد، نرجو أن تتنزل عند رجائنا في ألاّ تكون أول الموقعين.

واستجاب العقيد أوريليانو بويندیا للرجاء، ودارت الوثيقة حول الطاولة دورة كاملة، في جو من الصمت المطبق، حتى ليكاد المرء يتبيّن التواقيع من صوت حركة الريشة على الورق. وظل مكان التوقيع الأول على الوثيقة فارغاً، واستعد العقيد أوريليانو بويندیا لملء الفراغ. وعندها قال ضابط آخر :

ـ أيها العقيد، ما يزال هناك متسع لعمل الصواب.

ولكن العقيد أوريليانو بويندیا وقّع النسخة الأولى، دون أن يبدو عليه أي تغير في ملامحه أو تعابيره. وما كاد ينتهي من ذلك، حتى بدا في مدخل الخيمة أحد العقداء الثوار، يجرّ بغلاً على ظهره صندوقان. وعلى الرغم من كونه شاباً في أول ريعانه، كان ذلك العقيد جافاً وإن بانت عليه علائم الصبر. كان هذا خازن الثورة في إقليم ماكوندو. وقد استغرقت رحلته ستة أيام، وهو يجرّ بغله الجائع، لكي يصل إلى المكان عند إعلان الهدنة. فأنزل الحمولة عن البغل بطريقة احتفالية، وفتح

الصندوقين، ثم وضع على الطاولة اثنتين وستين سبيكة ذهبية، واحدة بعد الأخرى.

وكان الناس جميعاً قد نسوا كل شيء عن تلك الثروة. ففي فوضى السنة الأخيرة، وبعد أن تمزقت القيادة العامة، وانتهت الثورة إلى نزاع بين قادتها، وضاعت المسؤولية حتى استحال تحديدها، بقيت ثروة الثورة من الذهب. فحوّل الذهب إلى سبائك غطيت بالفخار، وحفظت بحيث لا تصل إليها يد. وأدخل العقيد أوريليانو بويندیا سبائك الذهب الاثنتين والستين في محضر الاستسلام واللوائح المرفقة له، ثم أنهى الحفل دون أن يسمح لأحد بإلقاء خطاب. ولكن العقيد الشاب ظل واقفاً أمامه مسمّراً يحدق فيه بعينيه العسليتين الصافيتين. فسأله العقيد أوريليانو بويندیا :

ـ هل تريد شيئاً آخر؟.

فأجاب العقيد الشاب :

ـ نعم، الإيصال.

فكتبه له العقيد أوريليانو بويندیا بخط يده. وتناول قطعة من رقائق البسكوت، وكأساً من الليمون، مما قدمته الراهبات، ثم انسحب إلى خيمة عسكرية أقيمت له لكي يستريح فيها. وعندما دخل الخيمة، خلع قميصه وجلس على حافة السرير العسكري. وفي الساعة الثالثة والربع من بعد ظهر ذلك اليوم، تناول مسدسه وأطلق الرصاصة على نفسه في وسط الدائرة المرسومة بصبغة اليود، التي رسمها طبيبه الخاص على صدره . وفي تلك الساعة نفسها ، في ماكوندو ، رفعت أورسولا الغطاء عن قدر الحليب الموضوع فوق النار في الموقد. فقد دهشت لتأخرها عن الغليان. وفوجئت لما رأتها قد امتلأت دوداً، فصاحت :

ـ لقد قتلوا أوريليانو.

ثم رنت بنظرها نحو فناء الدار بحكم ما تعوّدته في وحدتها، فرأت زوجها خوزيه أركاديو بوينديا وقد بلله المطر.

وكان يبدو حزيناً تحت المطر، وقد طغت عليه الشيخوخة والعجز أكثر مما بدا عليه يوم مماته. فقالت أورسولا :

ـ لقد أطلقوا عليه النار من الخلف. ولم يكن حوله محسن يغمض له عينيه.

ولما زحف الليل وجنّ الظلام، رأت في السماء، من خلال دموعها، دوائر مشعة تتلاقى سريعة وامضة، شبيهة برجم الشهب، فظنت أنها نذر الموت. فظلت قابعة تحت شجرة الكستناء، تبكي وتنتحب في حضن زوجها، حتى أدخلوا العقيد أوريليانو بوينديا، ملفوفاً بدثاره الخشن الملطخ بدمه الجاف، وعيناه جاحظتان وتنضحان غضباً.

لقد نجا من الخطر. فقد سلكت الرصاصة مساراً أميناً، واستطاع الطبيب أن يدخل في صدره فتيلاً مبللاً باليود، وبعد أن أخرجه من الجرح في صدره، قال بسرور :

ـ هذه أعظم عملية أجريتها في حياتي. فهذا المسار هو الخط الوحيد الذي يمكن أن تمر منه الرصاصة دون أن تمس أي عضو حيوي.

ورأى العقيد أوريليانو بوينديا الراهبات، وهن يُحطن به، ويرتلن أناشيدهن الحزينة من أجل راحة نفسه . وقد شعر بالندم، عندئذ، لأنه لم يطلق الرصاصة في فمه كما كان عازماً، ولكنه لم يفعل لأنه لم يكن يريد أن يصدق نبوءة بيلار تيرنيزا.

فخاطب الطبيب قائلاً :

ـ لو بقي لي بعض السلطة لأعدمتك دون محاكمة. لا لأنك أنقذت حياتي، ولكن لأنك أظهرتني غبياً.

وأعادت له هزيمته أمام الموت، خلال ساعات قلائل، المكانة والعظمة اللتين فقدهما. أما الناس الذين أشاعوا عنه، اختلاقاً، أنه قد باع الحرب والثورة لقاء بيت جدرانه مصنوعة من سبائك الذهب، فقد جعلوا، هم أنفسهم الآن، يروون القصص عن محاولة انتحاره، وكيف أنها دليل على الشرف، معلنين أنه شهيد عظيم.

وعندما رفض وسام الاستحقاق الذي منحه إياه رئيس الجمهورية، زاره ألدّ أعدائه في غرفته، الواحد بعد الآخر، وجعلوا يطالبون بأن ينقض شروط الهدنة ويعلن الحرب من جديد. وقد غص البيت بهداياهم، لعلهم يزيلون آثار موقفهم المعادي في الماضي.

وأخيراً، وبسبب تأثره بدعم رفاق السلاح، لم يستبعد العقيد أوريليانو بوينديا احتمال الاستجابة لرغبتهم وإلحاحهم. بل ظهرت عليه، في بعض الفترات، حماسة طاغية لفكرة الحرب من جديد. حتى ظن العقيد جيرينيلدو ماركيز أنه لم يكن ينتظر سوى السبب والمناسبة لإعلانها.

وقد جاءت المناسبة عندما رفض رئيس الجمهورية أن تدفع للمحاربين القدماء، أحراراً كانوا أو محافظين، رواتبهم، مشترطاً تقديم ملف كامل تصادق عليه لجنة خاصة. وتلا ذلك أن صدر قانون جديد بالرواتب عن مجلس النواب. فأرعد العقيد أوريليانو بوينديا هادراً :

ـ هذا إخلال بالقوانين وخروج على الاتفاق وخرق له. فسوف يبلغون أرذل العمر في شيخوختهم قبل أن يصل البريد.

وللمرة الأولى، غادر مقعده الهزّاز، الذي اشترته له أورسولا في فترة النقاهة . وأملى ، وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، برقية لرئيس الجمهورية واضحة لا لبس فيها. وكانت برقيته، التي لم يذع نصها قط، تشكّل أول خرق لمعاهدة نيرلانديا، وتهدد باستئناف حرب لا هوادة فيها، ما لم

يقرر رئيس الجمهورية دفع الرواتب، خلال مدة أقصاها خمسة عشر يوماً. وقد كان من عدالة موقفه أنه كان يتوقع انضمام قدامى المحاربين المحافظين إليه. أما جواب الحكومة فلم يكن سوى مضاعفة الحرس على باب بيته، بحجة حمايته، ثم منع الناس من زيارته مهما كان سبب الزيارة. واتخذت احتياطات وإجراءات مشابهة، في مختلف المناطق، ضد القادة الذين كانوا قيد المراقبة. وقد أجريت هذه العملية في الوقت المناسب، وكانت جذرية وحاسمة، حتى إن أقوى معاوني العقيد أوريليانو بوينديا كانوا، بعد شهرين من توقيع المعاهدة، أي حين شفي من جرحه ، بين ميت أو منفي ، أو موظف مستوعب في إحدى دوائر الدولة.

غادر العقيد أوريليانو بوينديا غرفته في شهر كانون الأول (ديسمبر)، وما إن حانت منه التفاتة إلى الشرفة حتى أقلع عن التفكير في الحرب.

وجددت أورسولا شباب البيت، بحيوية ونشاط لا ينتظران ممن في مثل عمرها. وقالت بعد أن تأكدت أن ابنها سوف يعيش :

ـ والآن، سيرى الناس أي نوع من البشر نحن. فلن يجدوا داراً أفضل من دارنا، ولا بيتاً أكرم من بيتنا، بيت المجانين.

فقد نظفت الدار، وطلت الجدران، وغيّرت الأثاث، وزرعت الزهور الجديدة في كل مكان ، وشرّعت النوافذ وفتحت الأبواب ، كي يدخل ، إلى كل أنحاء البيت، ضوء الصيف الرائع. ثم أعلنت نهاية للحداد المتكرر، وخلعت الثياب السوداء التي طالما ارتدتها، المرة تلو الأخرى. وجددت، هي ذاتها، زينتها، وثيابها القديمة الخشنة التي استبدلت بها ثياب الصبايا. وصدحت في الدار موسيقى البيانو الآلي، فأحالت جو البيت إلى فرح ومرح. فتذكرت أمارانتا، وهي تسمع الموسيقى، بيترو كريسبي وزهرة الغاردينيا المسائية ورائحة الخزامى المرافقة. فأزهرت في

خبايا قلبها الذاوي بقايا ذكرى صافية بفعل الزمن.

وذات يوم عصراً، وبينما كانت أورسولا تنظم صالة الاستقبال، طلبت المساعدة من أحد الجنود الذين كانوا يحرسون البيت، فأذن له قائده بذلك. وشيئاً فشيئاً، أخذت أورسولا تكلف الجنود أعباء أخرى، كما كانت تدعوهم أحياناً لتناول طعام الغداء، وتهديهم ثياباً، وتعلمهم القراءة والكتابة.

وعندما أنهت الحكومة قيود الرقابة، بقي أحد الجنود في البيت، وعاش في خدمته سنوات طويلة. وقد وقع قائد الحرس الشاب في حب ريميديوس الجميلة، وجنّ بها جنوناً. ولكنها صدته، فقضى عشقاً، ووجد ميتاً تحت نافذتها. وكان ذلك لدى بزوغ فجر أول يوم في السنة الجديدة.